

جورج أورويل

الحنين إلى كاتالونيا

1938

مع ملحق

نظرة إلى الحرب الإسبانية

(1943)

ترجمة: عبد الحميد الحسن



منشورات
وزارة الثقافة
دمشق
2002

إهـــــــداء ٢٠٠٧
مديرية المطبوعات والنشر – وزارة الثقافة
الجمهورية العربية السورية

جورج أورويل

الحنين إلى كاتالونيا
(١٩٣٨)

مع ملحق نظرة إلى الحرب الإسبانية
(١٩٤٣)

ترجمة
عبد الحميد الحسن



العنوان الأصلي للكتاب :

Homage to Catalonia

(1938)

روايـات عالميـة

«٩٦»

مقدمة الترجمة

جورج أورويل هو الاسم المستعار لإريك آرثر بلير ERIC ARTHUR BLAIR (ولد سنة ١٩٠٣ في موتيهاري في البنغال في االهند وتوفي أوائل سنة ١٩٥٠ في لندن) وهو إنكليزي كتب في حياته القصيرة الرواية والمقالات المتنوعة والنقد االأدبي والاجتماعي. وقد اشتهر بروايتيه «مزرعة الحيوان» (١٩٤٥) و «ألف وتسعمائة وأربع وثمانون» (١٩٩٤) وهذه الأخرى هي أشهر رواية عُدّت مضادة لليوتوبيا Dystopia لكنها في الواقع تهدف لمعارضة الحكم المطلق الشمولي، والفساد.

لم يتخلّ إريك آرثر بلير عن اسمه الأصلي ويتخذ اسمه الأدبي، جورج أورويل، عامداً. لكن كتابه الأول وهو رواية "الانحطاط والتشرد في باريس ولندن"[١] ظهر باسم مستعار هو جورج أورويل (وقد استقى النسبة من نهر أورويل الذي يجري في إيست آنجليا، والحنين إلى ضفافه هو لب روايته التي سنصدرها قريباً: الصعود لالتقاط الأنفاس). ومع الزمن نُسِيَ في الحياة العامة اسمه الحقيقي ولم يبق إلا القليل من المقربين والأقرباء يعرفونه باسمه بلير، ويتفق تغيير الاسم مع تغيير في أسلوب حياة أورويل فانقلب من أحد أساطين المؤسسة الاستعمارية البريطانية إلى ثوري في الناحيتين الأدبية والسياسية.

---

(١) Down and Out in Paris and London .

ولد في طبقة المستعمرين شبه الاستيطانيين الذين يطلق على الواحد منهم في البنغال لقب ساهيب أو (صاحب) كما يحلو للبعض أن يترجمها. وكان أبوه موظفاً متوسطاً في سلك الخدمة المدنية الهندية (التابعة لبريطانيا)؛ وأما أمه فمن أرومة فرنسية، بنت تاجر خشب في بورما، ولم يكن بدوره موفقاً في تجارته. فموقفهم في الحياة كان موقف الذين يسميهم أورويل ذاته "الأسياد بدون ملكية لأرض" وقد أطلقه على أرباب الجانب الأسفل من الطبقة المتوسطة، الذين لايتناسب ادعاؤهم بالمركز الاجتماعي المحترم مع دخلهم وإمكانياتهم الفعلية.

رجعت أسرة أورويل إلى إنجلترا، حيث تميز في دراسته التحضيرية بجده وذكائه، لكنه كان حاد الطبع مشاكساً، يميل إلى العزلة كما روى بعد حين (سنة ١٩٥٣) عن سيرته الذاتية في المقالة «هكذا، هكذا كانت الأفراح»[٢]

هكذا، ولتفوّق أورويل، وربما لنفوذ عائلته الأكبر من إمكانياتها المادية، نال وهو صبي منحاً دراسية في أرقى مدارس إنجلترا فاختار منها مدرسة إيتون الشهيرة. وقضى فيها خمس سنوات درسية حتى ١٩٢١. وكان من أساتذته فيها هناك ألدوس هكسلي الذي سوف يسبقه في النقد التشاؤمي خصوصاً بروايته الشهيرة «العالم الجديد»[٣] بسبعة عشر عاماً (١٩٣٢). بعدها لم يلتحق بالجامعات التي نال منحاً فيها وفضل مسايرة تقاليد العائلة وذهب إلى بورما في الشرق الأقصى ليعمل في البوليس الإمبراطوري برتبة متواضعة، وبدا للوهلة الأولى مثالاً للموظف الاستعماري. لكنه بعد أن لاحظ القسر الذي يتعرض له البورميون على يد البريطانيين أخذ يتزايد شعوره بالقرف من دوره شرطياً في خدمة المستعمِرين كما كتب بعدئذ سارداً معاناته

---

[2] *Such, Such Were the Joys*

[3] Brave New World ترجمتها إلى العربية منذ أكثر من نصف قرن دار طه حسين، دار الكاتب المصري. والعجيب أنها فسَرت عندنا بأنها نبوءة لمستقبل مشرق للبشرية في ظلال العلم الجديد والعقل العلمي!

وتجاربه في رواية "أيام بورما"[4] وفي مقالتين تعدّان الآن من الكلاسكيات في الأدب الوصفي الاحتجاجي وهما: إطلاق النار على فيل ، والشنق.[5]

في أول سنة ١٩٢٨ قدم أورويل استقالته من الخدمة في بورما، وظل في لندن بعدما قضى إجازة طويلة في لندن آخر العام السابق، وكان قد قام في تلك الإجازة بعمل سيحدد نهائياً شخصيته كاتباً وإنساناً؛ ذلك أنه انغمس في حياة فقراء أوروبا ومنبوذيها. فلبس الثياب البالية وانحدر إلى الناحية الشرقية من لندن، حي البؤساء الشهير، فترل في أرخص المنازل بين العمال الكادحين والشحاذين. كما قضى فترة من الزمن في الحواري الحقيرة في باريس يعمل في غسيل الأواني والمواعين في المطاعم والفنادق. وأخيراً جال في دروب إنجلترا مع مشردي البلد وعيّاريها المحترفين. وتنقّل مع حثالة فقراء لندن في هجرتهم السنوية للعمل في حقول كينت.

هذه التجارب أمدت أورويل بمواد كتابه عن التشرد في باريس ولندن الذي ذكرناه أعلاه، وقد كتبه وهو في الثلاثين من العمر. وقد نجح في سرد الحوادث الحقيقية ولها طلاوة التأليف الروائي وتشويقه، وسيرى القارئ هذه الموهبة في كتابنا هذا عن كاتالونيا؛ كل الأحداث المذكورة فيه واقعة ومشاهدة بدقة المخبر الصحافي، ومع هذا لايتردد المرء في اعتبارها رواية، بل هي تنشر الآن بهذه الصفة! وقد اكتسب المؤلف صفة الأديب ولفت الانتباه منذ كتابه الأول. أما روايته الأولى وهي «أيام بورما» صدرت بعد سنة (١٩٣٤) وقد أظهرت النمط الذي سيسير عليه في رواياته التالية من تصويره لشخصية الفرد الحساس، الذي يتمتع بضمير ووجدان حيّين مسيطرين بحيث ينعزل صاحبهما عاطفيًّا عن محيطه القاهر المنافق الذي لايراعي دواعي الشرف إلا ظاهريًّا، فيصعب عليه التلاؤم معه. البطل في رواية أيام بورما هو

---

[4] Burmese Days وقد ترجمت منذ زمنٍ قليل إلى العربية

[5] "Shooting an Elephant" and "A Hanging,"

موظف إداري صغير يحاول الخلاص من التعصب الوطني الكئيب الذي يسيطر على عقول أبناء بلده البريطانيين العاملين في بورما. لكن تعاطفه مع أهالي بورما ينتهي به إلى نهاية شخصية فاجعة لم تكن في الحسبان. وتستمد رواية ابنة الكاهن[٦] عناصرها من معاناته مع العمال الزراعيين فتقص قصة عانس تعيسة مكبوتة يكون خلاصها في تجاربها مع العمال الموسميين. أما رواية «فلتبق الراية مرفوعة»[٧] فهي عن مستخدم في بيع الكتب يتمتع باهتمامات أدبية وتمضّه الروح التجارية المادية التي تعامل بها ثمار الثقافة البشرية.في حياة أفراد الطبقة الوسطى البورجوازية، لكنه يتصالح أخيراً مع الرفاه البورجوازي بعد زواجه، بالإكراه، من ابنة رب عمله.

نفور أورويل من الإمبريالية لم يؤدِّ به فقط إلى نبذ طراز الحياة البورجوازي، بل وأيضاً إلى مواقف سياسية. كان يصف نفسه عند عودته من بورما بالأناركي (الخارجي، الفوضوي) وظل على هذا عدة سنوات.ثم أصبح في الثلاثينيات يعدّ نفسه من الاشتراكيين الاجتماعيين **socialist** بالرغم من أنه كان من دعاة الحرية الليبرالية بحيث لم يتخذ الخطوة التي كانت مألوفة تلك الأيام بإعلان أنه شيوعي على مبادئ لينين الذي كان توفي قريباً ولم يتضح عسف خلفائه بعده.

في أواخر سنة ١٩٣٦ والجزء الأكبر من ١٩٣٧جرت أحداث ووقائع روايتنا المغرقة في الواقعية هذه بالتحاق المؤلف بخضم الحرب الأهلية الإسبانية. وفي العام التالي (١٩٣٨) صدر هذا التقرير عنها بقالب أدبي إنساني يعدّه معظم النقاد خيرَ ماكتب، بغض النظر عن العملين المذكورين أعلاه؛ مزرعة الحيوان و١٩٨٤. وفي السنة ذاتها صدرت أولى رسائله الأصلية الجديدة عنْ تلك الأيام وعلى ذلك

---

[6] A Clergyman's Daughter

[7] Keep the Aspidistra Flying

من الكتابة وهي رواية 'الطريق إلى ويجان بيير (قناطر أو قساطل ويجان) [8]، وصف فيها معاناته حين انتقل للعيش بين عمال المناجم البائسين، العاطلين عن العمل في شمال إنجلترا، وشارك في حياتهم اليومية ولاحظها ملاحظة دقيقة. وختمها بنقد حاد للحركات الاجتماعية الراهنة، يمينيةً كانت أم يسارية. فهي تجمع بين التقرير الصحفي اللاذع وبين الغضب الشريف الشخصي الذي أصبح أورويل فيه مثالاً يحتذى، ويتضح تماماً في روايتنا هذه عن الحرب في كاتالونيا.

ذلك أن أورويل ذهب إلى إسبانيا ورواية الطريق إلى ويجان في المطبعة، ذهب بالأساس كمراسل حربي يخبر عن مجريات الحرب الأهلية، لكنه قرر فور وصوله أن ينضم إلى إحدى فئات الميليشيات الجمهورية اليسارية، وخدم في جبهتي الأرّاجون والتيرول ووصل إلى رتبة ملازم. وقد أصيب بجرح خطير إذ استقرت رصاصة في عنقه أحدثت تلفاً دائماً في حنجرته أثر على صوته حتى آخر حياته وجعل له بحة وخفوتاً كانا محبّبين ومؤثرَين في نفوس سامعيه. لكنه تورط سنة ١٩٣٧ بالحرب التي قامت بين رفاق الأمس في مدينة برشلونة، وكان في الجانب المعادي للشيوعيين أتباع موسكو (بينما كان أعداء الطرفين أتباع كلا النظامين الهتلري والغربي بكافة تلوناتهما!) والظاهر أن أورويل كان في الجانب الأهلي الوطني غير المدعوم خارجيّاً من أحد؛ والذين عاشوا أحداث الحرب اللبنانية التي اندلعت بعد أربعين عاماً من تلكم الإسبانية يعرف هذا كأنه يلمسه لمس اليد، بل ويعجب ألم يسمع أحد بتلك «البروفة » التي جرت في إسبانيا لحساب العالم كله علّه يستفيد منها، أو عساه يتّعظ بها؟

---

8 The Road to Wigan Pier

الحاصل أنه وجد نفسه بعد قليل وحيداً مطارداً ليس له من معين، ويعرض أورويل تفاصيل هذه الأزمة بأسلوب رائع أصبح نموذجاً يحتذى حتى عند أمثال إرنست همنجواي، الذي حضر تلك الحرب لكن من مسافة أبعد قليلاً مما فعل أورويل (اقرأوا له رواية «الطابور الخامس»[9] التي لم أسمع بأنه ترجمها أحد).

فكتابنا هذا، هو روايةٌ أدبية بكل ماتعنيه هذه الكلمة من معنى، في علمي الحديث والتاريخ عند العرب، إضافةً لما تعنيه الرواية جنساً أدبياً متماسكاً داخلياً، متمتعاً بالتشويق، متسلسلاً، يشد القارئ إلى النهاية. وهذا بسبب تمكُّن أورويل من الكتابة التقريرية الصحافية التأملية والوصفية معاً. والمقاطع التي تتضمن ملاحظاته الدقيقة اللمَّاحة تخلّف لدى القارئ انطباعات دائمة عن شخصية إسبانيا والإسبان، وعن الحرب الحقيقية بكل أبعادها.

عبد الحميد الحسن

[9] The Fifth Column

لا تردَ على الجاهل بحسب سَفَاهته لِئلاً تكون أنت نظيرَه.

جاوِب الجاهل بحسب سَفَاهته لِئلاً يكون حكيماً في عينَي نفسه.

(سِفْر الأمثال ٢٦، ٥-٦)

١
الالتحاق بالميليشيا في برشلونة

قبل أن ألتحق بالميليشيات بيوم واحد، رأيت في ثكنة لينين في برشلونة، أحد رجال الميليشيات الطليان واقفاً على طاولة الضباط.كان شاباً مهيباً خشن المظهر في الخامسة والعشرين أو بعدها بقليل، أحمر الشعر إلى شقرة، قبعته الجلدية المقنطرة مسحوبة بشدة على إحدى عينيه. كنت أنظر إليه من الجانب؛ وقد انكفأت ذقنه على صدره، متجهماً مشغولاً بالتحديق، في خريطة جغرافية نشرها على الطاولة أحد الضباط. شيء في ملامح وجهه لفتني إليه، كان وجه رجل مستعد للقتل أو للتضحية بالنفس في سبيل صديق – ذلك الشكل من الوجوه الذي كنت أتوقعها بين الأناركيين، بالرغم من أنه قد لايكون منهم ويكون شيوعياً. كان في تعابيره العبوس والصرامة معاً، مع التحفظ الشديد الذي يتخذه العوام تجاه من يفترض أن يكونوا أعلى منهم. والظاهر أنه لم يكن يعرف من الخريطة رأسَها من ذيلها؛ وأنه كان يعدّ قراءة الخرائط عملاً فكريًّا فذاً. لاأعرف لماذا، ولكنني لاأذكر أنني أُعجبت فوراً بأي إنسان — أقصد بأي رجل — كما أعجبني هذا الشاب. وأثناء الحديث على الطاولة، جرى ذكري وأنني أجنبي. فرفع الطلياني رأسه وسألني بالإيطالية:

«إيطالي؟»

فأجبت بإسبانيتي المكسرة: «لا، بل إنجليزي. وأنت؟»

«إيطالي.»

وحين خرجنا قطع الغرفة باتجاهي وتناول يدي مصافحاً إياها وشدّ عليها. عجيب مايشعر به الإنسان تجاه الغرباء! كأن روحينا نجحتا فوراً في تجاوز حاجز اللغة والتقاليد وتلاقتا في صداقة حميمة. أرجو أن يكون قد أعجب بي كما أعجبت به، لكنني أعرف أنه للاحتفاظ بهذا الانطباع الأولي لابد من أن لاأراه ثانية، ولاحاجة إلى القول أنني لم أره بعدها ثانية. فالواحد كان يصادف الكثير من هذا الموقف في إسبانيا.

أذكر لكم رجل الميليشيات الإيطالي هذا لأنه ظل عالقاً في مخيلتي. بلباسه الرث ووجهه القاسي الجاد، فأصبح عندي نموذجاً للمناخ الذي تميزت به تلك الأيام. حاضراً ضمن كل الذكريات التي أحتفظ بها عن تلك الفترة من الحرب — الأعلام الحمراء فوق برشلونة، القطارات الكئيبة مزدحمة بالجنود المشعثين تزحف نحو الجبهات زحفاً، المدن الكالحة التي حطمتها الحرب بعيداً على خطوط القتال، الخنادق الموحلة المتجمدة من الصقيع الجليدي في الجبال.كان هذا في أواخر ديسمبر من سنة ١٩٣٦، أي قبل أقل من سبعة أشهر من كتابتي هذه عنها، لكنها مع هذا القرب تراجعت إلى مسافات بعيدة سحيقة. فالأحداث التي تلتها طمستها وجعلتها كأنها أبعد من أحداث ١٩٣٥، بل حتى من أحداث ١٩٠٥ . كنت قد جئت إلى إسبانيا لكتابة التقارير الصحفية، لكنني انضممت إلى الميليشيا فوراً، لأنه بدا لي في ذلك الوقت وذلك الجو الشيء الوحيد المتاح. كان الأناركيون مازالوا يسيطرون في كاتالونيا سيطرة كاملة على أرض الواقع، والثورة مازالت في عنفوانها؛ ربما تبين لمن كانوا هناك منذ البداية في ديسمبر أو يناير أن الفترة الثورية قد بدأت بالانحسار؛ لكن القادم من إنجلترا مباشرة يبدو له منظر برشلونة مدهشاً ومثيراً. إنها المرة الأولى التي أجدني في مدينة تمسك الطبقة العاملة بأعنة الأمور فيها. وفي الواقع كانت كل الأبنية الكبيرة قد احتلها العمال وعلقت على واجهاتها الستائر التي تمثل الأعلام الحمراء الشيوعية، أو الحمراء والسوداء، أعلام الأناركيين. كل الجدران كانت

منقوشةً بالمنجل والمطرقة وبالحروف التي ترمز لمختلف الفرقاء الثوريين؛ وكل الكنائس تقريباً تهدمت حوائطها واحترقت أيقوناتها. الكنائس هنا وهناك كان يجري هدمها بتصميم من قبل زمر من العمال. وكل حانوت أو مقهى يرفع لافتة تقول بأنه قد أصبح تعاونياً؛ حتى ماسحو الأحذية تنظموا في جمعيات ولوّنوا صناديقهم بالألوان الحمراء والسوداء. أما خدم المطاعم فكانوا يحدقون بك ويعاملونك معاملة الأنداد. وقد اختفت من التداول الكلمات التي تدل على الخنوع والتبعية. والعبارات الاحتفالية والمجاملات. لم يعد أحد يقول «سنيور» أو «دون» أو حتى «أوستيد»؛ كان الجميع يتخاطبون بـ «يارفيق» Comrade وبضمير المخاطب «أنت» ويلقون بالسلام « Salud » بدلاً من «طاب يومك». وقد منع البخشيش بقوة القانون؛ فتلقيت محاضرة من مدير الفندق كانت أولى تجاربي في هذا الصدد لأنني حاولت منح البخشيش لأحد الحمّالة. لم يكن هناك سيارات خصوصية، فقد صودرت كلها، كما أُعيد طلاء حافلات الترام وسيارات التكسي ومعظم وسائل المواصلات الأخرى باللونين الأحمر والأسود. اللافتات والملصقات الثورية كانت في كل مكان، ترفرف من على الجدران بألوان حمراء وزرقاء نظيفة زاهية جعلت الإعلانات الأخرى تبدو كامدة موحلة. وعلى طول شارع رامبلاس، الشريان المركزي الرئيس للمدينة، حيث الناس لاتنقطع جيئة وذهابا، كانت مكبرات الصوت تجأر طوال اليوم ومعظم الليل. مظهر الناس كان أعجب من أي شيء؛ ففي الظاهر، كانت المدينة قد انعدمت فيها الطبقات الغنية، وفيما عدا قلة قليلة من النساء وبعض الأجانب، لم تكن ترى أحداً من المتأنقين باللباس. كان الجميع يلبسون ملابس خشنة من نوعية ملابس الشغل، أو بزّات العمل الزرقاء، أو الملابس النظامية لإحدى الميليشيات. كل هذا كان ملفتاً للنظر ومثيراً. كان فيه الكثير مما لم أستطع تفهُّمه، وما لم أستسغه، لكنني لمست فيه فوراً حالة من الأحوال التي تستحق القتال من أجلها. واعتقدت أيضاً أن ظاهر الأشياء هو، هو حقيقتها. وأن هذه كانت دولة

العمال، وأن البورجوازية بأجمعها قد نزحت، أو قُتلت أو انضوت طوعاً إلى جناح العمال، لم ألاحظ حينئذ أن أعداداً كبيرة من البورجوازيين الميسورين كانوا قد انزووا وتواروا مظهرين أنفسهم بمظهر البروليتاريا موقتاً.

ويترافق مع هذا كله شيء من الجو المقيت، جو الحرب. المدينة كانت كئيبة وعلى غير نظام، طرقاتها وعماراتها بدون خدمة أو صيانة، والشوارع خافتة الإضاءة بالليل خوفاً من الغارات الجوية، والحوانيت معظمها مهلهل وليس فيه نصف البضاعة. اللحم كان عزيزاً، والحليب بعيداً عن المتناول، والنقص يشمل الفحم، والسكر، والبترول . الافتقار الأخطر كان إلى الخبز. حتى في تلك الفترة المبكرة كانت صفوف الدور من أجله تمتد إلى مئات الياردات. مع هذا لايتمالك المرء أن يحكم بأن الشعب قانع ومستبشر. البطالة معدومة، وتكاليف المعيشة بأدنى حدودها؛ وليس إلا القليل يبدو عليهم البؤس والفاقة، لامتسولون ولا غجر. وفوق كل شيء كان الإيمان بالثورة وبالمستقبل، والشعور بالولوج فجأة إلى فسحة من المساواة والحرية. كان البشر يحاولون التصرف كبشر، لا كتروس في الماكينة الرأسمالية. في دكاكين الحلاقين اللافتات الأناركية (معظم الحلاقين كانوا أناركيين) تعلن متباهية أن الحلاقين لم يعودوا عبيداً. وفي الشوارع كانت الملصقات العريضة تناشد"القحاب" أن يمتنعن. وكانت هذه العبارات الطنانة الثورية تبدو لمن جاء من بلاد الأعراق الناطقة بالإنكليزية عجيباً أخذُها بحرفيتها من قبل أولئك الإسبان المثاليين. في تلك الأيام كانت مجموعات الأناشيد والأغاني الثورية من أشدّها سذاجة وبساطة عن الأخوّة البروليتارية، وعن شرور موسوليني، تباع على الأرصفة بعدة سنتيمات. ولقد رأيت كثيراً رجال الميليشيا الأميين يبتاع واحدهم الأنشودة ويحاول جاهداً تفكيك رموز حروفها، ثم حين يظن أنه نجح في ذلك، يطلق عقيرته فيها باللحن المناسب.كل هذا الوقت قضيته في ثكنة لينين، بداعي التدرب للخروج إلى الجبهة. فحين انضممت إلى الميليشيا قيل لي: إنه يجب إرسالي إلى الجبهة في اليوم التالي، لكن

الواقع أنه كان عليّ الانتظار إلى أن يتم تجهيز كتيبة (سنتوريا) جديدة وتهيئتها. ميليشيات العمال التي أنشأتها على عجل نقابات العمال في بداية الحرب، لم تكن قد شكلت على الأسس العسكرية النظامية. الوحدات كانت تبدأ بالفصائل sections وتتألف من ثلاثين نفراً، ثم الكتائب أو السرايا؛ السنتوريا (centuria)، وتتألف من مائة. ثم الطابور column الذي كان يعني عملياً أي عدد كبير من الرجال. ثكنة لينين تتألف من مجموعة من الأبنية الحجرية الجميلة وفيها مدرسة للخيالة، وميادين مبلّطة بالحجارة واسعة؛ كانت ثكنة للخيالة واحتُلّت في معارك تموز. وكان مهجع كتيبتي في أحد الاصطبلات، وتحت كل معلف حجري مازال اسم الفارس مكتوباً. أما الخيل فقد صودرت جميعاً وأرسلت إلى الجبهة، لكن المكان كله ظل مفعماً بروائح الروث والأعلاف المتخمرة. مكثت في تلك الثكنة قرابة الأسبوع، وأهم ماأذكره منها روائح الخيل، ونفير الأبواق المتهدج المتقطع (كل بوّاقينا كانوا من الهواة — ولم أتعلم نداءات الأبواق الإسبانية إلا بالاستماع إليها من بعيد، صادرة عن الخنادق الفاشيّة)، كما أذكر وقع الأحذية العسكرية الضخمة المدعمة نعالها بالمسامير الغليظة على بلاط الثكنة، والمسير النظامي الصباحي الطويل تحت شمس الشتاء، ومباريات كرة القدم العنيفة، التي يتألف كل جانب فيها من خمسين لاعباً على أرض مدرسة الخيالة المفروشة بالحصى. كان في الثكنة ما قد يصل إلى الألف من الرجال، وبضع عشرات من النساء، إلى جانب زوجات رجال الميليشيا اللواتي كنّ يتولّين الطبخ أيضاً. وكانت الميليشيات ماتزال تضم عدداً من النساء، لكن العدد لم يكن كبيراً. وكنّ قد خضن المعارك الأولى جنباً إلى جنب مع الرجال كأمر عفوي طبيعي. وهو شيء يبدو طبيعياً في الأوقات الثورية. لكن الأفكار بدأت تتغير بالفعل، فأصبح لابد من إبعاد الرجال عن مدرسة الخيالة عند تدريب النساء، لأنهم كانوا يسخرون من النساء ويشتتون تركيزهن. بينما لم يكن أحدٌ قبل عدة أشهر يرى مايضحك في منظر المرأة تعالج البندقية.

كانت الثكنات في حالة من البوار والفوضى التي تجلبها المليشيات إلى الأبنية التي تحتلها، حتى لتبدو علامة مميزة للثورة. في كل زاوية ترى أكوام الأثاث المحطم، والسروج المكسورة، وخوذ الفرسان النحاسية، وقرابات السيوف الفارغة، وبقايا الأطعمة المتعفنة. كان الهدر في الأقوات مريعاً، وخصوصاً الخبز. فمن مهجعنا وحده كان يرمى ملء سلة كبيرة من الخبز كل وجبة — وهو عمل مشين، حين يكون الأهالي المدنيون مفتقرين إلى الخبز. كنا نتناول طعامنا على منصات طويلة، ومن قصعات حديدية مستديم فيها الزفر، ونشرب من وعاء صعب يسمونه البُرّون poorron والبرون هو ضرب من القوارير ذات حلمة مدببة تخرج لك منها رشقة من النبيذ حين تميلها؛ فعليك أن تشرب من بعيد دون أن تلمس الإبريق بشفاهك، فيمكن تمرير الإبريق من يد ليد. ولقد أضربت عنه وطالبت بكأس للشرب حالما وقعت عيني على هذا البرّون قيد الاستعمال! والسبب أن هذه الأباريق بدت لعينيّ أشبه بالمبولة، خصوصاً حين تكون مليئة بالنبيذ الأبيض. بدأوا يصرفون اللباس النظامي لنا بالتدريج، ولأن هذه إسبانيا، فإن الألبسة كانت ترد بالقطعة المفرّق، بحيث لم يعد يُعرف من أخذ أي شيء، وكثير من الحاجيات الضرورية الأكثر إلحاحاً من مثل الأحزمة وأمشاط الخراطيش لم توزع إلا في اللحظة الأخيرة، حين كان القطار بانتظارنا لنقلنا إلى الجبهة. ولقد تحدثت عن «اللباس النظامي»، بما قد يعطي القارئ انطباعاً مغلوطاً. فهو لم يكن بالضبط نظامياً بمعنى الكلمة. بل قد يصدق عليه أكثر اسم «متعدد الأنماط». كانت ملابس الجميع تتبع نفس النموذج، ولكنك لاتجد اثنين متماثلين لباساً. نعم يفرض الواقع العملي على كل العساكر أن ينتعلوا الأحذية طويلة الرقبة، وهنا ينتهي الإجماع. البعض لبس الجزمة، أو «البوتين»، ولفوا سيقانهم بالـ «جيتر»، الكتاني أو الجلدي. والجميع لبس الجاكيت السحّاب، لكن بعضها كان جلديّاً وغيره كان كتّانيّاً أو صوفيّاً، وبكل الألوان المتوافرة. أما القبعات فكانت متعددة الأشكال تعدُّد لابسيها. وكان المعتاد أن تزين

جبهة قبعتك بشارة الحزب الذي يضمك. يضاف إلى هذا أن الكل كان يلف عنقه بالمنديل الأحمر، أو الأحمر والأسود. فكان طابور الميليشيا تلك الأيام خليطاً زاهياً من الألوان والأشكال. والذي فرض هذا أيضاً أن الألبسة كانت تصرف بحسب ما ينتجه هذا المعمل أو ذاك حسب الأحوال، وهي لم تكن من النوعية الرديئة على كل حال. إلا القمصان والجوارب فقد كانت قطنية بائسة، لافائدة منها في مقاومة البرد. أكره حتى التفكير بما قد عاناه رجال الميليشيات في الشهور الأولى من بداية الأحداث، قبل حصول بعض التنظيم. وأذكر أنه وقع في يدي جريدة تعود إلى ماقبل شهرين فقط ، وفيها وعدٌ لأحد قادة الـ P.O.U.M الشعبية بعد زيارته للجبهة بأنه سوف يسعى جاهداً لأن يكون قريباً "كل واحد من رجال الميليشيا بطانيته الخاصة". وهذه عبارة تثير الرعدة في جسدك إذا كنت جربت النوم ليلة واحدة في الخنادق.

في اليوم التالي لوصولي إلى الثكنات بدأ ما أطلقنا عليه، تندّراً «التدريب». في البداية كانت مشاهد مريعة من الفوضى. كان المتطوعون معظمهم من أبناء السادسة عشرة أو السابعة عشرة، من حواري برشلونة الضيقة، مفعمين بالحماس الثوري، ويجهلون تماماً معنى الحرب. فكان من المستحيل حتى جعلهم يصطفّون بانتظام. الانضباط كان مفقوداً؛ وإذا لم يعجب الرجل أحد الأوامر خرج من الصفوف وأخذ يجادل الضابط. وكان الملازم الذي يدربنا شاباً جريئاً قويّاً وسيماً من ضباط الجيش النظامي البائد، وكان مايزال يبدو عليه ذلك، بمشيته المختالة وهندامه الأنيق. لكن الغريب أنه كان اشتراكيّاً مخلصاً ومتحمساً. فكان يزايد حتى على الأنفار أنفسهم بالإصرار على المساواة بين مختلف الرتب. وأذكر دهشته وألمه حين خاطبه أحد الجنود بـ «سيدي». «ماذا! سيدي؟ من يناديني بسيدي؟ ألسنا جميعاً رفاق؟». ولاأشك في أن هذا لم يجعل وظيفته أكثر يسراً. لم يكن الجنود الأغرار ينالون أي تدريب عسكري حقيقي يمكن أن يفيدهم أدنى فائدة. ولقد أبلغوني أن الأجانب ليس عليهم الخضوع لأي «تدريب» (فالإسبان، كما لاحظت، كانوا يعتقدون اعتقاداً

راسخاً بأن الأجانب كلهم يعرفون عن الأمور العسكرية أكثر من الأهالي المواطنين)، لكنني طبعاً انضممت إلى الباقين. وكنت تواقاً للتدرب على الرشاش؛ فهو سلاح لم تتح لي فرصة تجريبه. ولأسفي لم يعلمونا شيئاً عن هذه الأسلحة. فما كان يدعى بالتدريب كان تمارين استعراضية ميدانية من الطراز القديم الغبي، يميناً دُر، يساراً دُر، وراء دُر، أمامك سِر بصفوف ثلاثية، وكل ذلك الهراء الذي تعلمته حين كنت في الخامسة عشرة. وهي صورة غريبة لاتصلح لتدريب جيش من المغاوير. فالواضح أنه إذا لم يكن لديك إلا بضعة أيام لتدريب الجندي، عليك أن تعلمه الأشياء التي سوف يكون بأشد الحاجة إليها؛ كيف يتحصن، وكيف يتقدم في الأرض المكشوفة، وكيف يأخذ حذره ويبني المتراس - والأهم، كيف يستعمل سلاحه. مع هذا فإن هذه الغوغاء من الأطفال المتحمسين المقرر أن يُلقى بهم في الخطوط الأمامية، تدربوا بضعة أيام فقط ، ولم يكن فيها التدرب حتى على كيفية إطلاق البندقية، أو نزع مسمار الأمان من الرمانة. في ذلك الحين كنت أجهل أن السبب الحقيقي هو أنه لم يكن هناك سلاح للتدريب ولا للتوزيع. كان افتقار ميليشيات الـ P.O.U.M الشعبية للبنادق شديداً لدرجة أن الجنود حين يصلون إلى الجبهة للتبديل كانوا يأخذون الأسلحة من زملائهم العائدين. وأظن أنه لم يكن في ثكنات لينين كلها إلا الأسلحة التي يستخدمها الحرس.

بعد بضعة أيام رُئي أننا، بالرغم من كوننا حجارة بكل المعايير، جاهزون للعرض أمام الجمهور. فكنا نُساق كل صباح إلى الحدائق العامة على التل الواقع وراء «ساحة إسبانيا». وهذه كانت ساحة للتدريب مشتركة بين ميليشيات الأحزاب كلها، إلى جانب الدرك (الكارابينيرو) والمفارز الأولى من الجيش الشعبي. كان المنظر هناك في الحدائق العامة غريباً وبهيجاً معاً. فعلى طول كل ممر وممشى بين مساكب الورود وأحواض الرياحين، كان الجنود يسيرون على الخطوة زُمراً، ذهاباً وإياباً، وقد شدّت من أطرافها ونفخت صدورها محاولة بكل ماتستطيع أن تظهر بالمظهر

العسكري. كانوا جميعا بلا سلاح، وليس منهم واحد باللباس المكتمل، وما عليهم منه كانت تظهر عليه الرقع هنا وهناك. وقد ظل البرنامج طويلاً بلا تغيير: المسير على الوحدة جيئة وذهاباً لثلاث ساعات (خطوة المسير الإسبانية قصيرة وسريعة) وبعدها ننصرف من الصفوف ونتسابق ظمآنين إلى منتصف الطريق النازل من التل نحو حانوت البقالة الصغير هناك، وكان رائج التجارة بالنبيذ الرخيص. كان الجميع ودودين اتّجاهي. كنت كإنكليزي أُعتبَر طرفة، خصوصاً ضباط الدرك (الكارابينيرو) الذين كانوا يجلّونني كثيرا، ويقدمون لي المشروبات. وفي هذه الأثناء، كنت أتحين الفرص لمحاصرة ملازمي في إحدى الزوايا، لأنني كنت أتحرق للتدرب على إطلاق الرشّاش، وكلما أمسكت به كنت أسحب من جيبي قاموس هوجو الإسباني لأجرب فيه إسبانيتي السيئة:

– أعرف استخدام جميع الأسلحة، عدا الرشاش. متى تعلموننا الرمي على الرشاش؟

وكان جوابه دائماً ابتسامة مكبوتة ووعداً بأن يكون التدريب على الرشاش «مانيانا»، أي غداً.

لاحاجة إلى القول بأن هذا المانيانا لم نصل إليه أبداً.

بعد بضعة أيام أتقن المجندون المسير النظامي على الخطوة والوقوف بحالة الانتباه فور تلقّي الإيعاز تقريباً، أما إذا كانوا قد عرفوا من أي أطراف البندقية تنطلق القذيفة، فهذا يكون كل ماتعلموه. وفي أحد الأيام تقدم أحد أفراد الكارابينيرو نحونا بسلاحه حين كنا في الاستراحة وسمح لنا بتفحّص بندقيته. وتبين أنه لم يكن أحد في الفصيلة كلها يعرف كيف تُهيَّأ البندقية إلا أنا، ناهيك عن التسديد والإطلاق.

طوال هذه الأيام كنت مشغولاً بالنضال في اللغة الإسبانية. ولم يكن في الثكنات كلها من الإنكليز إلا أنا وواحد آخر. أما الفرنسية فلم يكن يُحسن التكلم بها حتى الضباط. ولم تكن الأمور أيسر عليَّ بواقعة أن زملائي حين كانوا يتحادثون فيما بينهم كانوا يتكلمون بالكاتالانية. فكانت الطريقة الوحيدة لتمشية حالي أن أحمل معي دائماً قاموساً صغيراً أسحبه من جيبي لاستخدامه عند تأزم الأمور. لكنني مع هذا أفضّل أن أكون غريباً بين الإسبان على أن أكون غريباً في معظم البلدان. فبعد مالايزيد عن يومين كان لي بين رجال الميليشيات ممن يخاطبونني بلا تكلّف وبالاسم المجرد مايزيد على العشرة، ينصحونني ويغمرونني بلطفهم وكرمهم. لست هنا بصدد تأليف كتاب في الدعاية، ولست أنوي رفع ميليشيات الـ P.O.U.M الشعبية إلى المستوى المثالي. فنظام الميليشيات يتضمن بذاته نواقص خطيرة، والرجال أنفسهم كانوا خليطاً متبايناً، والمتطوعون الجدد يقل عددهم وينحدر مستواهم، ومعظم الرجال المناسبين صاروا في الجبهة، أو قُتلوا بالفعل. كان بيننا دائماً نسبة معينة ممن لافائدة ترجى منهم على الإطلاق، ومن صبيان الخامسة عشرة يجلبهم آباؤهم للتجنيد، ولسبب مكشوف هو البيزيتات العشر التي هي راتب رجل الميليشيا اليومي؛ وهو أيضاً "الخبز" الذي كانت الميليشيات تحصل على كميات وافرة منه ويمكن تهريب البعض منه إلى الأهل في البيوت. لكنني أتحدى أي إنسان أُلقِي مثلي بين أبناء الطبقة العاملة الإسبانية — أو بالتحديد الكاتالانية، لأنه لم يكن حولي إلا القليل من الأراجونيين أو الأندلسيين، فلم أخالط إلا الكاتالانيين — أقول أتحداهم ألا يتأثروا بلطفهم، وفوقه باستقامتهم وكرمهم. فالكرم الإسباني، بالمعنى الظاهر للكلمة، قد يصل إلى حد الإحراج أحياناً. فلو طلبتَ منه سيجارة لأجبرك على أخذ العلبة بكاملها. ثم هناك الكرم بالمعنى الأعمق، النفوس الغنية العظيمة حقاً صادفتني مرات ومرات في كثير من الظروف اليائسة حين لم يكن ينتظرها أحد. لقد أعلن بعض الصحفيين الأجانب الذين تجولوا في إسبانيا أيام الحرب أن الإسبان كانوا في سرّهم يغارون من المساعدة الأجنبية. أما أنا فأقول إنني لم أر شيئاً من هذا القبيل. وأذكر أنه قبل أن أغادر الثكنات بعدة أيام عادت ثلة

رجال من الجبهة. وكانوا يتحدثون بحماس عما لاقوه من تجارب، وكان حماسهم أشد لبعض الجنود الفرنسيين الذين كانوا قريبين منهم في منطقة هويسكا. قالوا إن الفرنسيين كانوا شجعاناً. وأضافوا بنفس الحماس: «بل كانوا أشجع منا»!. وبالطبع أبديت بعض التحرج والتواضع، فأضافوا بأن الفرنسيين أكثر تمرساً بفن الحرب — وأكثر خبرة بالقنابل والرشاشات وما إلى ذلك. ومغزى هذا التصريح أننا، أعني الإنكليز، قد يفضل واحدنا قطع يده قبل أن يُقرّ بمثل هذا. وكل أجنبي خدم في صفوف الميليشيات قضى عدة أسابيع في التدرب على محبة الإسبان، وفي النفور من بعض خصائصهم أيضاً. في الخطوط الأمامية وصل هذا عندي إلى حد السخط. فالأجانب جميعاً يدهشون من قلة كفاءة الإسبان وانعدام التدقيق والضبط لديهم. والكلمة الإسبانية الوحيدة التي لايملك الغريب إلا أن يتعلمها هي كلمة «مانيانا» — أي غداً. (ومعناها الحرفي «اليوم التالي»). فإن كان بالمستطاع، يؤجل عمل اليوم إلى «المانيانا». وهو سلوك شائع حتى إن الإسبان أنفسهم يتندرون عليه. لاشيء في إسبانيا يحصل في وقته المحدد، من وجبة الطعام إلى المعركة الحربية. والقاعدة أن الأمور تحصل متأخرة، إلا في بعض الأحيان القليلة - ولكي لاتستقر نهائيّاً على توقّع تأخّر كل شيء— فإن بعض الأمور يحدث قبل ميعاده. القطار المقرر موعده في الثامنة يغادر في العادة بين التاسعة والعاشرة، لكن يحدث، ربما مرة في الأسبوع، أنه نتيجة لنزوة من نزوات السائق أن يغادر في السابعة والنصف. هذه الأمور تنغص الحياة. لكنني، نظريّاً، أحسد الإسبان على عدم مشاركتهم إيانا هَوَسَنا—الشمالي بالتوقيت؛ لكنني للأسف نشأت عليه!.

بعد سلسلة طويلة من المانيانات والتأخيرات، صدر الأمر فجأة بتوجهنا إلى الجبهة في غضون ساعتين، مع أن معظم معداتنا لم تكن سلّمت إلينا. حصلت مشاغبات عديدة في مستودعات التجهيزات؛ وفي النهاية اضطر عدد من الرجال إلى السفر دون أن يكتمل تجهيزهم. وقد امتلأت الثكنة بالنساء، كأن الأرض انشقت عنهن ، وكنّ يساعدن رجالهن في حزم البطانيات، وتعبئة الأكياس والحقائب. وقد شعرت بالخجل إذ اضطررت إلى تقبل العون من إحدى الفتيات الإسبانيات في ارتداء

أحزمة أمشاط الذخيرة المسلّمة إليّ، وهي زوجة وليامز، رجل الميليشيات الإنكليزي الآخر. كانت مخلوقة لطيفة، سوداء العينين، ومن الأنوثة بحيث تبدو وكأن حياتها مكرسة لِهزّ سرير الأطفال، لكنها في الواقع خاضت ببسالة حروب الشوارع في تموز المنصرم. وهي الآن تحمل وليدها الذي ولد بعد عشرة شهور من اندلاع المعارك، فهو لاشك حصل حمله خلف المتاريس.كان موعد انطلاق القطار في الثامنة، وكانت الساعة الثامنة وعشر دقائق حين تمكن الضباط المرهقون من تجميعنا وصفنا في ميدان الثكنة . مازلت أذكر بوضوح المنظر المضاء بنيران المشاعل — والهرج والمرج، والأعلام الحمراء المرفرفة على ضوء المشاعل. والكتلة المتراصة من صفوف رجال الميليشيا، وعلى ظهورهم أكياس تجهيزاتهم، وبطانياتهم المطوية يتقلدونها بين أكتافهم إلى آباطهم مثل حمّالات السيوف، والزعيق ووقع الأحذية الثقيلة وصليل القصعات الحديدية، ثم نداءات عالية طلباً للسكوت لم تنجح إلا بعد لأْي، ثم أحد القوميسارية السياسية يقف تحت راية حمراء ضخمة منسدلة، يلقي خطاباً بالكاتالانية. وأخيراً المسير الفعلي إلى المحطة، متخذين الطريق الأطْول، لثلاثة أو أربعة أميال، لترانا، ونراها، المدينة بأكملها. وفي ميدان الرامبلاس أوقفونا فترة عزفت خلالها إحدى الفرق المستعارة، بعض المقطوعات الثورية. وعدنا ثانية إلى نشيد البطل الغازي المناضل — الأصوات عالية والحماس عارم، والأعلام الحمراء والحمراء– السوداء في كل مكان. والجماهير المشجعة تجمعت على الأرصفة لمشاهدتنا، والنساء يلوحن لنا من النوافذ المجاورة. كم كانت تبدو هذه الأمور طبيعية في ذلك الوقت! وكم هي قصيّة بعيدة حتى عن الإمكان الآن! وقد اكتظ القطار بالرجال بحيث أصبحت الأماكن صعبة حتى على الأرض، ناهيك على المقاعد. وفي اللحظة الأخيرة اندفعت زوجة وليامز عبر رصيف المحطة وناولتنا قارورة نبيذ وطول قدم من القديد الأحمر الذي له طعم الصابون وهو مسهل شديد. وزحف القطار خارجاً من كاتالونيا باتجاه هضبة أراجون بالسرعة المعتادة أيام الحرب وهي أقل من عشرين كيلومتراً في الساعة.

٢
الطريق إلى الجبهة

بلدة بارباستو، بالرغم من المسافة البعيدة التي تفصلها عن خطوط الجبهة، كانت تبدو جرداء مهدمة. زُمَر من رجال الميليشيات بملابسهم المهلهلة كانت تجوب شوارعها، نزولاً وصعوداً، لكي يسري بعض الدفء في أوصال أفرادها. وعلى أحد جدرانها المهدمة صادفت منشوراً يعود إلى السنة الماضية يعلن أن «ستة ثيران ظريفة» سوف تُصرَع في الحلبة في اليوم الفلاني. يالَمنظر ألوانه الباهتة البائسة! ترى أين صارت الثيران الظريفة ومصارعوها الأظرف؟ حتى في برشلونة ذاتها لم تعد مصارعة للثيران تقام هذه الأيام. فلِسبب ما كان معظم مصارعي الثيران من الفاشيين.

سيّروا فصيلتي إلى سييتامو، ومن ثم غرباً إلى ألكوبييري، وتقع قُبيل الخطوط التي تجابه زاراجوزا. جرت ثلاث معارك كبرى لاحتلال سييتامو قبل أن يستقر بها الأناركيون أخيراً في أكتوبر. وقد تهدمت أجزاء كثيرة منها بفعل قنابل المدفعية، وما تبقى من جدران بيوتها كان مرقطاً بالخدوش التي خلفتها طلقات البنادق. كنا على ارتفاع ١٥٠٠ قدم من على سطح البحر. وكان البرد قارساً، مع موجات من الضباب الكثيف الذي كان يأتينا صعوداً من حيث لايعلم أحد. في الطريق من سييتامو إلى ألكوبييري تاه سائق الشاحنة التي تقلنا عن الطريق (وهذه من الخصائص الملازمة للحروب) وظللنا نلف ساعات في الضباب. وأخيراً وصلنا ألكوبييرو في أواخر الليل. فقادنا أحدهم إلى اصطبل للبغال، حيث هيأ كل واحد مرقداً له على القش واستغرق في النوم سريعاً. القش ليس مادة سيئة للنوم حين يكون نظيفاً، لابفخامة التبن، لكنه

خير من القصب. لم أكتشف إلا في الصباح أنه كان مليئا بكسر الخبز، والجرائد الممزقة، والعظام، والفئران النافقة، وعلب الحليب المهشمة.

نحن الآن قرب خط الجبهة، قريبين منه حتى لنستطيع اشتمام رائحة الحرب المخصوصة — وهي بحسب تجربتي مزيج من الروث والخبز المتعفن. وقد نجت ألكوبييري من القصف بالمدفعية فهي خير من معظم القرى الواقعة خلف خط النار مباشرة. لكنني أعتقد أنك حتى وقتَ السلم لم تكن لتستطيع أن تتنقل في هذا الجزء من إسبانيا بدون أن يصدمك البؤس المدقع للقرى الأراجونية. لقد بنيت مثل الحصون، كتلة من البيوت الضئيلة من الحجر والطين تدور حول الكنيسة ، يندر أن تجد فيها حتى أيامَ الربيع زهرة في أي مكان. فالبيوت ليس لها حدائق ، ليس لها إلا حواكير خلفية تحوم فيها الدواجن النحيفة حول أكوام الروث والزبل. كان الجو رديئاً يتناوب عليه المطر والضباب. وقد تحولت الطرقات الترابية فيها إلى مخاضة طينية تبلغ في بعض الأماكن نحو القدمين عمقاً، والشاحنات تجاهد فيها للخلاص من الورطات بدواليب منزلقة، وعربات الفلاحين تجرها البغال، ستة أحياناً للعربة. ودائماً بالرتل الأحادي. وقد زاد تردُّد العساكر إلى القرية عند قُدومهم ومغادرتهم من الأوساخ إلى درجة لاتطاق، . لم يكن فيها حينئذٍ، ولا قبلاً، مراحيض، ولا مصارف من أي نوع، فلم يبق فيها ياردة مربعة يستطيع المرء أن يطأها دون أن ينظر قبلاً إلى ماتحت قدميه. حتى خرابات الكنيسة بدأ استعمالها للتغوط منذ زمن بعيد، منذ بداية الأحداث. وكذلك كانت الحقول حتى عمق ربع ميل من حولنا. لذا لا أعود بذاكرتي إلى أول شهرين لي في الحرب، دون أن أفكر في الحقول الشتوية تغطيها حصائد الحبوب، وأكوام الروث والغائط.

قضينا يومين ولم نستلم أية بنادق. وحين تذهب إلى مقر اللجنة العسكرية وتلاحظ صفوف الثقوب التي أحدثتها طلقات البنادق على حوائطها، حيث جرى

إعدام الكثير من الفاشيين هناك، تكون شاهدت كل مافي ألكوبييري من معالم حربية. الظاهر أن الوضع كان هناك، فوق، في خط الجبهة، هادئاً إلى حدٍ ما؛ لم يكن يأتينا من هناك إلا القليل من الجرحى. كان أعظم الأمور إثارةً وصول عساكر الفاشية الفرارية ، الذين كانوا يُجلبون تحت الحراسة من الخطوط الأمامية. لكن الكثير من العساكر الذين كانوا في مواجهتنا في هذا الجزء من الجبهة لم يكونوا فاشيّين البتة. لم يكونوا إلا مجندين بائسين يؤدون خدمتهم العسكرية الإجبارية حين اندلعت الحرب، وكانوا متلهفين للخلاص والهرب. فإذا حانت الفرصة كانت المجموعة الصغيرة منهم تخاطر بالتسلل إلى مواقعنا. ولاشك أن الكثير منهم كان ليفعل هذا لو لم يكن لهم أقرباء في المناطق الفاشية. مع هذا كان الفارون هم أول فاشيين «حقيقيين» رأيتهم. ولقد دهشت لأنهم لايختلفون عنا إلا بأن لباسهم كان باللون الكاكي! كانوا دائماً عند وصولهم يتضورون جوعاً – وهو أمر طبيعي تماماً بعد قضاء يوم أو يومين في المناطق الفاصلة– لكنه كان دائماً يعتبر، بزهو وانتصار، دليلاً على أن الجنود الفاشية تعيش في مجاعة. ولقد راقبت واحداً منهم يتناول وجبته الأولى في أحد بيوت الفلاحين؛ كان منظراً يدعو إلى الشفقة. فتى طويل في حوالي العشرين من العمر، لفحته الرياح ورسمت على وجهه أخاديد عميقة. ألبسته أمست أسمالاً رثة، يجلس القرفصاء إلى جانب النار وبيده قصعة الحساء يزدردها بسرعة اليائس؛ وعيناه طوال الوقت تسترقان النظر إلى رجال الميليشيات المتحلقين حوله يراقبونه. أظن أنه كان على نصف اعتقاده السابق بأننا «حمر» سفاحون وقد نطلق النار عليه لحظة الانتهاء من وجبته. وقد ظل الرجل المسلح المكلف بحراسته يربت على كتفه بين الفينة والفينة، ويغمغم بألفاظ مطمئنة. وفي أحد الأيام المشهودة وصل إلى القرية خمسة عشر فاراً في زمرة واحدة. فاقتيدوا في شوارع القرية في عراضة انتصار يتقدمهم أحد رجالنا على حصان أبيض. وقد تمكنت من التقاط صورة مهزوزة قليلاً ثم سرقت مني فيما بعد.

وصلت البنادق في صبيحة اليوم الثالث لوصولنا إلى ألكوبييري . وقد تولى توزيعها في اصطبل البغال ضابط صف برتبة سيرجنت، ببشرة خشنة صفراء داكنة. وقد تلقيت صدمة هائلة حين نظرت إلى الشيء الذي أعطوني إياه. كان بندقية موزر ألمانية من صنع سنة ١٨٩٦، فعمرها أكثر من أربعين سنة! كانت البندقية صدئة، وكان المغلاق متصلباً، والخشب واقي السبطانة مشققاً؛ ونظرة واحدة من خلال السبطانة كانت كافية لرؤية أنها متآكلة بحيث لايفيد فيها الدعاء ولا الصلاة. معظم البنادق كانت بهذا السوء، ولم يحاول أحد إعطاء أحسن البنادق لمن يستطيع استعمالها. بل إن أحسن بندقية من الشحنة كلها كانت من نصيب ولد أخرق في الخامسة عشرة من العمر، يلقب بالامرسيون — أي المخنث! وقد قضى السرجنت خمس دقائق كاملة يشرح لنا كيفية تعبئة البندقية وفكها قطعة قطعة. كان الكثير من رجال الميليشيا لم يمسكوا ببندقية من قبل في حياتهم، وقليل منهم في رأيي كانوا يعرفون الغرض من جهاز التسديد. ثم جرى توزيع خراطيش الذخيرة، خمسين طلقة لكل نفر. ثم تشكلت الصفوف وحملنا حوائجنا على ظهورنا واتجهنا نحو الخطوط الأمامية، على بعد ثلاثة أميال تقريباً.

امتدّ فصيلنا، المؤلف من ثمانين رجلاً وعدة كلاب مع تعرجات الطريق صعوداً. كان كل طابور يضم كلباً لجلب الحظ على الأقل. وكان كلبنا المنحوس يسير إلى جانبنا وقد نقشت على فرائه حروف الـP.O.U.M وهو يظلع متبختراً في مشيته كأنه يحس بالعبء الذي يشكله هذا الشعار على مظهره. وكان في رأس الطابور إلى جانب الراية الحمراء، ممتطياً حصانه الأدهم يسير جورج كوب، القومندان البلجيكي المتين البنيان. وأمامه بمسافة قصيرة كان شاب من خيالة الميليشيا يخب على حصانه الأصيل جيئة وذهاباً، متوقفاً عند كل تلعة تقترب، في وقفة استعراضية تصويرية عند قمتها. لقد صودرت أثناء الثورة، وبأعداد كبيرة، كل الخيول الأصيلة

الرائعة التي كانت لسلاح الفرسان وسلّمت إلى الميليشيات. الذين لم يتوانوا طبعاً عن ركوبها وإضنائها.

كان الطريق يمتد متعرجاً بين حقول القمح الصفراء القاحلة التي لم يعمل بها أحد منذ محصول العام الماضي. أمامنا التلال المنخفضة المستلقية بين ألكوبييري وبين زاراجوزا. لقد أصبحنا قريبين من الخطوط الأمامية الآن، من القنابل، ونيران الرشاشات، والوحول. كنت في باطني أشعر بالخوف مع علمي بأن الخطوط هادئة الآن. فأنا، خلافاً لمعظم من كانوا حولي من الرجال، كنت في سن يسمح لي بتذكر أحداث الحرب العظمى، بالرغم من أنني لم أكن وقتها في سن يمكنني من خوضها. كانت الحرب عندي تعني المقذوفات الهادرة، وقطع الفولاذ المتطايرة؛ وتعني فوق كل شيء الوحل، والقمل، والجوع، والبرد. والعجيب أنني كنت أرتعد خوفاً من البرد، أكثر من خوفي من العدو المقابل. وكان الهاجس فيه ينتابني طوال الوقت الذي قضيته في برشلونة؛ بل قضيت بعض الليالي مؤرقاً بهموم البرد في الخنادق، وبالمناوبات في أوقات الفجر القارسة، وبالساعات الطويلة حَرَسيّاً مع احتضان بندقية متجمدة، وبالطين المتجلد يتسرب من رقبة الحذاء. أعترف أيضاً بأنني كنت أشعر بالهلع حين أتطلع إلى الرجال الذين معي في الصف. لايمكنكم أن تتخيلوا أي جمهرة من الناس كنا. كنا نتحرك بنظام أقل مما يتمتع به قطيع الأغنام؛ وقبل أن نقطع ميلين لم تعد مؤخرة الرتل تبدو للعيان. نصف ما يسمى بالرجال كانوا صبياناً، أعني صبياناً بمعنى الكلمة، غالبهم في السادسة عشرة على أبعد تقدير. ومع هذا فقد كانوا مرحين مستبشرين بقرب وصولهم إلى الجبهة أخيراً. ومع اقترابنا من الخطوط أخذ الشباب المحيطون بالراية الحمراء في مقدمة الرتل يهتفون بحياة الـ .P.O.U.M الشعبية وسقوط الفاشيّة وماإلى ذلك بلهجة حاولوا أن تكون بقدر الإمكان عدائية وحربية. لكنها، لخروجها من هذه الحناجر المراهقة، خرجت حادة مثل مواء القطط. كان مريعاً أن يكون حُماة الجمهورية هذه الشراذم من الأطفال

البائسين يحملون تلك البنادق التالفة التي لايعرفون حتى كيفية استعمالها. وأذكر أنني تساءلتُ، ماذا كان ليحدث لو مرّت إحدى الطائرات الفاشيّة فوقنا آنئذٍ — ترى هل كان الطيار يكلف نفسه عناء الانقضاض وإرسال رشقة علينا من رشاش طائرته؟ فالمؤكد أنه، حتى من ذلك الارتفاع، يستطيع رؤية أننا لسنا عساكر حقيقيين.

ومع استمرار الطريق صعوداً في الهضاب، اتخذنا مفرقاً جانبياً تسلكه البغّالة ويلتف حول الجبل مجانباً. والجبال في هذا الجزء من إسبانيا ذات تكوين خاص، فهي محدبة على شكل حدوة الفرس بقمم منبسطة وسفوح شديدة الانحدار تنتهي بوديان ضيقة. وعلى الجوانب العالية لاينمو شيء من النباتات إلا بعض الدغلات والأعشاب، تبرز بينها الصخور الكلسية كالعظام البالية. لذا لم تكن الخنادق في الخطوط الأمامية هنا ممتدة ومتواصلة. فهذا كان محالاً في مثل هذه التضاريس الجبلية؛ كانت الخطوط ببساطة مخافر متفرقة محصنة، معروفة باسم «المواقع» مبثوثة على رؤوس التلال. ومن بعيد كان يمكنك رؤية «موقعنا» تماماً على متن حدوة الفرس؛ استحكامات متعرجة من أكياس الرمل، وراية حمراء خفاقة، وأدخنة نيران الأثافي المحفورة في الأرض. ومع اقترابك أكثر تأتيك رائحة العفونة المقززة التي ظلت حية في منخريّ أسابيع بعدها. ففي الجرف الذي يقع خلف الاستحكامات تماماً جرى إلقاء قمامة الأشهر الماضية كلها. طبقة عميقة من كسارة الخبز وبقايا الأطعمة، والغائط، وعلب الصفيح الصدئة.

بدأ أفراد الفصيل النازل الذين جئنا لتبديلهم في حزم حوائجهم. لقد مضى عليهم ثلاثة شهور في الخدمة المتواصلة. ملابسهم تخشبت مما تراكم عليها من الطين، وأحذيتهم مهترئة مقطعة، ووجوه غالبيتهم ملتحية. خرج الكابتن الذي يقود الموقع، واسمه ليفنسكي، ويناديه الجميع باسمه الأول، بنيامين، وهو بالولادة من يهود بولندة. لكن لغته هي الفرنسية، زاحفاً من حفرته ورحب بنا. كان شابّاً قصير القامة في حوالي الخامسة والعشرين، بشعر أسود سبط ووجه شاحب ودود، كان بعد هذه المدة من الحرب تعلوه الأتربة. وبين الفينة والفينة يصدر صوت بضع طلقات شاردة تمر فوق الرؤوس على ارتفاع عال. كان الموقع تحويطةً نصف دائرية

قطرها حوالي الخمسين ياردة مع متراس للاستحكام نصفه من كتل الحجارة والنصف من أكياس الرمل. وثمة ثلاثون أو أربعون مغارةً محفورةً في الأرض كأنها جحور الفئران. هرعنا، ويليامز وابن حميه الإسباني وأنا معهم. إلى أقرب شاغر مناسب من تلك المغاور فاحتللناه. ومن مكانٍ ما عندنا صدرت طلقة بندقية، وكان لها صدى عجيب متجاوب متكرر بين تلك التلال الصخرية. كنا قد ألقينا بحوائجنا في الغار توّاً فعدنا نزحف خارجين منه حين صدرت طلقة أخرى، شاهدنا أحد الصبيان من فصيلنا يعود مسرعاً من فتحة الاستحكام والدماء تنزف من وجهه. لقد جرّب بندقيته فأطار زنادها ومزق علبة الخرطوش فيها فانطلقت الشظايا وشطبت جلدة رأسه كالأمواس. أصبح الإصابة الأولى التي نمنى بها، وكانت إصابته، كما سوف نعهد من غالبية إصاباتنا، بنيراننا الذاتية.

بعد الظهر قمنا بأول واجبات حراستنا، قادنا بنيامين في جولة في أنحاء الموقع. كان أمام السور جهاز دفاعي من الخنادق الضيقة محفورة في الصخر، وعليه نوافذ وفتحات للتصويب بدائية تماماً مبنية من كتل الحجارة الكلسية. وهناك اثنا عشر محرساً، موزعاً على نقاط مختلفة من الخنادق ووراء السور الداخلي. أمام الخنادق كانت الأسلاك الشائكة، وبعدها سفح التل ينحدر فجأة إلى مايبدو وادياً ضيقاً لاقاعَ له. وفي المقابل كانت التلال العارية، مبقعة في بعض الأماكن بصخور وأحجار جرداء رمادية، ولاحياة فيها البتة، حتى من الطيور. أخذت أحدق من إحدى فتحات النار محاولاً العثور على الخنادق الفاشيّة.

— «أين العدو؟»

أشار بنيامين بيده ملوحاً بها إلى كل ما أمامنا، وقال:

— «هناك فوق». كانت إنكليزيته مريعة.

— «لكن، أين بالضبط؟».

بحسب أفكاري التي أحملها عن حرب الخنادق يجب أن تكون الخنادق الفاشيّة على بعد خمسين أو مائة ياردة. لم أر شيئاً — كأن خنادقهم كانت مخفيّة

بعناية. ثم رأيت وصدمة الخيبة تنتابني ماكان بنيامين يشير إليه، على قمة التل المقابل، وراء الوادي، وعلى بعد سبعمائة متر على الأقل، تبينت الخطوط الخارجية لسور الاستحكام، ورأيت العلم الأحمر والأصفر — الموقع الفاشي. كانت خيبتي لاتوصف. لسنا قريبين منهم! وعلى هذا المدى لم يكن لبنادقنا أية فائدة. في تلك اللحظة بالذات سمعنا صيحات الاستثارة. اثنان من الفاشيين، شخصان رماديان على بُعد المسافة، كانا يصعدان سفح الجبل الأجرد المقابل. وتناول بنيامين بندقية الرجل الأقرب إليه، وسدد، وجذب الزناد: كلِكْ، خرطوشة فاسدة. وعددت هذا فألاً سيئاً. لكن حراسنا الجدد، ماإن صاروا في الخنادق حتى شرعوا في إطلاق وابل من الرصاص، لاعلى هدف معين بالذات. كنت أرى الفاشيّين، ضئيلين كالنمل، يراوحون جيئة وذهاباً وراء سواترهم، وأحياناً تظهر نقطة سوداء هي رأس أحدهم وتتوقف برهة، مستهدفة باستخفاف. الواضح أن إطلاق النار لافائدة منه. لكن الحرس الواقف إلى يساري، وقد غادر محرسه على العادة الإسبانية، كان يستحثني على الانضمام إلى إطلاق النار. حاولت أن أشرح له بأن هذا المدى البعيد لايمكّنك من الإصابة إلا بالصدفة. لكنه كان طفلاً، وظل يلوح ببندقيته نحو إحدى النقاط، مكشراً مثل الكلب الذي يتوقع الحجر. وأخيراً حددت جهاز التسديد على السبعمائة وأطلقت. فاختفت البقعة. أرجو أن تكون الرصاصة مرّت قريباً من الهدف بما يكفي لإفزاعه. كانت المرة الأولى في حياتي أصوب فيها بندقية على إنسان.

الآن، وقد شهدت الخطوط الأمامية فقد تكدرت. أيسمّون هذه حرباً! نحن لسنا حتى بتماس مع العدو! لم أقم حتى بمحاولة إحناء رأسي إلى دون مستوى الخندق. لكن لم يمض طويل إلا ورصاصة تمرق إلى جانب أذني وتصطدم بالساتر خلفي. وللأسف! طأطأتُ بسرعة. لقد ظللت طوال عمري أعاهد نفسي ألا أطأطئ لأول رصاصة تمر فوقي؛ لكن يبدو أن الحركة غريزية، يفعلها كل إنسان، مرة واحدة على الأقل.

٣

الحياة في جبهة الأرَاجون حول زراجوزا من يناير ١٩٣٧

خمسة أشياء مهمة في حرب الخنادق: الحطب، والزاد، والتبغ، والشمع، والعدو! في شتاء الحرب على جبهة زاراجوزا كانت أهميتها على نفس الترتيب، بحيث كان العدو أقلها إلحاحاً. لايهتم أحد بالعدو إلا في الليل، حيث يظل خطر الهجوم المباغت قائماً. لم يكن العدو إلا مجموعة من الهوام السوداء الصغيرة تزحف على السفح المقابل تتحرك هنا وهناك. الانشغال الحقيقي الذي كان هاجس الجيشين هو التدفئة.

أصارحكم بأنني طوال إقامتي في إسبانيا لم أشهد إلا القليل من المعارك. ظللت في جبهة أراجون من يناير إلى مايو، فبين يناير وإبريل لم نشهد إلا القليل من الحوادث على تلك الجبهة، إلا في التيرول. وقد حدثت بعض العمليات في مارس في محيط هويسكا لكنني شخصيّاً لم أساهم فيها إلا مساهمة لاتذكر. وفيما بعد، في يونيو، حصل ذاك الهجوم على المدينة الذي قتل فيه عدة آلاف من الجنود في يوم واحد، لكنني كنت جريحاً معوقاً قبل هذه الحادثة. فما يُعد من أهوال الحروب لم أشهد منه إلا القليل النادر. لم تلق الطائرات أية قنابل حولي، ولا أظن المدفعية فجّرت دانة من داناتها على بعد يقل عن خمسين ياردة من مكاني. ولم أشهد القتال بالأيدي إلا مرة واحدة (والمرة الواحدة تكفي وزيادة، قولَ الحق). طبعاً تعرضت كثيراً لنيران الرشاشات الثقيلة فوق رأسي، لكنها كانت من مدى بعيد جداً. حتى في هويسكا، كنتَ تشعر بالأمان عموماً إذا اتخذت الاحتياطات الكافية.

هنا، في التلال المحيطة بزاراجوزا، ليس لنا إلا الملل الممزوج بالقلق المصاحب للحرب الثابتة. معيشة عارية عن الحياة والأحداث كمعيشة الموظف الكتابي في المدينة، وبنفس رتابتها تقريباً. الخدمة في الحراسة، الدوريات، الحفْر، الدوريات، الخدمة في الحراسة. على قمة كل تل، فاشيّاً كان أم مُوالياً، كانت زمر من الرجال المهلهلين المغبّرين يرتجفون حول رايتهم طلباً للدفء. وطوال الليل والنهار كانت الطلقات العشوائية تتطاير وتلعلع بين الوديان بلا معنى، لكنها، في حالات نادرة لايؤبه لها، كانت بالصدفة المحضة، تقع على جسد بشري تستقر فيه.

كم كنت أجول ببصري فوق المنظر الطبيعي البارد القاحل أمامي متعجباً من عقم هذا كله. هذا الضرب من الحروب الذي لايستطيع حسم أي شيء. في أكتوبر الماضي جرت معارك وحشية لاحتلال هذه التلال؛ ثم أدى النقص في الرجال والسلاح، المدفعية منها على وجه الخصوص، إلى جعل العمليات مستحيلة، فخندَقَ كل جيش حول نفسه، واستقر على رؤوس التلال التي صارت من نصيبه. كان إلى يميننا مخفر أمامي صغير، يتبع منظمتنا الـ P.O.U.M. وعلى الضرس الذي إلى اليسار، عند موقع الساعة السابعة منا، يقع موقع للـ P.S.U.C [شيوعيين] وهو يواجه تضاريس أعلى منه تضم عدة مخافر فاشيّة صغيرة، بقعاً على القمم. وما يدعى بالخط الأمامي كان يتعرج إلى الأمام وإلى الخلف على شكل لايمكن تبيّنُه لولا أن كل موقع كان يرفع رايته. فرايتا الـ P.O.U.M والـ P.S.U.C كانتا بالأحمر، وراية الأناركيين كانت بالأحمر والأسود، أما الفاشيّون فكانوا عموماً يرفعون الراية الملكية (أحمر-أصفر-أحمر)، وأحياناً كانوا يرفعون الراية الجمهورية (أحمر-أصفر-أرجواني). كان المنظر العام مذهلاً، إذ ما أسرع ماتنسى أن كل قمة كانت تعجّ بالجنود، وعليه فهي ملوثة بعلب الصفيح، ومبقعة بالقمامة. من على يميننا كانت الجبال تنعطف باتجاه الجنوب الشرقي، مخلفة الوادي الواسع المرقط الذي يمتد

حتى مدينة هويسكا. في وسط السهل تجد بضعة مكعبات ملقاة هنا وهناك مثل أحجار النرد، وهي بلدة روبريز، التي كانت للمْوالين من قواتنا. وكان الوادي في معظم أوقات الصباح تغطيه بحار من الغمام والضباب، تنبثق منها التلال العالية مسطحة زرقاء تمنح ذلك المنظر الطبيعي شبهاً غريباً بالسلبية الفوتوغرافية. وأما وراء هويسكا فكانت تقع تلالٌ شبيهة في تشكيلها بتلالنا، مخططة بخطوط بيضاء رسم الثلج في أعاليها أشكالاً تتغير بين اليوم والآخر. وفي أقصى الأفق، كانت الكتلة الضخمة، كتلة جبال البيرينيه، حيث الثلوج الدائمة التي لاتذوب كأنها تطفو في الهواء غير مستندة على شيء. حتى تحتنا بالضبط، في الوادي كان كل شيء يبدو ميتاً مقفراً. التلال المقابلة لنا كانت كالحة ومجعدة مثل جلود الفيلة. والسماء على الغالب ليس فيها طائر يطير. لم أر في حياتي بلاداً طيورها أقل من هذه البلاد. الطيور الوحيدة التي كانت متوطنة هي نوع من الغربان، وبعض أسراب الدراج التي تخيف الراصد في الليل بهديلها المفاجئ؛ وفي لحظات نادرة تظهر العقبان والنسور آحاداً تحوم متأنية فوق رؤوسنا، تتبعها في العادة طلقات البنادق؛ وقد تعودت على ألا تلقي إليها بالاً.

في الليالي، وفي الأيام الضبابية، كانت الدوريات تنزل إلى الوادي الذي يفصل بيننا وبين الفاشيّين. لم تكن هذه المهمة مرغوبة؛ فالجو قارس البرودة، ومن السهل التيه في الضباب، وقد اكتشفتُ بسرعة أنني أستطيع أن أطلب الإذن بالمغادرة في دورية في أي وقت كان وبقدر ما أشاء في تلك الوديان ذات التضاريس الصعبة حيث لادروب ولا ممرات من أي نوع. فلا يمكنك معرفة طريقك إلا بتكرار التردد عليها وملاحظة العلامات الأرضية الجديدة كل مرة. الطلقة المستقيمة كانت تسير بيننا وبين أقرب المواقع الفاشيّة سبعمائة متراً. لكن الطريق كان يبلغ ميلاً ونصف الميل على أي درب يمكن سلوكه عملياً. كان من المسلّي نوعاً ما التجول في تلك الوديان،

والطلقات الشاردة تتطاير وصفيرها مثل صفير الطيطوى. خيراً من الدوريات في الليل كانت الدوريات في الضباب الكثيف، التي غالباً ماتستغرق اليوم بطوله، واعتدنا أن نتسلق فيها السفوح نحو القمم مخلفين الوادي تحتنا. وحين تكون قريباً من الخطوط الفاشيّة يكون عليك الزحف ببطء كالبزاقة، وكان صعباً التنقل بهدوء على تلك السفوح، بين الدغلات المتقصفة، والحصى المتفتت. لم أنجح في الوصول إلى الخطوط الفاشيّة إلا بعد المحاولة الثالثة أو الرابعة. كان الضباب كثيفاً، وزحفت إلى أن وصلت إلى الأسلاك الشائكة للتنصت. كنت أسمع أصوات الفاشيّين يتحدثون ويدندنون في الداخل. ثم ارتعت إذ وجدت أن بضعة أنفار منهم كانوا ينحدرون في السفح باتجاه مكاني. انكمشتُ وراء شجيرة صغيرة، فبدت أصغر حين احتميت بها، حاولت إصلاء زناد بندقيتي بدون إحداث صوت. لكنهم على أية حال انحرفوا عني ولم يقعوا تحت مجال بصري. وقد صادفت وراء الشجرة التي احتميت بها بقايا معارك سابقة — كومة من الخراطيش الفارغة، وقبعة جلدية يخترقها ثقب رصاصة، وعلماً أحمر، هو أحد أعلامنا لاشك. وقد أعدته إلى مواقعنا حيث كان مصيره غير الماجد أن يُمزق ليصبح من خروق التنظيف.

كنت رُقيتُ إلى رتبة عريف، (كوبورال، أو «كابو» كما هو متداول)، منذ وصولي إلى الجبهة، وأقود اثني عشر رجلاً من الحرس. وهي لم تكن وظيفة صورية على الإطلاق. فالفصيلة كانت من الأغرار غير المدربين معظمهم من الفتيان المراهقين. لقد كنت تصادف في الميليشيا صبياناً لايتجاوزون الحادية عشرة والثانية عشرة. معظمهم لاجئون من المناطق الفاشيّة، تطوعوا في الميليشيات لأنها أضمن طريقة للارتزاق والعيش. والعادة أن يكلفوا بالأعمال الخفيفة في الخطوط الخلفية، لكنهم كانوا ينجحون أحياناً في شق طريقهم إلى الخطوط الأمامية، حيث كانوا يشكلون عبئاً وعالة على الجميع. أذكر أن واحداً من هؤلاء الوحوش الصغار ألقى قنبلة يدوية في نار التدفئة «مزاحاً». وفي جبل بيكيرو لاأذكر وجود نفر يقل عمره عن الخامسة

عشرة، لكن المعدل العام لم يكن ليزيد على العشرين. الفتيان في هذا السن يجب ألا يستخدموا في الخطوط الأمامية، لأنهم لايستطيعون تحمّل السهر الذي لامناص منه في حرب الخنادق. في البداية كان من المستحيل حراسة موقعنا كما يجب ليلاً. فصبيان حظيرتي البائسون لم يكن ممكناً إيقاظُهم إلا بسحبهم بأرجلهم من فرشهم وجحورهم. ثم، ما إن تدير ظهرك إليهم حتى يغادروا المحارس إلى الملاجئ. أو الأسوأ، يعمدون، رغم البرد القارس، إلى الاستناد إلى الحائط في الخندق والاستغراق في النوم. ولحسن الحظ، لم يكن العدو سريع المبادرة. فقد مرت ليالي بدا لي فيها أن مواقعنا يمكن اجتياحها بعشرين من صبيان الكشافة مسلحين بالبنادق الهوائية، بل بعشرين من بنات الكشافة.

في تلك الأيام، وإلى مابعدها بكثير، ظلت الميليشيات الكاتالانية على الأسس نفسها التي قامت عليها منذ بداية الحرب. ففي الأيام الأولى لتمرد فرانكو، تأسست الميليشيات بسرعة، أسستها النقابات المهنية المختلفة والأحزاب السياسية. فكانت كل واحدة منها في جوهرها تنظيماً سياسيّاً، يدين بالولاء إلى الحزب بقدر مايدين للحكومة المركزية. وحين تأسس الجيش الشعبي الوطني على أسس 'لا-سياسية'، وبهيكل نظامي، كثيراً أو قليلاً في أوائل سنة ١٩٣٧، اعتُبرت الميليشيات الحزبية، نظرياً، جزءاً منه. لكن التغيير ظل لمدة طويلة على الورق؛ وجنود الجيش النظامي لم يصلوا إلى أراجون بأي عدد منهم إلا في يونيو، وحتى ذلك التاريخ ظل نظام الميليشيات على حاله بدون تغيير. وكان الجوهري في نظامها المساواة الكاملة اجتماعيّاً بين الضباط وباقي الرجال. كل واحد منهم، من الجنرال إلى أصغر الرتب كان له نفس الراتب الوظيفي، ونفس الطعام، حتى اللباس كان متشابهاً. فإذا أحببت أن تربت على كتف الجنرال وتطلب منه سيجارة بدون تكلف، فلا مانع، ولايستغربه أحد. نظريّاً على الأقل، كانت الميليشيات ديموقراطيات حقيقية، لامراتبية فيها. كان مفهوماً أن الأوامر يجب أن تطاع، لكن كان مفهوماً أيضاً أنك

حين تُلقي أمراً فأنت تأمر كرفيق إلى رفيق لا كأعلى إلى أدنى. كان ثمة ضباط وضباط صف (.N.C.O) لكن ليس من رتَبٍ عسكرية بالمعنى المألوف، لاألقاب، ولا شارات، ولا طرق بكعاب الأحذية وتحية. لقد حاولوا أن يخرجوا من الميليشيات بنموذج تجريبي شغال للمجتمع اللاطبَقي. طبعاً لم تكن المساواة كاملة، لكن الاقتراب منها كان إلى حدٍّ لم يسبق أن رأيت مثله، أو حتى عددته ممكناً في زمن الحرب.

وأنا أقر بأن الأحوال للوهلة الأولى في الجبهة أزعجتني. كيف يمكن للحرب أن تخاض وتُربح بجيش من هذا الطراز؟ هذا ماكان الجميع يرددونه في ذلك الحين، وبالرغم من أنه كان صحيحاً إلا أنه لم يكن مقبولاً أو معقولاً. إنه بالنظر إلى تلك الظروف، لم يكن ممكناً أن تكون الميليشيات خيراً مما كانت بكثير. والجيش الحديث المجهز بالماكينات لاينبثق من الأرض فجأة، ولو انتظرت الحكومة انتهاء تدريب القوات التي بتصرفها، لما وجد فرانكو من يقاومه. وفي وقت لاحق أصبح السائد إلقاء اللوم على الميليشيات، والادعاء بأن النواقص، التي ماكانت إلا نتيجة قلة التدريب والافتقار إلى السلاح، كانت نتيجة نظام المساواة. وفي الواقع، كانت القرعة المجمعة حديثاً من الميليشيات تفتقر إلى النظام والانضباط، لابسبب أن الضباط كانوا ينادون الأنفار بـ «يارفيق»، بل بسبب أن الجنود الأغرار هم أبداً رعاع غير منضبطين أولاً. وعمليّاً فإن النوع «الثوري» الديمقراطي من النظام يمكن الاعتماد عليه أكثر مما يتوقع. في الجيش العمالي يفترض أن يكون الانضباط طوعيّاً، من الناحية النظرية. وهو قائم على الوَلاء الطبقي، بينما ولاء الجيش المجند البورجوازي يقوم في النهاية على الإرهاب. (وكان الجيش الشعبي الذي حلّ محل الميليشيات وسطاً بين النظامين.) في الميليشيات لم يكن التسلط والعجرفة المألوفان في الجيوش المعتادة مقبولين لحظة واحدة. والعقوبات العسكرية المعتادة كانت موجودة، لكنها لم تكن تطبق إلا عند المخالفات الجسيمة. وحين يتمرد أحد الرجال على أمرٍ ألقيتَه، فإنك لاتعاقبه فوراً، بل تخاطبه باسم الرفاقية. سيقول الساخرون الذين ليست لهم

خبرة بمعالجة الرجال بأن هذا لن ينجح البتة. لكن الواقع أن هذا ناجحاً، على المدى الطويل. وانضباط رجال الميليشيات، حتى أسوئهم طبعاً، كان بتحسن مع مرور الوقت. في يناير كادت مهمة إبقاء دزينة من الرجال ضمن حدود الطاعة أن تورثني المشيب. وفي مايو تسلمت لفترة قصيرة مهمة ضابط ملازم بالوكالة، وبأمرتي ثلاثون رجلاً من الإنكليز والإسبان. وقد كنا جميعاً تحت النار لعدة أشهر، فلم أجد أية صعوبة في تمشية أوامري أو في الحصول على متطوعين للمهمات الخطيرة. النظام «الثوري» يعتمد على الوعي السياسي - على فهم السبب في صدور الأوامر التي يجب أن تطاع؛ صحيح أن هذا بحاجة إلى الوقت، لكن تدريب الرجال على الطاعة العمياء يستغرق وقتاً أيضاً. والصحافيون الذين سخروا من نظام الميليشيات تناسوا أنه كان على الميليشيات الصمود على الخطوط الأمامية طويلاً بينما كان الجيش النظامي يتدرب في المؤخرة. ويذكر بالفخر للنظام «الثوري» أن الميليشيات تحملت حتى مجرد البقاء على تلك الخطوط. والحق أنه، حتى يونيو ١٩٣٧، لم يكن هناك مايجبرهم على هذا، إلا ولاؤهم الطبقي. نعم، كان الفارون أفراداً عرضة للإعدام رمياً بالرصاص — وقد حصل هذا فعلاً، أحياناً — ولكن لو قرر ألف رجل مغادرة تلك المواقع معاً، فليس من قوة تستطيع منعهم من ذلك. أما الجيش النظامي، فلو كان في تلك الظروف مع عدم وجود الشرطة العسكرية، لذاب ذوباناً بلاشك.

وطوال تلك الأثناء، كان الحطب — والحطب دوماً. طوال تلك الفترة لاتجد مادة من المُدخلات في مفكرتي لاتتضمن ذكر الحطب، والأصح: الافتقار إليه. كنا على ارتفاع مابين الألفين والثلاثة آلاف قدم عن سطح البحر، في منتصف الشتاء والبرد يفوق الوصف. لم تكن درجة الحرارة منخفضة أكثر من المعتاد، لم تصل في كثير من الليالي إلى درجة الصقيع، بل إن شمس الشتاء غالباً ماكانت تشع عند الظهيرة، لكن حتى إذا لم يكن البرد قارساً، فالمؤكد لكم أنه بدا كذلك. كانت الرياح تعصف أحياناً فتطير قبعتك وتشتت شعر رأسك، في كل الاتجاهات، وأحياناً أخرى

يحل الضباب الكثيف الذي يبدو كأنه ينصب في الخنادق طوفاناً، ويتخلل حتى العظام. وكان المطر متكرراً، مع أن أمطار ربع ساعة فقط تكفي لجعل الحياة لاتحتمل فالطبقة الرقيقة من الغبار على سطح الصخور الجبسية تتحول فوراً إلى مايشبه الشحوم الزلقة، وبما أنك تسير دائماً على أراض منحدرة فمن شبه المستحيل أن تثبت أقدامك. في الليالي المعتمة كنا نقع ست مرات في عشرين ياردة، وهذا خطير جداً، لأنه يعني أن مغلاق البندقية يتطين ويستعصي. كانت تمر أيام متتالية والملابس والأحذية والبطانيات والبنادق مغطاة بالطين. كنت جلبتُ معي من الألبسة الثقيلة بقدر ماستطعت حمله، لكن الكثير من الرجال كانوا غير مكتملي الملابس. لم يكن في الحامية كلها، المؤلفة من مائة عسكري، إلا اثنا عشر معطفاً، فاضطررنا إلى تداولها من يد إلى يد على نقط الحراسة. ومعظم الرجال لم يكن عنده إلا بطانية واحدة. في إحدى الليالي الصقيعية، أدخلت في مفكرتي لائحة بما كنت أرتدي من ثياب. وهي مفيدة في تبيان مايستطيع الإنسان حمله على جسده منها. كنت أرتدي قميصاً سميكاً. وسروالاً، وقميصاً من الفانيلا، واثنتان من بزّات العمل الفوقانية، وجاكيتاً من الصوف، وعدة جوارب، والحذاء الضخم البوتين، ومعطفاً مطرياً مشمعاً سميكاً جامداً، ولفاحة، وقفازات جلدية مبطنة، وقبعة صوفية. وفوق كل هذا كنت أرتجف وأترجرج مثل الهلام. لكنني أُقر بأنني حساس للبرد فوق المعتاد.

الحطب كان الشيء الذي لايعلى عليه بالأهمية. وأهم ما في الحطب أنه لم يكن عندنا منه عملياً أي شيء. والتل البائس الذي كنا عليه لم يكن فيه، في أحسن أحواله، نباتات كثيرة. وقد مضى عليه شهور ورجال الميليشيات المقروررون يرتادونه، ويجردونه من أي شيء يزيد ثخانةً على عقلة الإصبع. فحين لم نكن نأكل، أو نائمون، أو في المحارس، أوفي الاحتياط الرديف، كنا حتماً في الوادي خلف الموقع نفتش عن الأحطاب. كل ذكرياتي عن تلك الفترة هي ذكرياتي عن الحبْو صعوداً وهبوطاً على سفوح عمودية، فوق صخور جبسية مسننة مزّقت الحذاء تمزيقاً، أفتش

بلهفة عن شظايا الأخشاب بأي حجم. كان الثلاثة منّا إذا فتشوا عن الحطب ساعتين يعودون بما يكفي إيقاد النار في الحفرة لساعة واحدة. وللهفتنا على تجميع الحطب صرنا جميعاً من خبراء النباتات. صنفناها بحسب خصائص الاحتراق فيها، أنواع متعددة من الأحطاب كانت تنمو على ذلك السفح، الحشائش والأعشاب المختلفة تصلح لبدء الإشعال، لكنها تخبو وتنعدم خلال دقائق. إكليل الجبل البري ودغلات الوزّال يمكن أن تحترق إذا كانت النار حامية، وأشجار البلوط المقزومة، أصغر من دغلات العلّيق، كانت عمليّاً غير قابلة للاحتراق. وكان ثمة نوع من القصب الجاف يصلح كثيراً لإشعال النار به، لكنه لم يكن يوجد إلا على قمة التل الذي إلى يسار موقعنا، فكان عليك أن تغامر تحت النار للوصول إليها. وإذا لمحك أصحاب الرشاشات الفاشيّة نفحوك برشقة من الذخيرة مخصوصة بك أنت. وغالباً ماكان تسديدهم عالياً. فتغرد طلقاتهم فوق رأسك كالطيور، لكنها أحياناً تسفّ وتكشط الصخور قريباً منك قرباً ممضاً لايشعرك بالراحة، إذ تخر مكباً على وجهك. لكنك تظل تعود إلى المكان لجمع الحطب، فلا شيء يهم إلى جانب الحصول على الحطب. وبالمقارنة بالبرد كانت كل المقلقات تبدو ضئيلة. طبعاً كنا جميعاً تعلونا الأوساخ. فالمياه كانت تأتينا، شأنَ الطعام، على ظهور البغال من ألكوبييري، وكان ينال الواحد منّا ربعيّة a quart في اليوم [حوالي اللتر]. كان ماء عكراً لاتزيد شفافيته عن اللبن. وكان نظريّاً للشرب فقط. لكنني كنت دائماً أختلس ملء قصعة منه للاغتسال كل صباح. وقد اعتدت أن أغتسل يوماً وأحلق لحيتي في اليوم التالي، فلم يحصل أن كان لديّ من الماء مايكفي للاثنين معاً. كان للموقع رائحة كريهة، والفراغ حول التحويطة مليئاً بالغائط. بل إن بعض الرجال كان يؤديه في الخنادق، وهو أمر مقرف حين يضطر المرء للتجول أثناء العتمة. لكن الأوساخ لم تعد تشغلني، فهي من الأمور التي يبالغ الناس في الاهتمام بها. وقد يدهشك سرعة ماتعتاد على العيش بدون مناديل، وعلىتناول الطعام من قصاع الصفيح التي تغتسل بها أيضاً.

حتى النوم بكامل ثيابك ليس فيه صعوبة إلا ليوم أو يومين. فقد كان يمتنع طبعاً أن يخلع المرء ثيابه ليلاً، خصوصاً الحذاء. إذ لابد من الجاهزية للخروج فوراً في حال التعرض لهجوم مباغت. لم أخلع ثيابي طيلة ثمانين ليلة إلا ثلاث مرات، رغم أنني تدبرت خلعها أحياناً في النهار. كان الجو أبرد من أن يظهر فيه القمل حتى الآن، لكن الفئران والجرذان وافرة. قيل كثيراً إنك لاتجد الفئران والجرذان معاً، لكنك تجدها بالفعل متجاورة إذا كان هناك طعام يكفي الجنسين.

في النواحي الأخرى لم تكن أوضاعنا سيئة. الطعام جيد بما فيه الكفاية، والنبيذ متوافر. والتبغ ظل يوزع بمعدل علبة واحدة يوميّاً. وأعواد الثقاب توزع لكل يومين، بل كان لنا مخصصات من شموع الإضاءة. رفيعة جداً مثل شموع قالب العيد، والشائع أنها منهوبة من الكنائس. ولكل مغارة منها ثلاثة إنشات في اليوم، تكفي للإضاءة عشرين دقيقة. في تلك الأيام كان يمكن ابتياع الشموع، وكنت جلبت معي عدة أواق منها. وبعدئذ جعل الافتقار إلى الثقاب والشموع الحياة جحيماً. قيمة هذه الأشياء لاتظهر إلا عند الافتقار إليها؛ عند الإنذار الليلي، مثلاً، يتخبط الجميع في المغارة في الظلام وكلٌّ يبحث عن بندقيته ويطأ وجوه الآخرين بلا تمييز، حينئذ قد تكون القدرة على الاستضاءة هي الفاصل بين الحياة والموت. كل واحد من رجال الميليشيا كان عنده قداحة بفتيل وعدة ياردات من الفتائل، وهي، بعد بندقيته، أغلى مقتنياته. فلتلك القداحة مزية أنها تقدح والريح تعصف، لكنها تبص بصيصاً فلا تصلح لإشعال النار. وحين كان الافتقار إلى الثقاب مستحكماً، كانت وسيلتنا الوحيدة لإيقاد النار هي نزع الرصاصة من الخرطوشة ولس البارود بفتيل القداحة المشتعل.

تلك كانت حياة غريبة، وطريقة أغرب في خوض الحرب، هذا إذا أسميتها حرباً. كانت الرجال تتذمر من البطالة، وتنادي بتبيان سبب منعنا من أن نبادر

بالهجوم، لكن كان واضحاً تماماً السبب في أنه لن تحدث المعارك لزمن طويل في المستقبل، إلا إذا بدأها العدو. جورج كوب، في إحدى جولاته التفتيشية الدورية كان صريحاً معنا بقوله: «هذه ليست حرباً. إنها مسرحية هزلية تتخللها بعض الوفيات أحياناً». كان للركود على جبهة الأراجون أسباب سياسية لم أكن أعلم عنها شيئاً حينئذ؛ لكن المصاعب العسكرية المحضة، إلى جانب الافتقار إلى الاحتياطي من الرجال، كان بادياً للعيان.

ولنبدأ بالطبيعة في المنطقة. كان الخط الأمامي، عندنا وعند الفاشيّين، يقع في مواقع طبيعية منيعة إلى أقصى الحدود، لايمكن التقرب منها إلا من جهة واحدة. فإذا احتفر الجانب بضعة خنادق، لم يعد يمكن أخذ هذه المواقع بالمشاة إلا بحشد أعداد متفوقة كثيراً. ففي موقعنا، وفي معظم تلك التي حولنا، يمكن لاثني عشر رجلاً ورشاشين أن يوقفوا لواء كاملاً. كما أننا لتمركزنا على رؤوس التلال كنا نستطيع أن نستطلع للمدفعية، لو كان هناك مدفعية. كنت أحياناً أجول بأبصاري في عرض المنظر الطبيعي الواسع تحتي وأتحسر بحرقة شديدة، على بطاريتين من المدفعية. يستطاع بها تدمير المواقع المعادية واحداً واحداً بسهولة تكسير الجوز بالمطرقة. لكن المدافع لم تكن موجودة . أما الفاشيّون فقد كانوا أحياناً يتدبرون جلب مدفع أو اثنين من زاراجوزا يطلقون منها بضع طلقات، هي من القلة بحيث لم تكن تكفي لتحديد المدى، كانت الطلقات تضيع في الوديان حولنا. في مواجهة الرشاشات وبدون مدفعية، ليس بمقدورك أن تفعل إلا ثلاثة أشياء: تتمترس على مسافة مأمونة — قُل أربعمائة ياردة –، أو تتقدم في العراء على المكشوف وتنهي حياتك بمجزرة، أو تقوم بعمليات ليلية من العيار الخفيف لاتقدم ولاتؤخر ولاتغير من الوضع العام شيئاً. الخيارات هي في الواقع بين الانتحار وبين الركود والبقاء بلا عمل.

يضاف إلى هذا الافتقار الكامل للتجهيزات الحربية من جميع الأصناف. لابد من جهد لإدراك مدى سوء تسليح الميليشيات في ذلك الحين. الكشافة في أية مدرسة عامة [١٠] في إنجلترا هي أقرب منا بكثير إلى الجيوش النظامية الحديثة. فسوء تسليحنا كان عجيباً لدرجة أنه يستحق التسجيل بالتفصيل . مدفعية هذا القطاع من الجبهة كانت تتألف من أربعة مدافع هاون، لكل منها *خمس عشرة قذيفة* فكانت أعز وأغلى من أن تُطلق بل أُبقيت ومدافعَها في ألكوبييري. وكان عندنا رشاشات بمعدل رشاش لكل خمسين رجلاً. كانت قديمة، لكن جيدة التصويب بحدود ثلاثمائة أو أربعمائة ياردة. فيما عدا هذه لم يكن لدينا إلا البنادق، ومعظمها حديد خردة. البنادق المستعملة كانت من ثلاثة أنواع. الموزر، ونادراً ماكانت تقل من عشرين سنة عمراً، وأجهزة التصويب فيها تفيد فائدة عداد السرعة المعطوب في السيارة. ومعظمها كان حلزون السبطانة فيها صدئاً مهترئاً لا خير فيه. لكن كان في العشرة منها واحدة جيدة على الأقل . أما الطبنجة الموزر، وهي كانت أصلاً من أسلحة الفرسان، فكانت مرغوبة لخفّتها وقلة غلَبتها في الخنادق، ولأنها كانت تبدو حديثة نسبياً ويُعتمد عليها. وفي الواقع كانت عديمة الفائدة مثل سابقتها. فهي ملفّقة من قطع أعيد تركيبها، فليس من مغلاق مركبٍ على بندقيته الأصلية، وثلاثة أرباعها يمكن الجزم بأنها ستستعصي على الإطلاق بعد القذيفة الخامسة. كان ثمة أيضاً بعض بنادق الونشستر. استعمالها سهل، لكنها غير صحيحة التصويب على الإطلاق، ولأنها بدون أمشاط للذخيرة، فكان لابد من تذخيرها طلقة طلقة. أما الذخيرة فكانت عزيزة لدرجة أن كل رجل كان يُصرف له عند انتقاله إلى الجبهة

---

[١٠] Public school وهي لاتعني المدارس العمومية الشعبية كما عند كل عباد الله بل كأنها مقابل الدراسة الخاصة في المنازل عند كبار القوم الإنكليز . وهي حتى الآن من أرقى مدارس العالم وأعلاها تكلفة. منها إيتون التي درس المؤلف فيها ودرّس وكذلك بعض العرب على مستوى الملوك فما دون.

خمسون طلقة، معظمها فاسد. الإسباني منها كان فوارغ معبأة من جديد، والمكسيكي كان أحسن حالاً بحيث خُصص للرشاشات. خير الذخائر كان الألماني، لكن لايمكن الحصول عليه إلا من الأسرى والفارين، فكان أقل من القليل. كنت دائماً أحتفظ بمشط من الذخيرة المكسيكية أو الألمانية في جيوبي احتياطاً للطوارئ، لكن عند تلك الطوارئ نادراً ماتجرأت على إطلاق بندقيتي؛ كنت مُفرط الخوف من أن يستعصي ذلك الشيء الشيطاني، وشديد اللهفة بحيث قنعت بقذيفة واحدة مضمونة الانطلاق.

الخوذ الحديدية، وحربات البنادق كانت معدومة، وليس عندنا إلا القليل من مسدسات الطاحونة أو الأمشاط، وما لايزيد على رمانة واحدة لكل عشرة رجال أو خمسة. الرمانات المستخدمة حينئذ كانت تعرف برمانات الأناركيين، لأنهم أنتجوها في الأيام الأولى من الحرب. كانت على مبدأ رمانات الميلز، لكن العتَلة فيها لم تكن مشكومة بدبوس بل مكبوسة بشريط لاصق، فعليك أن تمزق الشريط وتتخلص من القنبلة بأسرع مايمكنك. ولقد قيل عن هذه القنابل بأنها كانت «محايدة، غير منحازة»، إذ تقتل الرجل الملقاة عليه والرجل الذي ألقاها معاً! كان هناك رمانات من عدة أنواع أخرى، أكثر بدائية وربما أقل خطراً، على الرامي. ما أقصده أنني لم أشاهد حتى أواخر مارس رمانة تستأهل الاستعمال.

فإذا تركنا التسليح وجدنا النقص يصل إلى ضروريات الحرب الأقل. مثلاً، لم يكن لدينا أية خرائط أو مخططات. وإسبانيا كلها لم تكن قد مُسحت مسحاً كاملاً. الخرائط الوحيدة المفصلة لمنطقتنا كانت الخرائط العسكرية القديمة، وكانت كلها تقريباً في حوزة الفاشيّين. أيضاً لم يكن لدينا مناظير تحديد المدى ولا مناظير تحديد الأفق (التلسكوبات والبيريسكوبات) ولا مناظير ميدانية إلا بضعة منها عند أصحابها، ولا طلقات خطاطة أو علاّمة، ولا قطاعات أسلاك، ولا عدة تسليح، حتى عدة التنظيف كان فيها صعوبة. وكأن الإسبان لم يكونوا سمعوا بخيط التنظيف

الذي يُسحب في السبطانة سحباً. فقد فوجئوا به حين صنعت لهم واحداً. حين تريد تنظيف بندقيتك فإنك كنت تأخذها إلى «السرجنت» الذي كان لديه قضيب نحاسي طويل يستعمله مِدكّاً. وكان هذا يتثنّى بالضرورة فيخرش جدران السبطانة. وليس من زيت مخصوص للسلاح. بل عليك استعمال زيت الزيتون. إذا استطعت الحصول عليه؛ ومع اختلاف الظروف استعملت في تزييت بندقيتي الفازلين، والقشطة الباردة، حتى شحم الخنزير. يضاف إلى هذا انعدام الفوانيس أو المصابيح بالبطارية، وبحسب معرفتي، لم يكن في ذلك الوقت واحداً منها في قطاع جبهتنا بأكمله ، ولايمكنك ابتياع واحد منها من بلدة أقرب من برشلونة. وبصعوبة كافية حتى هناك.

وبمرور الزمن، والنيران المتقطعة تفرقع بين التلال، بدأ يداخلني الشك في حدوث *أي شيء* يبعث بعض الحياة، والأصح بعض الموت، في هذه الحرب الحولاء. كان مرض ذات الرئة هو الذي نحاربه، لاالرجال. وحين تكون الخنادق متباعدة أكثر من خمسمائة ياردة فلايصاب أحد إلا بالصدفة المحض. حصلت بعض الإصابات طبعاً، لكن معظمها كان إصابات ذاتية. وإن لم تخنّي الذاكرة، فإن أول خمسة رجال جرحى شاهدتهم في إسبانيا أصيبوا بسلاحهم الفردي. لا أقصد أنها كانت متعمدة، بل نتيجة حادث أو إهمال. كانت بنادقنا خطراً بذاتها، وبعضها كانت له العادة البذيئة بالانطلاق إذا خُبِطَتْ بالأرض؛ وقد رأيت واحداً أصيبت يده هكذا. وحين كان يسود الظلام كان الأنفار الأغرار يطلقون النار بعضهم على البعض. ففي إحدى الأمسيات. وكان الوقت قبيل العشي، أطلق عليّ أحد الحرس النار من مسافة لاتزيد على عشرين ياردة. لكنه أخطأني بياردة كاملة. ولا يعلم إلا الله كم أنقذني ضعف مستوى التصويب الإسباني من الموت المحقق. وفي مناسبة أخرى خرجت في دورية في الضباب. وتقصّدت إبلاغ رئيس الحرس سلفاً. لكنني عند عودتي تعثرت بدغلة صغيرة. فنادى الحارس المرتاع بأن الفاشيّين قادمون. وكان لي

شرف سماع رئيس الحرس يأمر //جميع بإطلاق النار باتجاهي. وطبعاً ظللت منبطحاً. ومرت الطلقات من فوقي. لاشيء يستطيع إقناع الإسباني، الشاب على الأقل، بأن يعدّ الأسلحة النارية أشياء خطرة. مرة أخرى، بعد هذه الحادثة، كنت ألتقط صورة لبعض رجال الرشاش، قرب سلاحهم، وكان مصوّباً باتجاهي، فقلت مازحاً:

- «لاتطلقوا النار»، وانشغلت بتعيير العدسة؛ وأجابوا:

- «لا، لن نطلق النار».

وبعد لحظة بدأت الفرقعات المتتالية وانصب وابل من الرصاص قريباً من وجهي بحيث أن وجنتي تأثرتا من البارود. كان الأمر غير مقصود، لكن الرجال اعتبروها نكتة عظيمة. هذا بالرغم من أنهم شهدوا قبل بضعة أيام سائقاً بغّالاً يصعيبه أحد المندوبين السياسيين الذي كان يلعب بمسدس آلي حشاه بخمس رصاصات استقرت في رئة البغّال المسكين.

وكانت كلمات السر الصعبة التي استخدمها الجيش مصدراً لبعض الأخطار. كانت من تلك العبارات المزدوجة المتعبة، وفيها يجاب على الكلمة المخصوصة بكلمة أخرى. وكانت تُنتقى في العادة من السياق الحماسي أو الثوري من مثل *Cultura,* يجاب عليها بـ PROGRESO, أو *Seremos* تجاوبها *invencibles* ، فكان من شبه المحال تقريباً جعل رجال الحرس شبه الأميين يذكرون مثل هذه الكلمات المتشدقة. أذكر أن الكلمة كانت في إحدى الليالي CATALUÑA يُجاب عليها بـ EROICA واقترب مني فلاح مستدير الوجه تعلوه الحيرة يدعى جاييمي دومينيخ وطلب مني أن أشرح له معنى *'Eroica'* :

- « *'Eroica'* مامعنى *'Eroica'*؟»

فقلت له إنها تعني *vaLiente* (البطولة). وبعد قليل كان يتعثر في الظلام صعوداً في أحد الخنادق، فاستوقفه أحد الحرس قائلاً:

«قف. كاتالونيا». فصاح جاييمي قائلاً « فالييننتي!» (بدلاً من إرويكا) . وكان الرد من الحرس: بانج! طاخ!

لكنه على كل حال لم يصبه، شأنَ الجميع في هذه الحرب؛ كل واحد يُخطئ الآخر بقدر إمكان الطاقة البشرية.

٤

انتقال الإنكليز إلى جبل أوسكورو فوق زاراجوزا

بعد أن أمضيت ثلاثة أسابيع في الخطوط الأمامية وصلت إلى ألكوبييري من إنجلترا زمرة متطوعين تتألف من عشرين أو ثلاثين رجلاً، أرسلتها الحركة العمالية الدولية I.L.P ولإبقاء الإنكليز معاً، أرسلوني مع وليمز لننضم إليهم. وكان موقعنا الجديد في جبل أوسكورو، على بعد بضعة أميال غرباً، وهو يطل على بلدة زاراجوزا.

أُقيم الموقع على قمة صخرية متطاولة ضيقة كحدّ الموسى، فاضطروا إلى جعل الاستحكامات والملاجئ أفقية خليوية مثل أعشاش الطيور. وتذهب في الأرض عميقاً بحيث سادها من الداخل الظلام الدامس، وكانت واطئة بحيث لاتستطيع الركوع فيها، ناهيك عن الوقوف. كان على القمم التي إلى يسارنا مركزان لنا (لـ P.O.U.M. اليساريين الشعبيين) كان أحدهما مطمح كل رجل في الجبهة لأنه ضَمَّ ثلاث نساء من الميليشيات كنَّ يقمن بأعمال الطبخ. لم يكنّ على درجة عالية من الجمال ، لكن أصبح من الضروري جعل المركز محظوراً على الرجال من المراكز الأخرى. وعلى بعد خمسمائة ياردة إلى يميننا كان ثمة مركز للـ P.S.U.C. (الشيوعيين) عند منعطف الطريق إلى ألكوبييري، ومن هناك بالضبط تتداوله أيدٍ أخرى. كنت تستطيع أن تشاهد في الليل المصابيح الكشافة لعربات تموييننا تلتف قادمة من ألكوبييري، وفي الوقت ذاته ترى نظيرتَها الفاشيّة قادمة من زاراجوزا.

وكنت ترى زاراجوزا ذاتها شريطاً رفيعاً من الأضواء مثل أضواء نوافذ قمرات السفينة، على بعد اثني عشر ميلاً باتجاه الجنوب الغربي. كان جنود الحكومة ينظرون إليها من هذه المسافة منذ أغسطس ١٩٣٦، ومازالوا هناك حتى الآن [١٩٣٨].

كان هناك ثلاثون. منّا [إنجليز]، وواحد إسباني (رامون، أخو زوجة ويليمز)، وكان ثمة اثنا عشر من سدنة الرشاشات الإسبان، بالإضافة إلى المتطفلين الذين لابد من وجودهم؛ فالحرب كما يعرف الجميع، تجتذب الشواذ. كان الإنكليز زمرة ممتازة، من الناحيتين الجسدية والعقلية. وربما كان أميز المجموعة بوب سميلّي — وهو حفيد زعيم عمال المناجم الشهير، وقد مات بعدئذ في ظروف سيئة بلا معنى في فالينسيا. ومما يرفع عالياً تقدير المناقبية الإسبانية أن الإنكليز والإسبان عاشوا معاً على أتم وفاق بالرغم من حاجز اللغة. وقد اكتشفنا أن الإسبان جميعاً يعرفون تعبيرين إنكليزيين. الأول هو «OK, baby»، والآخر كلمة تستخدمها قحاب برشلونة في تعاملهن مع البحارة الإنكليز، أخشى ألا يوافق الطابعون على ذكره.

عدنا مرة أخرى إلى انعدام الحوادث على طول خط الجبهة: لاشيء إلا فرقعة طلقة عشوائية بين الحين والحين، يتخللها في النادر انقضاض قنبلة هاون فاشية ترسل الجميع إلى الخندق الأعلى لرؤية أي تل كان يستهدفه القصف. كان العدو أقرب إلينا هنا بعض الشيء، على مسافة ثلاثمائة أو أربعمائة ياردة تقريباً. وأقرب مواقعهم كان مقابل موقعنا بالضبط. فيه مربض رشاش تغري الفتحات في استحكامه على إهدار الذخائر باستمرار. لم يكن الفاشيون يهتمون بإطلاق البنادق، لكنهم كانوا يرشقون نار الرشاش الدقيقة على كل من يعرض نفسه أمامهم. مع هذا مرّ عشرة أيام أو أكثر قبل أن نمنى بأول إصابة. كان الجنود في الطرف المقابل إسبانيين، لكن كان بينهم، كما روى الفارّون منهم، بعض ضباط الصف الألمان. وقد كان في السابق بينهم

مراكشيون — ترى كيف تحمّل أولئكم الأبالسة الأشقياء برد تلك المنطقة؟ — كان في المنطقة الفاصلة التي ليست لأحد جثة أحد المراكشيين ملقاة هناك ، فأصبحت من معالم المنطقة. وعلى بعد ميل أو اثنين إلى يسارنا تصبح الخطوط متقطعة غير متصلة، فيها بقعة من الأرض، واطئة، في القاع، كثيفة الأدغال ليست لنا ولا للفاشيّين. فكنا، نحن وهم نرسل الدوريات النهارية إليها. كان الأمر طريفاً كأنه تدريب كشفي صبياني سيئ، بالرغم من أنني لم أر فيها دورية فاشيّة أقرب إليّ من بضع مئات من الياردات. فإذا زحفت على بطنك طويلاً تستطيع التسلل إلى الخطوط الفاشيّة، حتى لَترى المزرعة التي ترفع العلم الملكي، وهي مقر القيادة المحلية الفاشيّة. وغالباً ما كنا نصْليها بوابل من رصاص بنادقنا ثم ننسلّ مبتعدين قبل أن تتمكن الرشاشات الفاشيّة من تحديد مكاننا. أرجو أن نكون نجحنا في تكسير بعض زجاج نوافذهم، لكن المسافة كانت ثمانمائة متر على الأقل، أي أنه لايمكن القول ، وبنادقنا هي ماهي، بأننا أصبنا حتى المنزل ذاته من ذلك المدى البعيد.

كان الطقس في الغالب صحواً وبارداً، مشمساً أحياناً عند الظهيرة، لكن دائم البرودة. وبدأت هنا وهناك تطل برؤوسها كالمناقير الخضر، نبتات السوسن والزعفران البرية، مبشرة بحلول الربيع، لكنه كان يأتي متأنياً ببطء شديد. الليالي كانت أبرد من ذي قبل. وقد اعتدنا عند قدومنا من نوبة الحرس في ساعات الفجر أن نجرف ماتبقّى من نيران المطبخ ونقف للاصطلاء بجمراتها. وهذا مضرٌّ بالأحذية لكنه لذيذ للأقدام. وكنت في بعض الأيام تشاهد منظر الفجر يطلع بين قمم الجبال رائعاً يعوّض تقريباً بقاءك بعيداً عن سرير النوم في مثل هذه الساعات الشقية. أنا لاأحب الجبال، حتى منظرها، لكن يحدث أحياناً، حين ينبثق الصبح من وراء القمم خلفنا، فإن أوائل الخطوط الذهبية الرفيعة، كالسيوف تمزق الظلام، يتلوها مع تزايد الضياء محيطات من الغمائم القرمزية تمتد إلى أقصى الحدود. وهذه مشاهد تستحق الحضور، حتى ولو كنت ظللت مستيقظاً طوال الليل، وساقاك مخدران حتى

الركب، وأنت عارف بأن الطعام لن يحل قبل ثلاث ساعات على الأقل. لقد شاهدت الفجر والشروق خلال تلك الحملة أكثر مما شاهدته في ما مضى من حياتي كلها – وما بقي منها ، فيما أرجو.

كنا قلة هنا، وهذا يعني زيادة الحراسة والإرهاق. وقد بدأت أعاني قليلاً من جراء السهر الذي لامناص منه حتى في أهدأ الحروب. وإلى جانب واجبات الحراسة والدوريات كان ثمة مالاينتهي من الاستنفارات الليلية، والخدمة الاحتياطية. وفي كل الأحوال لن تهنأ بالنوم في ذلك الجحر الحيواني الغائر في الأرض وقدماك تؤلمانك من البرد. في أول ثلاثة أو أربعة شهور لي في تلك الجبهة أظن أنه مرّ علي أكثر من اثني عشرة فترة لم أذق النوم فيها لأربع وعشرين ساعة كاملة. المعدل المعتاد كان لايزيد على عشرين أو ثلاثين ساعة نوم في الأسبوع. ولم يكن لهذا أثر سيئ بقدر مايُظن، نعم، يصبح المرء بليداً، ويصبح الصعود والنزول في التلال أكثر صعوبة، بدلاً من أن يصبح أسهل، وفيما عدا هذا يشعر المرء بأنه في حال طيبة، ويحس بالجوع على الدوام – جوع بلا حدود! كل الأطعمة تبدو لذيذة، حتى تلك الفاصولياء المريعة التي أصبح يكرهها الإسبان جميعاً في النهاية. أما مياهنا القليلة فكانت تنقل إلينا من مسافة أميال على ظهور البغال او الحمير الضئيلة المقهورة. فلسبب خفي يعامل الفلاحون الأراجون بغالهم معاملة طيبة، ويسيئون معاملة حميرهم. فإذا حرن الحمار كان المعتاد أن يُرفس في خصيتيه. أما الشموع فقد فقدت، وأما عيدان الثقاب فقد كانت عزيزة، فتعلّمنا من الإسبان صنع الأسرجة للاستنارة بزيت الزيتون من علب الصفيح للحليب المركّز مع لقاطة خرطوش وشريط من القماش. كانت تضيء بشعلة مدخنة، بقوة ربع شمعة، أي بما يكفيك للعثور على بندقيتك.

لم يكن هناك أمل في المحاربة الفعلية. وحين غادرنا جبل بوتشيرو عددت ذخيرتي فوجدت أنني لم أطلق على العدو في حوالي ثلاثة أسابيع إلا ثلاث طلقات. ويقال إن القتيل في الحرب يسقط بعد ألف طلقة، فبهذا المعدل، كنت بحاجة إلى عشرين سنة لكي أقتل أول ضحاياي من الفاشيين. أما هنا في جبل أوسكورو، فقد

كانت الخطوط متقاربة، والفرصة أفسح لإطلاق النار، لكنني واثق من أنني لم أحقق أية إصابة. بل الواقع أنه، على هذه الجبهة، في هذا الوقت من الحرب، كان السلاح الأشد فعالية هو الميجافون، مكبّر الصوت، لاالبندقية. فإذا لم تستطع قتل عدوك، فلا أقل من أن تزيده صراخاً. هذه الطريقة من الحرب خارجة عن المألوف لدرجة أنها تستحق بعض التفصيل.

حيثما كانت الخطوط قريبة على مرمى الصوت كان الصراخ والهتاف يتجاوبان بين الخنادق. من عندنا «فاشيستاس، ماريكونيس» ومن عند الفاشيّين «فيفا إسبانيا!، وفيفا فرانكو» – وفي حال معرفتهم أن مايواجهونهم من الإنكليز، «أيها الإنكليز، ارجعوا إلى بلادكم. لانريد أجانب هنا!». وقد تطور الهتاف بالدعاية لضرب معنويات العدو عند الجانب الحكومي، والميليشيات الحزبية، ليصبح فنّاً يمارَس بانتظام. في كل المواقع المناسبة كان الرجال، وفي الأغلب سدنة الرشاشات، يكلفون بمهمات هتافية ويسلّمون مكبرات الصوت. على العموم كانوا يهتفون جملاً محضّرة سلفاً، محشوة بالانفعالات الثورية وتوضح لجنود الفاشيّة أنهم ليسوا إلا مرتزقة مأجورين للرأسمالية العالمية، وأنهم يحاربون الطبقة التي ينتمون إليها، الخ. الخ، وتحرضهم على الانضمام إلينا. كان هذا يتكرر بنوبات متتالية من الرجال، وأحياناً يستمر طوال الليل. ليس من شك في أنه كان لهذا الضجيج بعض التأثير، فكان الجميع يعتبرون ما يتقاطر إلينا من الجنود الفاشيين يعود إليه جزئيًّا. وعند التأمل في هذا نجد أن الجندي الحرَسي البائس – ويغلب أن يكون نقابيّاً اشتراكيّاً أو أناركيّاً سيق بالرغم منه إلى الخدمة الإجبارية – وهو يرتجف من البرد في محرسه وشعار «لاتحارب أبناء طبقتك» يعاد في الظلام مراراً وتكراراً في أذنيه. فلاشك سوف يتأثر به بعض التأثير. وقد يصل إلى ترجيح الموازنة بين الفرار وعدمه. هذه الإجراءات لاتتطابق طبعاً مع التصور الإنكليزي للحرب. أعترف بأنني، للوهلة الأولى، دهشت واستهجنت اللجوء إلى هذه الإجراء، أي من فكرة محاولة استمالة

عدوك بدلاً من ضربه بالرصاص! أما الآن، فأرى أنها مناورة مشروعة من جميع الوجوه. ففي حرب الخنادق العادية، وبعدم وجود المدفعية، يصعب للغاية أن تحقق إصابات في العدو دون أن تُمنى بعدد مماثل. فإذا استطعت تشتيت عدد من الرجال بجعلهم يفرون إليك، كان الربح مضاعفاً، والفارون يفيدونك في الواقع أكثر من الجثث، لأنهم يزودونك بالمعلومات. لكن الأمر في البداية أقلقنا؛ إذ جعلنا نشعر بأن الإسبان لايأخذون هذه الحرب مأخذ الجد بما فيه الكفاية. كان الرّجل المكلف بالمناداة في موقع الـ P.S.U.C (الشيوعي) هناك تحت، إلى يميننا، فناناً في عمله. فكان أحياناً يستبدل الهتاف بالشعارات بإخبار الفاشيّين كم كان إطعامنا خيراً منهم. وكان تفصيله للمخصصات الحكومية خياليّاً قليلاً:- كان يمكن سماع صوته يلعلع في ثنيات الوادي: «الخبز المحمص بالزبدة، نحن الآن منهمكون في مدّ الزبدة على الخبز المحمص. إنها قطعة لذيذة من الخبز المحمص بالزبدة». لاشك أنه، شأنَنا جميعاً، لم ير الزبدة منذ أسابيع بل شهور كاملة، لكن أخبار الخبز المحمص بالزبدة في تلك الليالي الجليدية، ربما تكون أسالت لعاب كثير من العساكر الفاشيّة كما أسالت لعابي، أنا الذي يعرف أن الأمر كذب بكذب.

في أحد أيام فبراير رأينا طائرة فاشية تقترب منا. وكالعادة جرى سحب أحد الرشاشات إلى العراء، ورفعت سبطانته إلى الهواء، واستلقى الجميع على ظهورهم للتسديد الدقيق. كانت مواقعنا المعزولة لاتستأهل عناء قصفها. والعادة كانت أن تدور الطائرات الفاشية القليلة التي تمر بنا من حولنا تجنباً لنيران الرشاشات. أما هذه الطائرة فقد مرّت رأساً من فوقنا، لكن بارتفاع أعلى من أن يستأهل عناء الرمي عليه. ثم اندلعت منها أشياء لم تكن قنابل، بل أشياء براقة تتقلب في الهواء ببطء. نزل منها في الموقع عدة قطع. كانت نسخاً من جريدة فاشيّة *«هيرالد الأراغون»* تعلن سقوط مالاقا.

في تلك الليلة شن الفاشيّون هجوماً فاشلاً. كنت نزلت للتو إلى الكهف، وأنا نصف ميت من النعاس . اندلع وابل ثقيل من الطلقات فوقنا، وصاح أحدهم في أهل المغارة بأنهم يهاجَمون!. تناولت بندقيتي وزحفت إلى مربضي في نقطة في أعلى الموقع، إلى جانب الرشاش. كان الظلام حالكاً والضوضاء شيطانية. نيران أظن أن مصدرها خمس رشاشات كانت تنصب علينا، ترافقها بضعة انفجارات ثقيلة من القنابل التي يرميها الفاشيون من فوق استحكاماتهم بأغبى الطرق. ولشدة الظلام استطعت أن أميز في الوادي تحتنا وميضاً أخضر لنيران البنادق تطلقها زمرة صغيرة من الفاشيين ربما كانت هناك دورية. كانت الطلقات تتطاير من حولنا في الظلام. وجاء بضعة قنابل تئز وتصفر فوق رؤوسنا ولكنها لم تقع أبداً قريباً منا، وكالعادة في هذه الحرب وقع معظمها دون أن ينفجر. كان أصعب الأوقات حين أخذ رشاش آخر يطلق نيرانه، لكن من ورائنا من قمة التل خلفنا، وهو في الواقع رشاش جُلب ليدعمنا، لكن الأمر بدا في حينه كأننا حوصرنا. وبعد قليل استعصى رشاشنا لسوء تلك الذخيرة، وضاع قضيب التنظيف في الظلام الدامس. فلم يعد بالإمكان عمل أي شيء سوى أن نقبع ساكنين ونبقى عرضة للنار. كان الإسبان يأنفون من الاحتماء، بل يظهرون للنار قصداً، وقد اضطررت لتقليدهم. وبالرغم من تفاهة تلك الحادثة فإن التجربة إجمالاً كانت مثيرة، فهي المرة الأولى التي كنت فيها تحت النار بمعنى الكلمة، وبكل خجل وجدت أنني كنت شديد الارتياع. وقد لاحظت أنك تظل هكذا دائماً تحت النار الشديدة، لالخوفك من أن تصاب، بل لعدم معرفتك *أين ستصاب*. تظل طول الوقت تتساءل أين ستقع الرصاصة فيك. وهذا يثير في جسدك كله إحساساً غير مستحب.

وخلال حوالي الساعتين تباطأ إطلاق النار ثم توقف. ولم نمنَ إلا بإصابة واحدة. كان الفاشيون قد تقدموا برشاشين إلى المنطقة الفاصلة، لكنهم حافظوا على مسافة مأمونة لهم ولم يحاولوا اقتحام الاستحكامات. والواقع أنهم لم يكونوا حتى يهاجمون، كانوا يهدرون الذخيرة، ويثيرون الضوضاء ابتهاجاً بسقوط مالاقا. الأهمية الرئيسة للحادثة أنها علمتني أن أقرأ أخبار الحرب في الجرائد بعين مكذبة. فبعد يوم أو يومين طلعت الجرائد والراديو بتقارير عن هجوم كاسح بالفرسان والدبابات (صعوداً في سفح عمودي!) صده الإنكليز الأشاوس. وحين أخبرنا الفاشيون بأن مالاقا قد سقطت اعتبرنا الخبر أكذوبة، لكن في اليوم التالي وردت إشاعات أوثق بهذا، ولم يصدر الاعتراف الرسمي به إلا بعد يومين آخرين. وبالتدريج تسربت أجزاء القصة الحقيقية المشينة، كيف أخليت المدينة بدون إطلاق رصاصة واحدة، وكيف أن غضب الطليان لم ينصب على العساكر، فهؤلاء قد مضوا، بل على السكان المدنيين البؤساء، الذين لوحق بعضهم وحصدوا بالرشاشات لمسافة مائة ميل. وقد سرَت الرعدة لهذه الأخبار في أوصال كل من كان على خطوط الجبهة، لأنه، ومهما كانت الأحداث الحقيقية، كان كل رجل ميليشيا يعتقد بقوة أن سقوط مالاقا كان راجعاً للخيانة. وهذا أول حديث عن الخيانة أسمعه، وعن الأهداف المزدوجة. وقد ألقت في ذهني أولى بذور الشكوك الغامضة في هذه الحرب التي كانت، حتى الآن، تمتاز بوضوح الحق والباطل فيها وضوحاً بسيطاً جميلاً.

في منتصف فبراير غادرنا جبل أوسكورو، وأُرسلنا مع كل الجنود التابعين لمنظمتنا الشعبية الـ P.O.U.M في القطاع، لنكون جزءاً من الجيش الذي يحاصر مدينة هويسكا. كانت رحلة بالشاحنات لخمسين ميلاً من السهل الشاتي، حيث كانت الكروم المقلّمة لم تنبت بها البراعم بعد، وأوراق الشعير الشتوي لم تكد تظهر فوق الأرض الموحلة. على بعد أربعة كيلومترات من خنادقنا الجديدة كانت هويسكا

تتلألأ بعيدة واضحة مثل مدينة بيوت الدمى المصغرة قبل عدة شهور، حين أُخذت سيبيتامو صرح الجنرال قائد القوات الحكومية بمرح: «قهوتنا غداً في هويسكا». وقد تبيّن أنه كان مخطئاً. وبالرغم من أعمال الهجوم الدموية العديدة لم تسقط المدينة، وعبارة «قهوتنا غداً في هويسكا». أصبحت نكتة سائدة في الجيش كله يتداولها الجنود. فإذا قيّضَ لي أن أعود إلى إسبانيا فسأسعى إلى تناول فنجان من القهوة في هويسكا..

٥
الجانب السياسي وفرقاء الحرب الإسبانية

على الجانب الشرقي من هويسكا وحتى أواخر مارس لم يحدث شيء ، أي شيء البتة. كنا على بعد ألف ومائتي متر من العدو. وحين سيق الفاشيون حتى هويسكا لم يكن الجنود الجمهوريون الذين عسكروا في هذا الجزء من الجبهة شديدي العزم في تقدمهم، فأصبحت الخطوط أشبه بالجيب الذي كان لابد بعدئذ من توسعته قُدماً - وهو عمل مضن تحت النار - لكن الآن، كان العدو وكأنه غير موجود، وكان شغلنا الشاغل هو استمرار تدفئة أنفسنا والحصول على مايكفي من الطعام. الحقّ أن ثمة في تلك الفترة ماأثار اهتمامي كثيراً، وسأتحدث عنه في وقت لاحق. أما الآن فسأحاول بسط الوضع السياسي الداخلي من الجانب الحكومي.

في البداية لم أهتم كثيراً بالجانب السياسي من الحرب، وهو لم يفرض نفسه عليّ إلا في حوالي المدّة التي نتحدث عنها الآن. فإذا لم تكن ممن يهتمون بفظائع السياسات الحزبية فلك أن تهمل باقي الفصل.

ولقد جعلت الأقسام السياسية من هذه الحكاية في فصول مستقلة لهذا الغرض بالذات. مع هذا يبدو من المستحيل الكتابة عن الحرب الإسبانية من الناحية العسكرية المحض، فقد كانت فوق كل شيء حرباً سياسية. وليس من حادثة فيها، على الأقل خلال السنة الأولى من مجرياتها، يمكن فهمها إلا إذا كان لدى المرء فكرة عن الاصطراع الذي كان يجري بين الأحزاب وراء الخطوط الحكومية.

حين وصلت إلى إسبانيا، وإلى مضيّ فترة من الوقت بعدها، لم أكن فقط غير مهتم بالوضع السياسي، بل وكنت أيضاً على غير اطلاع عليه. كنت أعرف بوجود حرب هناك جارية. لكن لم يكن لدي فكرة عن أي نوع من الحرب كانت. ولو سألتني لماذا إذن انضممت إلى الميليشيا لأجبتك: «لمحاربة الفاشيّة»، ولو سألتني عما أحارب من أجله لأجبتك: «الكرامة العمومية». كنت قد تقبلت النص الذي أذاعته جريدتا ***النيوز كرونيكل - والنيو ستيتسمان*** بأن الحرب كانت دفاعاً عن الحضارة ضد هجوم همجي لجيش الكولونيل بليمبز الذي يموله هتلر. وقد أثر فيّ مناخ برشلونة الثوري تأثيراً عميقاً، لكنني لم أقم بأية محاولة لتفهّمه. أما عن قوس قزح الذي كانت تؤلفه الأحزاب السياسية والنقابات العمالية، بأسمائها وألقابها المتعبة: P.S.U.C., P.O.U.M., F.A.I., C.N.T., U.G.T., JCI, J.S.U., A.I.T - فإنه لم يزد على أنه أسخطني. بدا للوهلة الأولى أن إسبانيا مصابة بوباء الحروف الأولى. كنت أعرف أنني أنتمي إلى شيء ملقب بالـ P.O.U.M. (لم أنضم إليها بالتخصيص دون غيرها من الميليشيات إلا لأنه حصل أنني وصلت برشلونة بأوراق من الـ I.L.P [الحركة العمالية الدولية])، لكنني لم ألاحظ أنه كان ثمة فروقات خطرة بين الأحزاب السياسية. وفي جبل بوشيرو، حين أشاروا إلى الموقع إلى يسارنا وقالوا «بئس هؤلاء الاشتراكيون» (ويقصدون الـ .P.S.U.C) تحيرت، وتساءلت: «ألسنا جميعاً اشتراكيين؟» كنت أظن من الغباء أن ينضوي الناس الذين يحاربون من أجل حياتهم تحت أحزاب متفرقة. موقفي كان دائماً: «لم لاننبذ هذا الهراء السياسي ونتابع الحرب؟» وكان هذا بالطبع الموقف الصحيح المعادي للفاشية الذي كانت تدأب الصحف البريطانية في نشره. لكن لكي تمنع الناس من التقاط الطبيعة الحقيقية لذلك الصراع. لكنه موقف لايستطيع أحد في إسبانيا، وخصوصاً في كاتالونيا، أن يحافظ عليه طويلاً. الجميع، شاءوا أم أبوا، كانوا ينحازون إلى أحد الجوانب عاجلاً أم آجلاً. إذ حتى لو لم يبال المرء بالأحزاب السياسية أو «بخطوطها

العقائدية» المتنازعة، فالواضح له أن مصيره بالذات مربوط بها. والمرء، حين يكون من الميليشيا يكون جنديّاً معادياً لفرانكو، لكنه يكون أيضاً بيدقاً في يد الصراع العميق الذي يجري بين النظريات السياسية. وحين كنت أفتش عن أحطاب الوقود على سفوح الجبل كنت أتساءل هل هذه هي الحرب حقاً، أم أنها اختلقتها جريدة *النيوز كرونيكل*. وحين كنت أتدارى من الرشاشات الشيوعية أثناء حوادث الشغب في برشلونة، وأخيراً حين نزحت من إسبانيا والبوليس على بعد خطوة يلاحقني – وكل هذه الأحداث حصلت لأنني كنت أخدم في الـ P.O.U.M. لا في الـ P.S.U.C. ، فالفرق كان واسعاً بين هذين الطاقمين من الحروف الابتدائية!

ولفهم التراتب على الجانب الحكومي لابد للمرء من تذكر كيف بدأت الحرب. فحين اندلعت المعارك في ١٨ يوليو يحتمل أن يكون كل معادٍ للفاشيّة في أوروبا شعر بالأمل ينتعش فيه. إذ هاهي أخيراً إحدى الديمقراطيات تجابه الفاشيّة في أوروبا. فخلال السنين الطويلة الماضية ظل مايدعى بالبلاد الديمقراطية يتهاوى أمام المد الفاشيّ في كل خطوة. وقد فُسح المجال لليابانيين يفعلون بمنشوريا مايشاؤون. وتقدم هتلر حتى تسلّم السلطة وأخذ في إبادة معارضيه السياسيين من كل الألوان. موسوليني قصف الحبشة بينما ثلاثة وخمسون قطراً (أظن أنهم كانوا ثلاثة وخمسين) لم يُصدروا إلا بعض الضجيج الخفيف. أما حين حاول فرانكو قلب الحكومة الشعبية في إسبانيا، وهي اليسارية باعتدال، فقد اتحدت، وبعكس كل التوقعات، في وجهه. لقد بدا حينئذ – وربما كان هذا حقاً – أن المد بدأ ينحسر.

لكن ثمة عدة نقاط لم تُلحظ عموماً. ونبدأ بأن فرانكو لم يكن يمكن بالضبط مقارنته بهتلر أو بموسوليني. صعوده كان بتمرد عسكري تدعمه الأرستقراطية والكنيسة. ولم يكن همه الرئيس، على الأقل في البداية، فرض النظام الفاشيّ بقدر ماكان إعادة الإقطاعية. وهذا أدى إلى أن فرانكو لم يكسب عداء الطبقة العاملة

وحدها بل ومعها قطاعات متنوعة من البرجوازية الليبرالية - فهؤلاء بالذات أشد دعائم الفاشية حين تتخذ مظهر الحداثة. والأهم من هذا واقعة أن الطبقة العاملة الإسبانية لم تعارض فرانكو، كما كنا في بريطانيا نفعل لو حصل هذا، باسم الديمقراطية أو باسم المحافظة على الأوضاع القائمة *status quo* ؛ لقد صاحب معارضتَهم، إن لم نقل ألّف جزءاً جوهرياً منها، انفجار ثوري محدد واضح. الأراضي صادرها الفلاحون، والكنائس هدمت والكهنة طردوا أو قتلوا. فأصبح باستطاعة جريدة *الديلي ميل*، يدعمها الكاثوليك أن تصور فرانكو بالوطني المخلّص بلدَه من جحافل «الحمر» الأبالسة.

وقد ظلت الحرب بضعة شهور لم يكن خصيم فرانكو الحقيقي خلالها الحكومةَ بقدر ماكان النقابات العمالية. فما إن اندلع التمرد [فرانكو] حتى رد عمال المدن النقابيون بالدعوة إلى الإضراب العام ثم بالمطالبة بالسلاح - وبعد لأي بالحصول عليه- من الترسانة العامة. ولو لم يثوروا طوعاً، ومن أنفسهم لدرجة تزيد أو تقل، فمن المعقول تماماً ألا يكون فرانكو قد واجه أية مقاومة. لايمكن طبعاً الوصول إلى اليقين بهذا، لكن ثمة أسباب مقبولة للاعتقاد به. الحكومة لم تقم إلا بالقليل لمنع حصول التمرد العسكري، الذي كان متوقعاً منذ طويل، وحين اندلعت الاضطرابات كانت مواقفها مترددة وضعيفة لدرجة أن إسبانيا شهدت تبدّل ثلاثة رؤساء للحكومة في يوم واحد(*) يضاف إلى هذا أن الخطوة الوحيدة التي كان يمكن أن تنقذ الوضع، وهي توزيع السلاح على العمال، لم تتخذ إلا على مضض. واستجابة لمطالبة شعبية صاخبة. الحاصل أن السلاح وُزّع. واندحر الفاشيون في المدن الكبرى شرقي إسبانيا بعد جهد كبير بفضل الطبقة العاملة أولاً، مع مساعدة بعض القوات المسلحة (حرس

(*) Quiroga, و Barrios, و Giral كويروجا وباريوس وجيرال. والأول واالثاني رفضا توزيع السلاح على أعضاء النقابات. [ملاحظة المؤلف]

المداهمة، وغيره) التي بقيت موالية. لقد كان نضالاً من النوع الذي لايتأتّى إلا للّذين يحاربون بنوايا ثورية - أي آمنَت بأنها إنما تقاتل لإحراز شيء يختلف عن الحالة القائمة. وفي مختلف مراكز الثورة يُظن بأن ثلاثة آلاف قتيل سقطوا في الشوارع في يوم واحد. رجال ونساء سلاحهم العصي وأصابع الديناميت اندفعوا إلى الساحات المكشوفة واكتسحوا بعض المباني التي يحتلها جنود مدربون ومسلحون بالرشاشات. وقد جرى احتلال أعشاش الرشاشات المقامة في الأماكن الاستراتيجية بالاندفاع نحوها بسيارات التاكسي بسرعة ستين ميلا في الساعة. وحتى إن لم يكن المرء سمع بمصادرة الفلاحين للأرض، ولا بإقامة التعاونيات (السوفياتات) المحلية، الخ، فإنه يصعب عليه التصديق بأن الأناركيين والاشتراكيين الذين كانوا عماد المقاومة فعلوا هذا للحفاظ على الديمقراطية الرأسمالية التي لاتزيد، برأي الأناركيين خاصة، عن آلة مركزية للغش والخداع.

على كل حال أصبح السلاح في أيدي العمال الآن، وهم يرفضون في هذه المرحلة التخلي عنه. (حتى بعد سنة قدّر عدد البنادق الأناركو-نقابية في كاتالونيا بثلاثين ألفاً) القصور الريفية للكثير من كبار الإقطاعيين مؤيدي الفاشيّة في كثير من الأماكن استولى عليها الفلاحون. ونظمت الصناعة والنقل على شكل تعاونيات. وجرت محاولات لإقامة بداية أولية لحكومة عمال من اللجان المحلية، ودوريات عمالية بدلاً من قوة الشرطة القديمة الميالة إلى الفاشيّة، وميليشيات عمالية من الأعضاء النقابيين. طبعاً لم تكن هذه العملية واحدة في كل الأماكن، فقد طبقت في كاتالونيا إلى أبعد من غيرها. وفي مناطق أخرى ظلت مؤسسات الحكم المحلي على حالها. وأخرى ظلت فيها قائمة إلى جانب اللجان الثورية. وفي بضعة أماكن أقيمت كوميونات أناركية، بعضها ظل قائماً سنة كاملة، إلى أن أزالته الحكومة بالقوة. في كاتالونيا وفي بضعة الشهور الأولى ظل معظم القوة الحقيقية في أيدي النقابات الأناركية التي سيطرت على معظم الصناعات الرئيسة. إذن ماحصل في إسبانيا لم

يكن في الواقع حرباً أهلية، بل بدايات ثورة. هذه الواقعة هي التي جعل المعادون للفاشية خارج إسبانيا إخفاءها شغلَهم الشاغل. أصبح الخلاف عندهم مقتصراً على شعار "الفاشية مقابل الديمقراطية" وأخفوا الجانب الثوري بقدر ما أمكنهم. وفي انجلترا، حيث الصحافة أكثر تركيزاً والجمهور أسهل انخداعاً من البلاد الأخرى، لاتجد إلا روايتين لمجريات الحرب الإسبانية قيد التداول: رواية جناح اليمين عن الوطنيين المسيحيين والبولشفيك (سفاكي الدماء)، ورواية الجناح اليساري عن الجمهوريين النبلاء يخمدون تمرداً عسكريّاً. لاذكر للخلاف الجوهري.

ولهذا أسباب عديدة. بدايةً جرى في الصحافة المؤيدة للفاشية نشر أكاذيب مقرفة عن الفظائع، أما الإعلاميون حسنو النية فظنوا أنهم كانوا يساعدون الحكومة الإسبانية حين أنكروا أن إسبانيا قد «أصبحت حمراء». لكن السبب الرئيسي لهذا هو: إنه، فيما عدا جماعات صغيرة من الثوريين الموجودين في جميع البلدان، صمّم العالم أجمع على إخماد الثورة في إسبانيا. الحزب الشيوعي على وجه الخصوص، مدعوماً من روسيا السوفييتية، ألقى بوزنه كله ضد الثورة. وكان الزعم الشيوعي أن الثورة في هذه المرحلة مَهلَكة، وأن مايجب السعي له في إسبانيا ليس حكم العمال بل البورجوازية الديمقراطية. أما اتخاذ الرأي الرأسمالي «الليبرالي» نفس الاتجاه فليس من حاجة لشرح سببه. رأس المال الأجنبي كان قد انصبّ بغزارة في إسبانيا. شركة الجَر البرشلونية مثلاً كانت تمثل عشرة ملايين من الرأسمال الإنكليزي؛ بينما صادرت النقابات العمالية كل وسائل النقل في كاتالونيا. فإذا ترسخت الثورة فلن يكون هناك أي تعويض، أو القليل منه. أما إذا انتصرت الجمهورية الرأسمالية فستظل الاستثمارات الأجنبية آمنة. وبما أن القضاء على الثورة في النهاية أمر مؤكد، فمما يسهّل الأمور كثيراً الزعم بأنه لم تحدث هناك بالأساس ثورة. بهذه الطريقة يمكن تبيان مغزى كل حادثة حدثت؛ كل نقل للسلطات من النقابات العمالية إلى الحكومة المركزية يمكن تمثيله كخطوة ضرورية لإعادة التشكيل العسكري. أصبح

الوضع الناتج غريباً في تطرفه. في خارج إسبانيا لم يدرك إلا القليل من الناس بأنه كانت هناك ثورة، وفي الداخل لم يشكّ في هذا أحد! حتى صحف الـ P.S.U.C ، التي يسيطر عليها الشيوعيون، والتي كانت لدرجة تقل أو تكثر ملتزمة بالسياسة المعارضة للثورة، كانت تتحدث عن 'ثورتنا المجيدة'. بينما الجرائد الشيوعية في الأقطار الأجنبية تنادي بأن ليس ثمة من دلائل على الثورة في أي مكان؛ أما مصادرة المعامل، وأما إقامة اللجان العمالية، الخ.. فأمور لم تحدث إطلاقاً - أو، إن شئتم، حدثت لكنها 'عارية عن الأهمية السياسية' - وبحسب جريدة *الديلي ووركر* (٦ أغسطس ١٩٣٦) إن الذين يقولون إن الشعب الإسباني يحارب من أجل الثورة الاجتماعية، أو لأي شيء خلاف الديمقراطية البورجوازية، ليسوا إلا «أنذالاً مفتَرين». بينما من الناحية الأخرى، صرح خوان لوبيز، عضو حكومة فالنسيا، في فبراير ١٩٣٧ بأن «الشعب الإسباني يبذل دماءه لامن أجل الجمهورية الديمقراطية ودستورها الورقي، بل من أجل ... الثورة». فكأن من الأنذال المفترين أعضاءً من الحكومة التي يفترض أننا نحارب من أجلها. وبعض الصحف الأجنبية المعادية للفاشية انحدرت إلى هاوية الادعاء بأن الكنائس لم تهاجَم إلا حين اتُخذت كتحصينات للفاشية. والواقع أن الكنائس نهبت في كل مكان، وبطبيعة الأمور، لأن الكنيسة الإسبانية، كما هو معلوم تماماً ، جزء من الأدوات الرأسمالية. وخلال ستة أشهر في إسبانيا لم أصادف إلا كنيستين غير مهدمتين. وحتى يوليو من سنة ١٩٣٧ لم يسمح لأي كنيسة بالعمل والخدمة، إلا لكنيسة بروتستانية أو اثنتين في مدريد.

على أية حال، لم تكن تلك إلا بداية ثورة، ولم تكن الشيء الكامل ذاته. وحتى حين كان العمال، في كاتالونيا وربما في أمكنة أخرى أيضاً، قادرين على قلب الحكومة والإتيان بغيرها من عندهم فإنهم لم يفعلوا هذا. وطبعاً لم يكونوا ليفعلوا هذا حين كان فرانكو يطرق الأبواب وبعض قطاعات الطبقة الوسطى كانت إلى جانبهم. كانت البلاد في حالة انتقالية يمكن أن تتحول إما باتجاه الاشتراكية، أو تنقلب

لتصبح جمهورية رأسمالية عادية. أصبح لدى الفلاحين معظم الأراضي، والاحتمال كبير في بقائها لهم، إلا إذا فاز فرانكو؛ وكل الصناعات الكبرى أصبحت تعاونية، ولكن بقاءها تعاونية أو إعادة إقامة الرأسمالية يعتمد في النهاية على الجانب المنتصر الذي يتسلم المقاليد. في البداية كان يمكن وصف الحكومتين، المركزية وعمومية كاتالونيا (حكومة الكاتالان شبه المستقلة) [الجنراليتا]، بأنهما تمثلان الطبقة العاملة. الحكومة كان يرئسها كاباللِيرو [تلفظ كابايِيرو]، وهو اشتراكي يساري، وضمّت وزراء يمثلون .U.G.T (اتحاد النقابات الاشتراكية) والـ C.N.T (النقابات التي يسيطر عليها الأناركيون). أما الحكومة الكاتالانية العمومية فقد تخطّتها لفترة لجنة دفاعية معارضة للفاشيّة* تتألف بمعظمها من النقابات العمالية. وبعد مدة انحلت اللجنة الدفاعية وأعيد تشكيل الحكومة بحيث تمثل النقابات ومختلف الأحزاب اليسارية. لكن كان كل تعديل تالٍ لها يحرفها قليلاً نحو اليمين. جرى أولاً استبعاد الـ P.O.U.M [الماركسية الشعبية]؛ وبعد ستة شهور استُبدل كاباللِيرو بالاشتراكي اليميني نيجرين؛ وبعد قليل استبعدت الـ .C.N.T من الحكومة، ثم الـ .U.G.T ؛ ثم استبعدت الـ C.N.T من الحكومة المحلية العمومية (الجنراليتا)؛ وأخيراً، بعد سنة من اندلاع الحرب والثورة، كانت الحكومة تتألف بالكامل من الاشتراكيين اليمينيين، والليبراليين والشيوعيين.

الانحراف العام نحو اليمين يمكن تأريخه بحوالي أكتوبر ونوفمبر ١٩٣٦. حين بدأ الاتحاد السوفييتي يورد الأسلحة للحكومة، وبدأت القوة تتسرب من الأناركيين إلى الشيوعيين. ففيما عدا روسيا والمكسيك لم يكن لدى أي قطر الجرأة

---

* Comité Central de Milicias Antifascistas القيادة المركزية للميليشيات المعادية للفاشية. وكان المندوبون إليها ينتقون بنسبة عضوية منظماتهم. فكان تسعة يمثلون النقابات العمالية، وثلاثة يمثلون الأحزاب الليبرالية، واثنان للأحزاب الماركسية المختلفة(p.o.u.m والشيوعيين وغيرهم). المؤلف

للتقدم لإنقاذ الحكومة، أما المكسيك فلم يكن لديها القدرة على توريد الأسلحة بكميات كافية. فأصبحت روسيا بالنتيجة في موقف يمكّنها من إملاء شروطها. ولاشك أن هذه الشروط كانت في جوهرها: «عرقلوا الثورة وإلا لن تحصلوا على أسلحة». ولا في أن الخطوة الأولى ضد العناصر الثورية، وهي استبعاد الـ P.O.U.M من الحكومة الكاتالانية،كانت بضغط من الحكومة الروسية. وهذه النقطة ليس ذات أهمية كبرى، لأنه يمكن اعتبار الأحزاب الشيوعية في جميع الأقطار تنفذ السياسة الروسية، لم ينكر أحد أن الحزب الشيوعي كان المحرك الرئيس ضد الـ P.O.U.M وفي وقت تال ضد الأناركيين وضد جناح كابالليرو من الاشتراكيين. وعموماً ضد كل سياسة ثورية. وما إن تدخل الاتحاد السوفييتي حتى أصبح نجاح الحزب الشيوعي مضموناً. أولاً بسبب الامتنان لروسيا من أجل الأسلحة، ثم لواقعة أن الحزب الشيوعي بدا، خصوصاً بعد وصول الفرقة العسكرية الدولية، قادراً على كسب الحرب، فارتفعت منزلة الشيوعيين. ثانياً، كانت الأسلحة الروسية تورّد عن طريق الحزب الشيوعي والأحزاب المتحالفة معه، الذين عملوا مابوسعهم على أن لايقع منه إلا أقل القليل في أيدي خصومهم السياسيين.[*] وثالثاً، استطاع الشيوعيون، بتبنيهم سياسة لاثورية، تجميع كل الذين خافوا من المتطرفين. كان من السهل مثلاً حشد أغنياء الفلاحين ضد السياسة التعاونية للأناركيين. هكذا تضخم عدد أعضاء الحزب، وكان التدفق غالباً من الطبقة الوسطى – أصحاب الحوانيت، الموظفين، ضباط الجيش، الفلاحين الميسورين، الخ. كانت الحرب في الجوهر صراعاً مثلث الجوانب. الحرب ضد فرانكو لابد من متابعتها، ثم كان للحكومة غرض موازٍ هو استعادة السلطة المتبقية في أيدي النقابات العمالية. تم هذا بسلسلة من الحركات

---

[*] وهذا هو السبب في قلة الأسلحة الروسية في جبهة الأراحون، حيث الجنود في غالبيتهم أناركيون. والسلاح الوحيد الذي رأيته حتى إبريل ١٩٣٧، باستثناء الطائرات التي قد تكون روسية أو لاتكون، هو رشاش خفيف وحيد. المؤلف

الصغيرة – سياسة الوخز بالإبر، كما أسماها بعضهم – وكانت في مجملها خطة ذكية. لم تحدث حركة معادية للثورة كلياً وعلى المكشوف، وحتى مايو ١٩٣٧ لم يضطر أحد إلى استعمال القوة. كان يمكن إركاع العمال بحجةٍ واضحة لاضرورة حتى للتذكير بها: «إذا لم تفعلوا هذا أو ذاك أو غيره، خسرنا الحرب». وفي كل الأحوال كان الشيء المطلوب هو التخلي عن كل شيء كان العمال كسبوه لأنفسهم سنة ١٩٣٦ . لكن الذريعة كانت مستحيلة الفشل، لأن خسارة الحرب كانت آخر شيء تريده الأحزاب الثورية؛ فإذا خسروا الحرب أصبحت الديموقراطية والثورة والاشتراكية والأناركية، كلمات لامعنى لها. وكان الأناركيون، وهم الحزب الثوري الوحيد الكبير بما فيه الكفاية، مضطرين للتراجع نقطةً بعد نقطة. توقفت عمليات التعاونيات،واللجان المحلية أزيلت، الدوريات العمالية ألغيت، وأعيدت أجهزة الشرطة القديمة، معزّزة ومسلحة أكمل تسليح. الصناعات الرئيسية المختلفة التي كانت تحت سيطرة النقابات العمالية استولت عليها الحكومة (استيلاء الحكومة في برشلونة على المقسم المركزي للهاتف، وما أدّى إليه من اشتباكات في مايو كان إحدى هذه الخطوات)؛ وأخيراً، وأهم من كل ماسبق، الميليشيات الشعبية القائمة على النقابات العمالية فُككت بالتدريج وأعيد توزيعها على الجيش الشعبي، وهو جيش «غير مُسيّس»، على الطراز شبه البورجوازي، وفيه نظام الرواتب المتفاوتة، وطائفة ضباط ذات امتيازات خاصة، الخ، الخ. في تلك الظروف كانت هذه هي بالفعل الخطوة الحاسمة. ولم تحدث في كاتالونيا إلا في آخر المطاف، فهناك كانت أحزاب الثورة أقوى ماتكون. الواضح أنه لكي يضمن العمال الحفاظ على مكتسباتهم لابد لهم من الاحتفاظ بقوات مسلحة تتبعهم مباشرة. وكالعادة، جرت تصفية الميليشيات بحجة الكفاءة العسكرية؛ ولا أحد ينكر أن الحاجة كانت ماسة إلى تنظيم عسكري شامل جديد. لكن كان يمكن إعادة تنظيم الميليشيات وجعلها أكثر كفاءة مع إبقائها تحت السيطرة المباشرة للنقابات العمالية؛ لكن السبب الرئيسي

للتغيير كان بالأساس منع الأناركيين من أن يكون لهم جيش خاص بهم. وفوق هذا فإن الروح الديمقراطية الحقيقية لدى الميليشيات جعلتها مركزاً لتفريخ الأفكار الثورية. والشيوعيون كانو يدركون هذا تماماً، فوقفوا بشدة ضد الميليشيات الأناركية، الـ P.O.U.M وضد المبدأ الأناركي في الراتب الموحد لجميع الرتب. فالذي كان يحدث هو «برْجَزة عامة» وتحطيم متعمد لروح المساواة التي نشأت في الشهور الأولى من الثورة. وقد حصلت هذه الأحداث بسرعة شديدة جعلت الأجانب الذي قاموا بزيارات متتالية لإسبانيا كل بضعة شهور يعلنون بأنهم لايصدقون كل مرة أنهم يزورون البلد نفسه. وما كان يبدو في الظاهر وللحظة سريعة أنه دولة عمالية كان يتغير أمام ناظري المرء إلى جمهورية بورجوازية عادية مقسمة كالعادة بين الأغنياء والفقراء.

بحلول خريف ١٩٣٧ كان (الاشتراكي) نيجرين يعلن في خطبه العامة «نحن نحترم الملكية الخاصة»، وأخذ أعضاء الكورتيز الذين فروا من البلاد في بداية الحرب للاشتباه بتعاطفهم مع الفاشية، يعودون إلى إسبانيا.

يسهل فهم العملية بكاملها إذا ذكر المرء أنها تنطلق من التحالف الموقت الذي تفرضه الفاشية، بصور معينة، بين البورجوازي والعامل. التحالف، المعروف بالجبهة الشعبية، هو في الجوهر حلف بين أعداء، ويبدو أنه لابد ينتهي دائماً بأحد الشركاء مبتلعاً الباقين. الظاهرة المفاجئة في الوضع الإسباني – وقد كان سبباً للكثير من سوء الفهم خارج إسبانياً – هو أنه، من بين الفرقاء على الجانب الحكومي، كان الشيوعيون لايقفون إلى أقصى اليسار بل إلى أقصى اليمين. وفي الحقيقة لايجب أن يفاجئ هذا أحداً، لأن تكتيكات الحزب الشيوعي في الأماكن الأخرى، خصوصاً في فرنسا، أوضحت بجلاء أن الشيوعية الرسمية يجب اعتبارها، على الأقل في الوقت الحاضر، قوة مضادة للثورة. وكل سياسة الكومنتيرن هي الآن مكرسة (ويمكن تبرير هذا بالنظر إلى الوضع العالمي الراهن) للدفاع عن الاتحاد السوفييتي، الذي يعتمد

على منظومة من التحالفات العسكرية. والاتحاد السوفياتي متحالف على وجه الخصوص مع فرنسا. البلد الرأسمالي- الإمبريالي، هذا الحلف لايفيد روسيا إلا إذا ظلت الرأسمالية الفرنسية قوية معافاة. وعلى هذا لابد من أن تكون السياسة الشيوعية في فرنسا معادية للثورية. وهذا لايعني فقط أن الشيوعيين الفرنسيين ينضوون في المسيرة وراء الراية المثلثة، ويُنشدون المارسيليز، بل الأهم من هذا أنه عليهم التخلي عن كل إثارة في المستعمرات الفرنسية. لم تمض ثلاث سنوات على تصريح ثوريز، سكرتير الحزب الشيوعي الفرنسي بأن العمال الفرنسيين لن يتورطوا في القتال ضد رفاقهم الألمان.* وهو الآن واحد من أعلى الوطنيين صياحاً في فرنساً. الدليل على سلوك الحزب الشيوعي في أي قطر هو العلاقات العسكرية، الفعلية أو الممكنة، لذلك القطر مع الاتحاد السوفياتي. ففي إنكلترا مثلاً ، مازال الوضع غير مؤكد، لذا مايزال الحزب الشيوعي الإنكليزي معارضاً للحكومة الوطنية. وظاهريّاً معاد للتسلح من جديد. لكن إذا دخلت بريطانيا العظمى في تحالف أو تفاهم عسكري مع الاتحاد السوفييتي، يصبح الشيوعيون الإنكليز مثل الشيوعيين الفرنسيس ، لاخيار لهم إلا أن يكونوا وطنيين جيدين وإمبرياليين، وثم دلائل أولية تدل على هذا. في إسبانيا الواضح أن «الخط» الشيوعي تأثر بواقعة أن فرنسا، حليفة روسيا، لاشك سوف تعارض بشدة وجود جار ثوري على أبوابها، كما ستثير الجحيم لمنع تحرير مراكش الإسبانية. وجريدة الديلي ميل، بأقاصيصها عن الثورة الحمراء الممولة من روسيا، كانت على خطأ أكبر من المعتاد. فالواقع هو أن الشيوعيين، قبل الجميع هم الذين أعاقوا الثورة في إسبانيا. وفي وقتٍ تالٍ، حين أصبحت القوى اليمينية مسيطرة تماماً، بدا من الشيوعيين عزم وتصميم أشد من الليبراليين في اصطياد القادة الثوريين**.

---

* في مجلس النواب، مارس ١٩٣٥. المؤلف

** من أجل تفصيل التفاعل بين فرقاء الجانب الحكومي انظر كتاب Franz Borkenau *The Spanish Cockpit* فهو أقدر الكتب التي صدرت عن الحرب الإسبانية. المؤلف

لقد حاولت أن أرسم المجريات العامة للثورة الإسبانية خلال السنة الأولى، لأن هذا يسهّل فهم الوضع في أية فترة معينة. لكنني لاأقصد أنني كنت في فبراير أعتنق نفس الأفكار التي بسطتها أعلاه. مبدئياً الأمور التي أنارت بصيرتي لم تكن حصلت بعد. وفي كل الأحوال كان تعاطفي يختلف عما هو عليه الآن. ويعود جزء من هذا إلى أن الجانب السياسي من الحرب لم يكن أثار سخطي، وقد رددت طبعاً على وجهة النظر التي سمعتها أكثر من غيرها، - أي وجهة نظر الـ .P.O.U.M والإنكليز الذين كنت معهم كان معظمهم أعضاء في الـ .I.L.P [حزب العمال] بينهم بضعة من أعضاء الـ .C.P. [حزب المحافظين] معظمهم تلقى تعليماً سياسيًا أحسن مني. وخلال العطل وأثناء الفترات الراكدة إذ لم يكن يحدث شيء ذو بال حول هويسكا، كنت أجدني في خضم مناقشة سياسية لاتنتهي فعلاً. ففي مأوانا، حظيرة البيت الريفي الخاوية ورائحة العفونة تملؤها، وفي ظلام الخنادق والكهوف الكثيف، ووراء المتاريس في ساعات منتصف الليل القارسة، كانت الخطوط «الحزبية» المتعارضة تصطرع مراراً وتكراراً. والأمر نفسه مع الإسبان، ومعظم الجرائد التي وقعت في أيدينا كانت تجعل الصراع الداخلي بين الفرقاء موضوعها الرئيس. فلم يكن إلا الأصم والأبله يخرج من هذه البيئة دون أن يأخذ فكرة عن مواقف مختلف الأحزاب والأطراف.

من ناحية السياسة النظرية لم يكن ثم إلا ثلاثة أطراف مهمة، الـ P.S.U.C، والـ .P.O.U.M ، والـ C.N.T.-F.A.I المعروفة باسم فضفاض هو الأناركيون.. وأبدأ بالـ .P.S.U.C لأنها الأهم، وهي الفريق الذي انتصر أخيراً، وحتى الآن مازال في صعود.

لابد من الإيضاح بأن الحديث عن «خط» الـ .P.S.U.C يعني - «خط» الحزب الشيوعي. والكلمة تعني (Partido Socialista Unificado de Cataluña)

(الحزب الاشتراكي الموحد في كاتالونيا)، وقد تألّف في بداية الحرب بدمج مختلف الأحزاب الماركسية بما فيها الحزب الشيوعي، لكنه أصبح تحت سيطرة الشيوعيين تماماً ومنضماً إلى الأممية (الدولية) الثالثة. أما في باقي نواحي إسبانيا فلم يحدث اتحاد بين الاشتراكيين والشيوعيين، لكن وجهة النظر الشيوعية وتلك الاشتراكية-اليمينية يمكن عدها واحدة في جميع الأنحاء. أما الـ .P.S.U.C فهي الذراع السياسي للـ .U.G.T وهي (Unión General de Trabajadores) (الاتحاد العام للنقابات الاشتراكية). وعضوية هذه النقابات في جميع أنحاء إسبانيا الآن تصل إلى مليون ونصف. وكانت تضم فروعاً كثيرة من عمال الصناعات اليدوية، لكن منذ اندلاع الحرب تضخمت هي أيضاً بتدفق الأعضاء من الطبقة الوسطى، لأن الناس تبينوا، منذ أوائل الأيام «الثورية» أن من المفيد الانضمام إلى .U.G.T أو إلى C.N.T . فحصل تداخل بين هاتين الكتلتين من النقابات، لكن ظلت الـ C.N.T أقرب إلى الطبقة العمالية من الأخرى. كما إن الـ .P.S.U.C هو حزب خليط من العمال والبورجوازية الصغيرة - أصحاب الحوانيت، الموظفين، والفلاحين الميسورين نوعاً ما.

وأما 'خط' الـ .P.S.U.C الذي كان يُدعى إليه في الصحافة المؤيدة للشيوعية في أرجاء العالم، فهو تقريباً كما يلي:

«في الوقت الحاضر لاشيء يهم إلا كسب الحرب، فبدون الانتصار في الحرب يبقى الكل بلا معنى. وعلى هذا فليس الآن وقت الحديث عن الاندفاع قدماً في الثورة. ليس بإمكاننا الآن تنفير الفلاحين بفرض التعاونيات عليهم، وليس بإمكاننا تحمل إخافة الطبقات الوسطى التي كانت تحارب إلى جانبنا. وفوق كل شيء علينا، طلباً للكفاءة، أن نقضي على الفوضى الثورية. ولابد لنا من إقامة حكومة مركزية قوية بدلاً من اللجان المحلية، ولابد من أن يكون لدينا جيش منضبط عالي التدريب تحت قيادة موحدة. أما التمسك بتحكم شراذم من

العمال، وبالترديد الببغاوي للعبارات الثورية فهو أسوأ من عدم الفائدة؛ إنه ليس فقط معيقاً، بل هو مضاد للثورة، لأنه يؤدي إلى الانقسام والفرقة وما يمكن استغلاله ضدنا من قبل الفاشيين. في هذه المرحلة لانحارب من أجل ديكتاتورية البروليتاريا، بل من أجل الديموقراطية البرلمانية. وكل من يحاول قلب الحرب الأهلية إلى ثورة اشتراكية أو اجتماعية يكون لعبة في أيدي الفاشيين، فيكون بالنتيجة، ولو بدون قصد، خائناً».

وأما «خط» الـ .P.O.U.M فكان يختلف عن هذا في كل نقطة، إلا طبعاً في ضرورة كسب الحرب. فالـ .P.O.U.M وهي (Partido Obrero de Unificación Marxista) كان من تلك الأحزاب الشيوعية المنشقة التي ظهرت في كثير من البلدان في بضع السنوات الأخيرة نتيجة لمعارضة الستالينية ؛ أي ضد التغيير، الحقيقي أو الظاهري في السياسة الشيوعية. وقد تألفت جزئيّاً من أعضاء سابقين في الحزب الشيوعي والباقي من حزب أسبق هو «كتلة العمال والفلاحين». كان من حيث العدد حزباً صغيراً* ونفوذه ليس كبيراً خارج كاتالونيا، وأهميته الرئيسة في أنه يضم نخبة كبيرة من الأعضاء الواعين سياسيّاً. وكانت قاعدته الرئيسة في كاتالونيا تتركز في ليريدا. وهو لم يمثل أي تكتل للنقابات العمالية. كان معظم أعضاء الـ .p.o.u.m أعضاء في الـ .c.n.t لكن الأعضاء الفعليين في الحزب كانوا ينتمون إلى الـ .u.g.t عموماً. فلم يكن للـ .p.o.u.m من نفوذ فعلي إلا داخل الـ .c.n.t وكان «خطه» يتلخص تقريباً فيما يلي:

---

* أرقام العضوية في الـــ p.o.u.m هي: يوليو ١٩٣٦ ؛ ١٠,٠٠٠؛ ديسمبر ١٩٣٦: ٧٠,٠٠٠؛ يونيو ١٩٣٧: ٤٠,٠٠٠؛ والمصدر هو الحركة ذاتها، ولو حصل تقدير من طرف معادٍ فلربما قسم العدد على أربعة. الشيء الوحيد الذي يستطيع المرء أن يقوله بالتأكيد عن الأحزاب السياسية الإسبانية هو أن كل حزب منها يبالغ في تقدير عدد أعضائه. المؤلف

«الحديث عن معارضة الفاشيّة بالـ"ديموقراطية" البورجوازية ليس إلا هراء. والـ"ديموقراطية" البورجوازية ليست إلا اسماً آخر للرأسمالية، وكذلك الفاشية؛ ومحاربة الفاشية لحساب "الديموقراطية" هو محاربة صورة من صور الرأسمالية لحساب صورة أخرى قابلة للانقلاب إلى الصورة الأولى كل لحظة. الخيار الوحيد المضاد للفاشية هو السلطة العمالية. فإذا وضعت نصب عينيك هدفاً يقل عن هذا، فإنك إما تسلّم الانتصار لفرانكو، أو في أحسن الأحوال تدخل الفاشية من الباب الخلفي. وفي هذه الأثناء يجب على العمال التمسك بكل شذرة مما كسبوه؛ فإذا تخلوا عن أي شيء للحكومة شبه-البورجوازية فعليهم أن يثقوا بأنهم سيكونون المخدوعين. ويجب الحفاظ على ميليشيات العمال وبوليسهم الخاص في صورها الحالية، ومقاومة كل محاولة "لبرْجَزَتها". وإذا لم يتحكم العمال بالقوى المسلحة، فإن القوى المسلحة ستتحكم بهم. والحرب والثورة لاينفصلان».

وجهة النظر الأناركية أصعب تحديداً. فالحد «أناركي» يستخدم ليغطي العديد من الناس بآراء مختلفة كثيراً. والكتلة الضخمة من النقابات التي تؤلف الـ C.N.T أي (Confederación Nacional de Trabajadores), [الاتحاد الوطني للنقابات العمالية] وأعضاؤه يعدون قرابة المليونين، لها ذراعها السياسي الـ F.A.I. (Federación Anarquista Ibérica), [الاتحاد الأناركي في إيبريا] وهو منظمة أناركية فعلية. لكن حتى أعضاء هذه المنظمة مضمخون بالفلسفة الأناركية تضميخاً، شأن كل الإسبان، وليسوا بالضرورة أناركيين بالمعنى الأدق. خصوصاً وأنهم منذ بداية الحرب تحولوا بالتدريج باتجاه الاشتراكية الاجتماعية العادية، لأن الظروف أجبرتهم على المساهمة في الإدارة المركزية وعلى التخلي عن مبادئهم عند الدخول في الحكومة. وبالرغم من هذا فقد كانوا يختلفون عن الشيوعيين من حيث أنهم. شأنَ الـ .P.O.U.M ، كانوا يهدفون إلى تسليم السلطة إلى العمال ، لاإلى برلمان

ديموقراطي. وقد وافقوا على شعار الـ .P.O.U.M : في أن «الحرب والثورة لاينفصلان»، لكنهم كانوا أقل تمسّكاً به.

إجمالاً، اعتقد الأناركيون (.C.N.T.-F.A.I) بما يلي:

(١) سيطرة العمال بأنفسهم مباشرة على كل صناعة كالنقل ومعامل النسيج، الخ.

(٢) الحكم باللجان المحلية، ومقاومة كل صور السلطات المركزية.

(٣) العداء المستحكم للبورجوازية والكنيسة.

والنقطة الأخيرة، بالرغم من أنها أقل النقاط تحديداً، إلا أنها أهمها. وقد كان الأناركيون معارضين لمعظم مايسمى بالحركات الثورية من ناحية أنهم، رغم عدم تحديد مبادئهم وغموضها ، كان مقتهم لكل امتياز أو ظلم حقيقيّاً وأصيلاً. **من الناحية الفلسفية كانت الشيوعية والأناركية قطبين لايجتمعان. أما من الناحية العملية – أي من ناحية صورة المجتمع التي كانا يهدفان إليها – فالفرق بينهما هو فرق في تقدير الأولويات، لكنه أيضاً لايمكن تسويته. مايهم الشيوعية هو دائماً المركزية والكفاءة، وما يهم الأناركية هو الحرية والمساواة.** وهي عميقة الجذور في إسبانيا ويحتمل أن تطول حياتها إلى مابعد الشيوعية، أي إلى مابعد انحسار النفوذ الروسي.

طوال الشهرين الأولين من الحرب كان الأناركيون هم الذين أنقذوا الموقف، ثم، وإلى مابعد هذا بطويل، ظلت الميليشيات الأناركية، رغم كل الفوضى وقلة الانضباط فيها، تضم خيرة المقاتلين بين القوى الإسبانية المحضة. ومن فبراير ١٩٣٧ فصاعداً كان يمكن للأناركيين والـ .P.O.U.M أن يجتمعا معاً إلى حد ما. ولو حدث أن اهتدى الأناركيون والـ .P.O.U.M إلى أن يتحدا منذ البداية وأن يفرضا سياسة واقعية، فلربما كان تاريخ الحرب الإسبانية اختلف تماماً. لكن في بداية الأحداث ،

وحين كان يبدو أن الأحزاب الثورية تمسك بيدها كل الأوراق، كان هذا مستحيلاً. فبين الأناركيين والاشتراكيين مماحكات قديمة، وكان الـ .P.O.U.M ، كماركسيين، يرتابون من الأناركيين، بينما، من الناحية الأناركية المحضة، فإن 'تروتسكية' هؤلاء الاشتراكيين، ليست أعلى من «ستالينية» الشيوعيين. وفوق هذا كانت التكتيكات الشيوعية تساهم في إبعاد هذين الفريقين واحدهما عن الآخر. لكن حين انضم الاشتراكيون (P.O.U.M) إلى المعركة الكارثة في برشلونة في مايو، كان الطرف الذي انحازوا إليه، وبالغريزة، الأناركيين (.C.N.T) ، وبعدئذ، حين قُمع الاشتراكيون (P.O.U.M) كان الأناركيون الأناس الوحيدين الذين اجترؤوا على رفع الصوت دفاعاً عنهم.

فإجمالاً كانت استقطابات القوى كما يلي : من جانب كانت الـ(-.C.N.T F.A.T) ، والـ (.P.O.U.M)، وقسم من الاشتراكيين، يقفون إلى جانب الحكم للعمال؛ ومن الجانب الآخر الاشتراكيون اليمينيون، والليبراليون والشيوعيون، يقفون إلى جانب الحكم المركزي والجيش العسكري المحترف.

من السهل معرفة السبب في أنني، في ذلك الوقت، فضّلت وجهة النظر الشيوعية على وجهة الماركسيين الكاتالان (.P.O.U.M). كان للشيوعيين سياسة عملية محددة، واضح أنها أفضل من ناحية التعقل، لاتتطلع إلا إلى بضعة شهور مقبلة. بينما كانت السياسة اليومية للـ (.P.O.U.M)، دعاياتهم وما إلى ذلك كانت مقيتة بما يفوق الوصف. ولا شك أن هذا ما منعها من اجتذاب أتباع أكثر عدداً. وما حسم موقفي تلك الأيام، مابدا لي من أن الشيوعيين كانوا يتابعون الحرب فعلاً، بينما ظللنا والأناركيين نتوقف ساكنين. وكان هذا هو الشعور العام تلك الأيام. وقد كسب الشيوعيون السلطة وعدداً كبيراً من الأتباع بجذب الطبقات الوسطى ضد الثوريين، ولأنهم أيضاً كانوا أقدر الناس في الظاهر على كسب الحرب. وأدت

الأسلحة الروسية والدفاع المجيد عن مدريد بالجيش الذي كان تحت سيطرة الشيوعيين عموماً إلى جعلهم أبطال الساعة في إسبانيا. وكما قال بعضهم: كل طيارة روسية تطير فوق الرؤوس كانت دعاية شيوعية. أما الأصولية الثورية النقية عند الـ (P.O.U.M.)، [ماركسيين]، بالرغم من تقديري لمنطقها، فقد بدت لي لاطائل تحتها. فبعد كل شيء، لاشيء يهم بقدر كسب الحرب.

وفي هذه الأثناء كان الصراع الداخلي الشيطاني بين الأحزاب يجري أيضاً على صفحات الجرائد، وعن طريق النشرات، والملصقات الإعلانية، والكتب - في كل مكان. حينئذ كانت الجرائد التي تقع في يدي أكثر الأحيان هي الجرائد الماركسية التي تصدرها الـ(P.O.U.M.)، جريدتا «باتالا» و«أديلانتي». وقد كنت أتأذى من انتقاداتها اللاذعة «المعادية للثورة» للـ P.S.U.C. .. ثم حين تفحصت الصحافة التي كان يصدرها اشتراكيو الـ P.S.U.C. والشيوعيون عن قرب، رأيت أن صحافة الطرف الأول لاتُلام تقريباً مقارنة بخصومها. فقبل كل شيء لم تكن لديهم إلا فرص ضئيلة. فهم، على خلاف الشيوعيين، لم تكن لهم مواطئ قدم في الصحافة خارج بلادهم، وحتى داخل إسبانيا كانوا الجانب الأضعف بسبب المراقبة على المطبوعات التي كانت تحت سيطرة الشيوعيين، وهذا كان يعني أن صحفهم ظلت عرضة للتكميم أو الغرامة إذا نشرت مايسيء. ومن الإنصاف أيضاً للـ (P.O.U.M.)، القول بأنهم، بالرغم من دعواتهم المملة بلا نهاية للثورة، واقتطافهم من لينين حتى الامتلاء، فإنهم عادةً لم يكونوا ينحطون إلى الطعن بالأشخاص. وأيضاً اقتصروا في النقد على المقالات الصحفية، أما الملصقات الكبيرة الملونة الموجهة إلى الجمهور الأوسع، (وهي فائقة الأهمية في إسبانيا للعدد الضخم من الأميين هناك) فلم يكونوا يهاجمون فيها الأحزاب المنافسة، بل كانوا إما يهاجمون الفاشيّة فقط أو كان مضمونها ثورياً محضاً. كذلك كانت الأناشيد المعتمدة التي ينشدها رجالهم. أما المهاجمات الشيوعية

فقد كانت تختلف تماماً. وأنا مضطر للتطرق إلى بعضها في موضع تالٍ من الكتاب. هنا سوف أعطي لمحة موجزة عن خط التهجم الشيوعي.

على السطح كان النزاع بين الشيوعيين وأولئك الماركسيين الـ(P.O.U.M.) نزاعاً في التكتيك. كان الـ(P.O.U.M.) مع الثورة الفورية، ولم يكن الشيوعيون معهم. لكن هذا لاغبار عليه، فثمة مايقال دفاعاً عن كل طرف. يضاف إلى هذا أن الشيوعيين اعتبروا دعاية الـ(P.O.U.M.) تشق الصفوف وتضعف القوى الحكومية وبهذا يعرضون نتيجة الحرب للخطر، وهذا أيضاً، مع أنني رفضته في النهاية، يمكن الدفاع عنه إلى حد ما. بدأ الشيوعيون على الناعم، ثم بصوت أعلى، يؤكدون أن الماركسيين الـ(P.O.U.M.) يفرقون الصفوف الحكومية، لاحكماً، بل عن قصد وتصميم. ثم أُعلن بأن الـ(P.O.U.M.) لاتزيد عن عصابة من الفاشيين المتخفّين، تعمل لحساب فرانكو وهتلر، وأن أعضاءها كانوا يضغطون لسياسة ثورية زائفة نتيجتها تعضيد المقاصد الفاشية. وأن الـ (P.O.U.M.) كانت منظمة «تروتسكية»، وهي هي «الطابور الخامس» الذي تبجح به فرانكو. وهذا لم يكن يعني إلا أن عشرات ألوف العمال، ومنهم ثمانية أو عشرة آلاف جندي، وقد كادوا يتجمدون من الصقيع على الخنادق في الخطوط الأمامية، ومئات الأجانب الذين جاءوا إلى إسبانيا لمحاربة الفاشية،ومعظمهم كان بهذا يضحي بمعيشته وجنسيته وبحياته حتى في بلده، كان هؤلاء جميعاً خونة ويعملون لحساب العدو. هذه القصة جرى نشرها في جميع أرجاء إسبانيا بالملصقات وغيرها، وأعيدت مراراً وتكراراً بالصحف الشيوعية والمؤيدة لها في العالم أجمع. أستطيع أن أملأ عدة مجلدات بالمقتطفات عن هذا الموضوع لو عنيت بجمعها.

فهذا ماكانوا يصِموننا به: أننا تروتسكيون، فاشيون، خونة، مجرمون، جبناء، جواسيس، وما إلى ذلك. وأقر بأن هذا لم يكن يبعث على الرضا، خصوصاً

إذا ذكر المرء بعض الأفراد الذين تصدر عنهم هذه التهم. ليس طيّباً أن ينظر المرء إلى فتى إسباني في الخامسة عشرة محمولاً من الخطوط الأمامية على محفة بوجه شاحب على ملامحه الدوار يبرز من بين الأغطية، ثم يذكر أولئك المتأنقون في لندن وباريس يدبجون النشرات لإثبات أن هذا الفتى فاشي متنكر. إحدى أفظع خصائص الحرب أن كل الدعاية الحربية، كل العجيج والكذب والكراهية، تأتي دائماً من البعيدين عن القتال الفعلي. أما من عرفت* من ميليشيات الـ .P.S.U.C في الجبهة، وأما الشيوعيون من الفيلق الدولي الذين اجتمعت بهم بين الحين والحين، فلم ينعتني أحد منهم بالتروتسكي أو بالخائن، تركوا هذا للصحفيين في المؤخرة. لقد ظل الذين دبجوا النشرات ضدنا وذمّونا في الصحف آمنين في بيوتهم، أو في أسوأ الأحوال في مكاتب الصحف في فالنسيا، على بعد مئات الأميال من طلقات البنادق والوحول. وإذا تجاوزنا الطعن المعتاد الناجم عن النزاعات الداخلية بين الأحزاب، فإن مايتبقى من الطعن المتعلق بالموقف من الحرب، البطولات الزائفة أو التشهير بالعدو - كل هذا صدر كالمعتاد عن الذين لم يكونوا يحاربون، والذين يتراجع معظمهم مئة ميل إذا اقترب القتال منهم. وأكثر آثار الوحشة والانقباض التي خلفتها هذه الحرب في نفسي هو لأنها كشفت لي أن الصحافة اليسارية هي بنفس المستوى من الزيف والتزوير الذي عليه تلك اليمينية.* كنت موقناً بأن هذه الحرب من جانبنا، الجانب الحكومي، تختلف عن الحروب المعتادة الإمبريالية؛ لكن الدعاية الحربية لم تكن تمكّنك حتى أن تخمن هذا تخميناً. لم تكد الحرب تبدأ حتى سارعت الصحف، يمينيها ويساريها، إلى الغوص في حمأة البذاءة. وكلنا يذكر الملصق الذي صدر عن الديلي ميل [يمينية بريطانية] والقائل بالبنط العريض «**الحمر يصلبون الراهبات**»،

---

* أريد أن استثني **المانشستر جارديان**. فقد اضطررت عند البحث لهذا الكتاب أن أنقب في محفوظات الكثير من الصحف الإنكليزية. ومن بين الجميع ظل **للمانشستر جارديان في نفسي أكبر الاحترام لأمانتها**. المؤلف

بينما قالت الديلي ووركر[جريدة الشيوعية في بريطانيا]عن الفرقة الأجنبية التابعة لفرانكو بأنها «تتألف من المجرمين وتجار الرقيق الأبيض، والمخدرات، وحثالة كل البلاد الأوروبية». أما النيو ستيتسمان فقد ظلت حتى أكتوبر ١٩٣٧ تتحفنا بالأقاصيص عن الاستحكامات الفاشية المبنية من أجساد الأطفال الأحياء (أسوأ مادة بناء تستعمل في بناء الاستحكامات) ، والمستر آرثر بريانت يعلن بأن قطع ساقي البائع الجوال بالمنشار كان سائداً في إسبانيا الموالية [الحكومية الجمهورية]. إن الناس الذين يكتبون مثل هذه المواد لايحاربون أبداً؛ وربما كانوا يعتقدون بأن الكتابة هي بديل للحرب. والشيء ذاته في كل الحروب؛ الجنود يحاربون، والصحافيون يضجون، ولا يقترب كثير من الوطنيين من خطوط الجبهة إلا في الجولات الدعائية الشديدة الاختصار. أحياناً أتعزى بفكرة أن الطائرات سوف تغيِّر من ظروف الحرب. وربما شهدَت الحرب العظمى القادمة مشهداً جديداً كل الجدة؛ هو مشهد أحد هؤلاء المتبجحين مثقوباً برصاصة.

لقد سار الجانب الصحفي من هذه الحرب مسيرته المعتادة؛ أنها مجرد عربدة. لكن ثمة فارق واحد، هو أنه بينما جرت العادة في الحروب أن يقصر الصحفيون الذم على أعدائهم، ففي هذه الحالة، ومع مضي الوقت، دأب الشيوعيون وماركسيو الـ .P.O.U.M على الكتابة بحقد أشد كلٌّ منهما عن الآخر، وبأكثر مما فعلوا ضد الفاشيين. لكنني في ذلك الوقت لم أستطع أن آخذ هذا مأخذ الجد. نعم،كان النزاع بينهم مزعجاً وكريهاً، لكنه ظل يبدو لي أمراً منزليّاً عائليّاً. لم أصدق أنه يمكن أن يغير من الأمور شيئاً. او أن هناك من الخلافات في السياسة بينهم تستعصي على الحل . لقد أدركت أن الشيوعيين والليبراليين قد صمموا على تعطيل الثورة عن المضي قُدماً؛ لكنني لم أدرك بأنه يمكن لهم أن يعودوا بها إلى الوراء.

وكان لديّ سبب وجيه. فقد قضيت كل الوقت في الجبهة، وفي الجبهة لم يتغير شيء من الأجواء الاجتماعية أو السياسية. غادرت برشلونة في أوائل يناير ولم أعد حتى بإجازة إلا أواخرَ إبريل، وطوال هذا الوقت، وبعده أيضاً في الشريط الأرَاجوني الذي تتمركز فيه قوى الأناركيين والـ .P.O.U.M استمرت الظروف على حالها، على السطح على الأقل. ظل المناخ الثوري على حاله كما عرفته أول الأمر. العسكر من رتبة الجنرال إلى أصغر جندي، الفلاح ورجل الميليشيا، مازالوا يتعاملون كأنداد متساوين، ويأخذ الجميع الراتب ذاته، ويرتدون ألبسة متشابهة، ويأكلون طعاماً موحداً، ويخاطب واحدهم الآخر بـ «أنت» أو «يارفيق»؛ لم يكن ثمة طبقة سيادة أو قيادة، ولا طبقة عوام، لامتسولين، ولا عواهر، ولا محامين، ولا كهنة، لاتلميع أحذية ولارفع قبعات. كنت أستنشق هواء المساواة، وكنت من السذاجة والبساطة بحيث تصورت أن هذا كان عاماً لأرجاء إسبانيا كلها. لم أتبين حينئذ أنني كنت بالصدفة محشوراً، قليلاً أو كثيراً، في القطاع الأشد ثورية في الطبقة العمالية الإسبانية كلها.

هكذا، حين كنت أسمع من رفاقي الأعلى مني تعليماً سياسيّاً، بأن المرء لايمكنه أن يتخذ من الحرب موقفاً عسكريّاً محضاً، وأن الخيار هو بين الفاشية وبين الثورة، كنت أكاد أسخر منهم. وبالإجمال قبلت وجهة النظر الشيوعية التي خلاصتها القول: «لايمكن الحديث عن الثورة إلا بعد أن نكسب الحرب»، ولم أقبل وجهة نظر ماركسيي الـ .P.O.U.M القائلة: «لايمكن إلا التقدم إلى الأمام، وإلا رجعنا إلى الخلف». وحين تبين لي فيما بعد بأن الـ .P.O.U.N كانوا على حق، أو كانوا أحق من الشيوعيين، لم تكن هدايتي على أسس نظرية. على الورق كانت قضية الشيوعيين متسقة؛ المشكلة كانت في أن تصرفاتهم الفعلية جعلت من الصعب التصديقَ بأنهم كانوا يعملون بحسن نية. والشعار الذي تكرر ترداده: «الحرب أولاً وبعدها الثورة»، وبالرغم من أنه صدّقه الرجل المتوسط في الميليشيات في الاتحاد

الاشتراكي الشيوعي .P.S.U.C وآمنوا بأن الثورة يمكن أن تستمر بعد الانتصار في الحرب، كان سراباً زائفاً. ماكان يعمل له الشيوعيون ليس تأجيل الثورة إلى وقت أكثر ملاءمة، بل التأكد من عدم حصولها إطلاقاً. هذا أصبح يزداد وضوحاً مع مرور الزمن، مع استلاب القوة من أيادي الطبقة العاملة شيئاً فشيئاً، ومع الزج في السجون بالثوريين من كل لون وصفة. كل الحركات كانت باسم الضرورة الحربية، لأن هذه الحجة كانت جاهزة وسهلة التطبيق، وكانت نتيجتها إبعاد العمال شيئاً فشيئاً عن الوضع المتمكن إلى وضع يجدون أنفسهم فيه عند انتهاء الحرب وإعادة الرأسمالية عاجزين عن مقاومتها. لاحظوا، أرجوكم، أنني لاأمسُّ صفوف الأفراد الشيوعيين بكلمة، ومن باب أولى ألا أقصد الآلاف الذين قضوا أبطالاً في المعركة حول مدريد. لكن هؤلاء لم يكونوا الرجال الذين يوجهون سياسة الحزب. أما أولئك الذين يتربعون على المراكز العليا فلا يمكن تصور أنهم لم يكونوا يتصرفون وعيونهم مفتوحة.

لكن، وأخيراً، كانت الحرب تستحق الكسب حتى مع خسارة الثورة. وفي النهاية بدأت أشك في كون السياسة الشيوعية، على المدى الطويل، مصممة على إحراز الانتصار. ويبدو أن القليل من الناس فكروا في أنه لابد من سياسة مختلفة تناسب كل مرحلة من مراحل الحرب. قد يكون الأناركيون أنقذوا الوضع في الشهرين الأولين، لكنهم لم يكونوا قادرين على تنظيم المقاومة إلى مابعد نقطة معينة؛ والشيوعيون ربما أنقذوا الوضع في أكتوبر – نوفمبر، لكن كسب الحرب النهائية كان شيئاً مختلفاً. في إنكلترا قُبلت السياسة الحزبية الشيوعية بدون تساؤل، لأنه لم يسمح بتمرير الكثير من النقد لها إلى النشر ولأن خطها العام – الخلاص من الفوضى الثورية، وتسريع الإنتاج، وعسكرة القوات المسلحة – كانت تبدو واقعية وناجعة. فمن المفيد الإشارة إلى نقاط ضعفها الأساسية.

فلتعطيل أي اتجاه ثوري وجعل الحرب شبيهة بالحروب العادية قدر الإمكان، كان من الضروري التخلي عن الفرص الاستراتيجية كلما سنحت. لقد شرحت كيف كان تسليحنا، أوفي الحق، عدم تسليحنا، في الجبهة الأراجونية. ليس من شك كبير في أن الأسلحة مُنعت كيلا يقع العدد الكافي منها في أيدي الأناركيين الذين سوف يستعملونها لاحقاً لأغراض ثورية؛ وبالنتيجة كان الهجوم في الأراجون الذي يحتمل أن يجبر فرانكو على الانسحاب من بلباو، وربما من مدريد، لم يحصل أبداً. وهذا كله أمر صغير نسبيّاً. الأهم منه أن الحرب، ماإن اقتصرت على الحدود الضيقة باعتبارها «حرباً في سبيل الديمقراطية» حتى أصبح من المستحيل اللجوء إلى مساعدة الطبقة العمالية الخارجيّة. وإذا واجهنا الوقائع فعلينا الإقرار بأن عمال العالم وقفوا من الحرب الإسبانية موقف اللامبالاة. جاء عشرات الألوف من الأفراد لخوض القتال، لكن عشرات الملايين من ورائهم ظلوا غير متعاطفين. خلال السنة الأولى من الحرب يقال إن الشعب البريطاني بكامله ساهم، بطريقة أو بأخرى، في حملة التبرعات التي شعارها 'ساعدوا إسبانيا' بما لايزيد على ربع مليون جنيه، أي ربما بأقلّ من نصف ماينفقه في أسبوع على الدخول إلى دور السينما. الطريقة الوحيدة التي كان يمكن للطبقة العمالية في الأقطار الديمقراطية أن تساعد فيها رفاقها الإسبان كانت بالتحرك في قطاع الصناعة - الإضرابات والمقاطعات. ولم يجر شيء حتى من بدايات هذا العمل. أعلن زعماء العمال والشيوعيون في كل مكان أن هذا مما لايمكن حتى التفكير فيه؛ ولاشك في أنهم كانوا على حق، طالما كانوا ينادون بأعلى أصواتهم أن إسبانيا «الحمراء» ليست «حمراء». ومنذ الحرب الكبرى ١٩١٤-١٩١٨ أصبح لعبارة «الحرب من أجل الديموقراطية»، جرس غير مطرب. وقد أمضى الشيوعيون السنوات الماضية وهم يرددون على أسماع العمال المناضلين بأن «الديمقرطية» في جميع البلدان ليست إلا تعبيراً مهذباً عن الرأسمالية. فليس من التكتيك المقبول أن تبدأ بالقول إن «الديمقراطية مكيدة» ثم

تنادي «بالنضال من أجل الديمقراطية». فلو أبدلوا شعار «إسبانيا الديمقراطية» بشعار «إسبانيا الثورية». والاتحاد السوفييتي بمكانته الدولية من ورائهم، لكان يصعب تخيل أن يفشلوا في الحصول على استجابة.

والأهم من كل شيء ، أنه كان يصعب، بالسياسة اللاثورية، بل يستحيل مهاجمة فرانكو من مؤخرته. في صيف ١٩٣٧ كان فرانكو يحكم عدداً من السكان يفوق بكثير سكان الحكومة – هذا إذا لم نعدد معهم سكان المستعمرات – وليس معه إلا نفس العدد من الجنود. وكما يعرف الجميع، إذا كان السكان معادين خلف ظهرك بستحيل أن تُبقي الجيش كله على الجبهة بل عليك أن تضع عدداً مساوياً لحماية خطوط اتصالاتك، ولمنع التخريب، الخ. فالواضح إذن أنه لم يكن ثمة تحركات شعبية في مؤخرة فرانكو. ولايمكن تصور أن يكون الناس في تلك المناطق أيّدوا فرانكو أو أرادوه ، خصوصاً العمال في المدن وفقراء الفلاحين. ومع كل خطوة نحو اليمين كان يخفت وهج تفوق الحكومة. ما يحسم الموضوع هو قضية مراكش. لماذا لم يحصل تمرد في مراكش؟ كان فرانكو يحاول إقامة ديكتاتورية بغيضة، ومع هذا فضّله المراكشيون على حكومة الجبهة الوطنية! الحقيقة الملموسة هي أنه لم تجر أية محاولة لإثارة العصيان في مراكش. لأن هذا يعني تبني سياسة ثورية في بنيان الحرب. الضرورة الأولى لإقناع المراكشيين بحسن نوايا الحكومة [الإسبانية] كانت إعلان مراكش بلداً محرراً. ونستطيع تخيل شعور الفرنسيين لو حدث هذا! فأحسن الفرص الاستراتيجية في الحرب أُهدرت بأمل واهٍ هو إرضاء الرأسمالية الفرنسية والإنكليزية. كان المقصود من السياسة الشيوعية كلها من اختزال الحرب إلى حرب عادية لا-ثورية هو تقييد أيدي الحكومة. لأن الحرب من هذا النوع لابد، لكسبها، من الوسائل الميكانيكية، أي لابد في النهاية من التزود بالأسلحة بلا حدود؛ والحكومة كانت في وضع أدنى لأن مزودها الرئيس بالأسلحة، وهو الاتحاد السوفييتي، بعيد جغرافياً، بالمقارنة بإيطاليا وألمانيا. ولهذا فإن شعار الماركسيين

المستقلين .P.O.U.M والأناركيين: «الحرب والثورة لاينفصلان» كان أقل تبصراً مما يُظن.

لقد عرضت الأسباب التي دفعتني للاعتقاد بأن السياسة الشيوعية المضادة للثورة كانت خاطئة، لكنني، من حيث أثرها على الحرب الجارية الآن [١٩٣٨]، أرجو أن لايكون حكمي صحيحاً، أرجو ألف مرة أن أكون على خطأ، فأنا أرجو للحرب النجاح بأية وسيلة، كائنة ماكانت. وبالطبع لانستطيع الآن التكهن بما سيكون. قد تنحاز الحكومة إلى اليسار مرة أخرى، وقد يثور المراكشيون من عندهم، وقد تقرر إنجلترا شراء انسحاب إيطاليا، وقد تُكسب الحرب بالوسائل العسكرية وحدها – ليس من سبيل للتكهن. لذا أدع الآراء السالفة قائمة، والزمن سيثبت إلى أي مدى كنت مصيباً أو مخطئاً.

لكنني في فبراير ١٩٣٧ لم أكن أرى الأمور على هذا النحو. كنت مللت قلة الحركة على جبهة الأراجون وأحسست إحساساً عميقاً بأنني لم أؤد ماعليّ حقاً من القتال. وقد اعتدت عند تذكر أحد الملصقات على جدران برشلونة يسأل المارين، متّهما: 'ماذا فعلت من أجل الديمقراطية؟' أشعر بأنني لاأستطيع أن أجيب إلا بأنني: 'أكلت نصيبي من المؤن'. كنت حين انضممت إلى الميليشيا عاهدت نفسي أن أقتل فاشياً واحداً – لأنه لو قَتل كل واحد منا واحداً لانقرضوا سريعاً – ولم أقتل أحداً حتى الآن، بل لم تسنح لي أية فرصة لذلك. كما كنت طبعاً أريد الذهاب إلى مدريد. شأنَ كل أفراد الجيش مهما كان لونهم السياسي، الجميع يريدون الذهاب إلى مدريد. وهذا يعني الانضمام إلى الفيلق الدولي، فماركسيو الـ .P.O.U.M ليس لهم إلا القليل من الأفراد في مدريد وكذلك الأناركيون ليس لديهم ماكان لهم من قبلُ.

حالياً طبعاً عليّ أن أبقى في الجبهة، لكنني أعلمت الجميع أنني في الإجازة سأحاول الانتقال إلى الفيلق الدولي، إن أمكن، وهذا يعني وضع نفسي بتصرف

الشيوعيين. حاول الكثير ثنْيَ عزمي عن هذا، لكن لم يحاول أحد أن يتدخل. من إنصاف القول أن جبهة الـ .P.O.U.Mلم يكن فيها مايدعى بصيد الهراطقة، بل كان فيها أقل مما يجب في تلك الظروف! وما لم يكن المرء من دعاة الفاشية، لم يكن له أن يخشى أية عقوبة على اعتناقه آراء سياسية مخالفة. وقد قضيت معظم الوقت في الميليشيات منتقداً بمرارة 'خط'الـ .P.O.U.M السياسي، ولم أعان أية متاعب من جرّائه. لم يكن ثمة ضغط على الواحد حتى للانضمام سياسياً إلى الحزب، بالرغم من أنني أظن أن معظم رجال الميليشيا فعلوا ذلك. أما أنا فلم أنضم إلى الحزب - الأمر الذي ندمت عليه كثيراً بعد أن تعرضت المنظمة للقمع.

٦

الحياة على الجبهة مارس - ٢٥ إبريل ١٩٣٧

بالعودة إلى ماكنا عليه في تلك الأثناء من المهمات اليومية، بل الليلية، على مدار الساعة؛ تسيير الحرس، والدوريات، الحَفْر؛ الطين، المطر، الرياح العاصفة، والثلج في بعض المناسبات. لم تبدأ الليالي بالدفء الملحوظ إلا في إبريل. كانت أيام مارس هنا، فوق، في الهضبة، شبيهة كثيراً بشهر مارس في إنجلترا، بأجواء ساطعة زرقاء ورياح تصم الآذان. الشعير الشتوي بلغ طوله قدماً، والبراعم القرمزية بدأت تظهر على غصون الكرز (خطوط الجبهة هنا دخلت في بساتين الخضار والكروم المهجورة)، وإذا فتشت في الخطوط والخنادق وجدت البنفسج، ونوعاً من العنصل البري hyacinth تشبه عينة ضعيفة من الجريس bluebell . وراء الخطوط مباشرة كان يجري جدول رائع مخضر رقراق، أول ماء صافٍ أراه منذ قدومي إلى الجبهة. وفي أحد الأيام شددت على أسناني وغطست في النهر كي آخذ أول حمام لي في ستة أسابيع. كان مايمكنك تسميته حماماً سريعاً، صاعقاً؛ فالماء كان من الجليد الذائب لم يبتعد كثيراً عن درجة التجمد.

لم يحدث شيء في هذه الأثناء، لم يحدث شيء أبداً. أصبح من عادة الإنكليز الحديث عن أن هذه ليست حرباً، كانت مسرحية إيمائية لعينة. قليلاً جداً ماتعرّضنا للنيران الفاشيّة. الخطر الوحيد كان من الرصاصات الطائشة، التي كانت، مع التواء الخطوط إلى الأمام من الطرفين، تأتي من عدة اتجاهات. وكل الإصابات في تلك الفترة كانت من هذه الطلقات الطائشة. آرثر كلينتون أصيب بإحدى هذه الرصاصات الغامضة التي حطمت كتفه الأيسر، وشلت ذراعه شللاً دائماً كما أخشى.

كان بعض رمايات المدفعية أيضا، لكنها كانت بلا تأثير. كان صفير القنابل - ثم ضجيج انفجارها - في الواقع أمراً يفتقده المرء، كتسلية بسيطة. لم يصوّب الفاشيون قنابلهم إلى استحكاماتنا أبداً. فقد كان وراءنا ببضع مئات من الياردات يقع قصر ريفي كبير يعرف بـ لاجرانجا، مُلحق به أبنية مزارع كبيرة كانت تستعمل مخازن، ومقراً للقيادة، ومطبخاً لهذا القطاع من الجبهة. وهذا ماكان يهدف إليه المدفعيون الفاشيون، لكنهم كانوا يبعدون خمسة أو ستة كيلومترات، ولم يكن تصويبهم جيداً إلا بما يكفي لتحطيم زجاج بعض النوافذ، وخدش بعض الجدران. فأنت لاتكون في خطر إلا إذا صدف أن كنت تصعد في الطريق عند إطلاق النار وأخذت القنابل تنقض على الحقول من جانبيك. والمرء يتعلم فوراً تقريباً الفن الغريب الذي هو معرفة مدى اقتراب مسقط القنبلة منه من صوتها. وقد كانت القنابل التي يطلقها الفاشيون علينا حينئذ سيئة الصنع بما فيه الكفاية. فبالرغم من أنها كانت من عيار ١٥٠مم، فإن الحفرة التي كانت تسببها لم تكن تزيد على ستة أقدام عمقاً، كما أن واحدة على الأقل من كل أربعة لم تكن تنفجر. وهذا أدى إلى انتشار الشائعات الرومانسية بوجود التخريب في المعامل الفاشية، وعن القنابل التي لاتنفجر لعدم وجود الحشوة فيها، واستبدالها بورقة مكتوب عليها «الجبهة الحمراء»، لكنني لم أشاهد هذا بعيني. والحقيقة كانت أن هذه القنابل قديمة لدرجة ميؤوس منها؛ فقد التقط أحدهم قبة صاعق نحاسية عليها تاريخ الصنع: ١٩١٧. وكانت المدافع الفاشية من نفس التاريخ والعيار الذي كانت عليه مدافعنا، وكثيراً ما أعيد تجهيز القنابل التي لم تنفجر وأعيد إطلاقها إلى المصدر. وقد قيل أنه كان ثمة قنبلة بعينها معروفة باسمها الخاص. كانت تتنقل يومياً ذهاباً وإياباً بين الطرفين دون أن تنفجر.

في الليل كان يجري تسيير دوريات صغيرة إلى المنطقة العازلة لتكمن في الخنادق قرب الخطوط الفاشية وتتنصت على الأصوات (المناداة بالأبواق، زمامير السيارات، وما إلى ذلك) وتتخذها دلائل على النشاطات الجارية في هويسكا. كان

هناك الكثير من عمليات القدوم والمغادرة للعساكر الفاشيّة وهذه يمكن تدقيقها بالاستعانة بتقارير المتنصتين. كان لدينا أوامر خاصة دائمة بالإبلاغ عن قرع أجراس الكنائس. لأنه يبدو أن الفاشيين درجوا على إقامة القداس قبيل كل عملية من عملياتهم. وبين الحقول والبساتين كانت البيوت الطينية المهجورة متناثرة حيث يمكن الاستكشاف على ضوء أعواد الثقاب، بعد أن تكون قد خَلعتَ باب النافذة. وأحياناً تكتشف قطعاً قيّمة للنهب، كالبلطات ومطَرات المياه الفاشية (وهي خير مما لدينا ومرغوبة كثيراً). يمكن الاستكشاف هتاك في النهار أيضاً، لكن عليك أن تقوم بهذا وأنت تحبو على أربع. ومن المثير الزحف في هذه الحقول الخصيبة المهجورة حيث يبدو أن كل شيء قد توقف لحظة جني المحصول. فمحاصيل السنة الماضية لم يمسسها أحد. وقد امتدت أشجار الكرمة غير المقلمة وتلوّت كالثعابين على الأرض، والكيزان على سوق الذرة المنتصبة تصلبت فصارت كالحجارة، واللفت والشمندر تضخمت وأصبحت مثل قرَم الحطب. ترى كم لعن الفلاحون الجيشين كليهما! أحياناً كانت زمر من رجالنا تخرج لجمع الحويش من المنطقة العازلة. إلى حوالي الميل إلى يميننا، حيث الخطوط القتالية أقرب إلى بعضها بعضاً. وهناك كان حقل بطاطا يرتاده الطرفان نحن والفاشيون. كنا نذهب إلى هناك في النهار، أما هم فلم يكونوا يرتادونه إلا ليلاً، لأنه كان في مدى رشاشاتنا. وفي إحدى الليالي نزلوا جميعاً ونظفوا الحقل تماماً. اكتشفنا حقلاً آخر أبعد منه، لكن بلاغطاء، فعليك أن تقتلع البطاطا منبطحاً - وهو عمل مضنٍ. وإذا لمحك سدنة الرشاشات منهم، كان عليك أن تبسط جسدك كالفأر الذي يحاول حشر نفسه من تحت الباب، والطلقات تحفر الأرض على بعد بضعة ياردات من ورائك. لكن الأمر كان يبدو حينئذ يستحق المخاطرة. البطاطا عزيزة نادرة، وإذا أوصلتَ ملء كيس منها إلى المطبخ حصلت على ملء قارورة من القهوة.

ظلّ التعطل مستمراً، لاشيء يحدث، ولاشيء متوقع الحدوث. «متى نهاجم؟» و «لم لا نهاجم؟» كانت من الأسئلة التي يطرحها الإسبان والإنكليز على حد سواء. حين تتصور مايعنيه القتال، تعجب لماذا يتحرق الجنود للقتال، ورغم ذلك فالذي يريدونه. في الحرب الثابتة ثمة ثلاثة أشياء يتوق إليها الجنود جميعاً: المعركة، المزيد من السجائر، الإجازة أسبوعاً. كنا إلى حدّ ما أحسن تسليحاً من ذي قبل. كل واحد منا لديه مئة وخمسون طلقة من الذخيرة بدلاً من خمسين، وكان يجري بالتدريج صرف حراب البنادق، والخوذ الفولاذية، وعدة قنابل. كانت تنتشر شائعات كثيرة عن المعارك القادمة، وأظن الآن أنها كانت تُنشر قصداً لرفع معنويات الجنود. فلم يكن الأمر بحاجة إلى المعرفة العسكرية العميقة لرؤية أنه لن تكون هناك أعمال كبرى على هذا الجانب من هويسكا، في الوقت الحاضر على الأقل. كان المهم استراتيجياً هو الطريق إلى جاكا، هناك من الطرف الآخر للمدينة. وفي وقت لاحق، حين بدأ الأناركيون هجومهم على طريق جاكا، كانت مهمتنا القيام بعمليات «هجوم إعاقة» لإجبار الفاشيين على تحويل الجنود من الجانب الآخر.

خلال هذا الفترة كلها، حوالي ستة أسابيع، حصلت عملية واحدة من طرفنا من الجبهة. وهذا حين شن «مقاتلو الصاعقة» هجوماً على «المانيكونو»، مستشفى المجانين الذي حوّله الفاشيون إلى حصن. كان لدينا عدة مئات من اللاجئين الألمان متطوعين للخدمة العسكرية مع الـ P.O.U.M ، وقد نظموا كتيبة خاصة سميت بكتيبة الصاعقة، وقد كانوا، من الجهة العسكرية، على مستوى يختلف عن باقي الميليشيات - والحق أنهم كانوا أقرب إلى العسكرية الحقيقية من كل مارأيت في إسبانيا، عدا حرس المداهمة وبعض أعضاء الفيلق الدولي. وقد انتهى ذلك الهجوم بمهزلة كالعادة. تُرى كم من العمليات في هذه الحرب. من الجانب الحكومي، لم ينته بمهزلة؟ حقاً استولت قوات الصاعقة على المشفى السابق كالعاصفة، لكن

ميليشيات من نسيت اسمهم الذين كان مخططاً أن يدعموا الصاعقة باحتلال تل مجاور كان يشرف على المشفى، انخذلوا خذلاناً مبيناً. فالكابتن الذي كان يقودهم كان من أولئك الضباط من الجيش النظامي المشكوك بولائهم والذين كانت الحكومة تصر على الاستعانة بهم. هذا الضابط، إما من الخوف أو من الخيانة، أنذر الفاشيين برميه قنبلة يدوية حين كان المهاجمون مايزالون على بعد مئتي ياردة. يسرني أن أقول إن رجاله قتلوه رمياً بالرصاص فوراً. لكن الهجوم المفاجئ لم يعد مفاجئاً، وحُصد الميليشياويون حصداً بنيران غزيرة ودُحروا نزولاً بعيداً عن التل. وعند المساء اضطرت الصاعقة إلى التخلي عن المشفى. وأثناء الليل كانت صفوف المحفات وعربات الإسعاف تتجه في الطريق إلى سييتامو، وقد أجْهزَت على أصحاب الجروح الخطرة بالخضخضة والارتجاج. في ذلك الحين كان القمل يسري فينا جميعاً بالرغم من برودة الجو التي لم تكن كافيةً لقتل القمل. إن لديّ خبرة واسعة في مختلف الآفات والهوام الجسدية، وأشهد أن القملة من حيث الوحشية والأذى لايفوقها شيء أعرفه. قد تجعلك الحشرات الأخرى، كالبرغش مثلاً، تعاني ألماً أشدّ، لكنها على الأقل ليست «مُقيمة» مثابرة. القملة البشرية تشبه سرطاناً دقيقاً مستقراً في سراويلك على الأغلب. وبأقل من حرقك ملابسَك كلها ليس من طريقة ناجعة أخرى للخلاص منه. وعلى طول الطراز في سراويلك يطرز بيوضه المتلألئة، الصئبان، مثل حبات الأَرز الدقيقة، وتفقس تلك البيوض لتنشئ أجيالاً جديدة بسرعة هائلة. وأرى أن دعاة منع الحروب المسالمين خيرٌ لهم أن يصدّروا منشوراتهم بصورة مكبرة للقملة. الحروب ماجدة حقاً! في الحرب كل العسكر يقمّلون عندما يكون الجو دافئاً. الرجال الذين حاربوا في فردان، وفي واترلو، وفي فلودان، وفي تيرموبيلاي – كل واحد من هؤلاء كان القمل يسرح على خصيتيه. وقد أنقصنا أعداد تلك الهوام إلى حدٍ ما بتشويط بيوضها حرقاً وبالاستحمام بقدر ما استطعنا التحمّل. ولم يكن بأقلَّ من القمل ما يستطيع إجباري على الاستحمام بمياه النهر الجليدية.

كل شيء كان يبلى وينفد سريعاً - الأحذية، الملابس، التبغ، الصابون، الشموع، الثقاب، زيت الزيتون. ملابسنا النظامية كانت تتهاوى مزقاً، وكثير من الرجال كانوا يلبسون بدلاً من الأحذية صنادل من الخيش. كنت تشاهد الأكوام من الأحذية البالية في كل مكان. وقد أمكننا إبقاء نيران التدفئة موقَدة يومين بالأحذية البالية، ولم تكن وقوداً سيئاً.

في ذلك الحين وصلت زوجتي إلى برشلونة وأخذت ترسل لي الشاي والشوكولاتة بل والسيجار أيضاً حين تتوافر أمامها تلك الأشياء؛ لكن حتى في برشلونة كان كل شيء عرضة للفقدان والنفاد، خصوصاً التبغ. كنا نجد الشاي نعمة من السماء، مع فقدان الحليب وندرة السكر. كانت الطرود تُرسل دائماً من بريطانيا إلى رجال كتيبتنا لكنها لم تصل أبداً؛ الطعام، والملابس والسجائر - كل شيء كان مصيره إما الرفض في دائرة البريد في بريطانيا، أو المصادرة في فرنسا. والعجيب أن المؤسسة الوحيدة التي نجحت في إرسال علب الشاي - بل وفي إحدى المناسبات التي لاتنسى - علبة من البسكويت إلى زوجتي - كانت مخازن الجيش والبحرية! يؤدون واجبهم كاملاً، لكن ربما كانوا يسرهم أكثر لو كانت المواد مرسلة إلى جانب المتاريس المحاذية لجماعة فرانكو. الافتقار إلى التبغ كان أسوأ شيء. في البداية كان يصرف لنا علبة من السجائر يومياً، ثم نزلت الحصة إلى ثماني سجائر في اليوم، ثم إلى خمس، ثم مرت عشرة أيام مميتة لم توزع فيها السجائر إطلاقاً. ولأول مرة أصبحت أرى في إسبانيا ماكنت أراه في لندن كل يوم، - أناساً يلتقطون أعقاب السجائر.

قبيل نهاية مارس أصبت بتسمم في يدي أوجب تربيطها ووضعها في قلادة. وكان لابد من إدخالي المستشفى، لكن إصابتي لم تكن تستوجب إرسالي إلى سييتامو، فأُبقيت فيما يسمى بمستشفى مونفلوريتي، الذي لم يكن إلا محطة إخلاء

للإصابات. بقيت هناك عشرة أيام، بعضها في السرير. وخلالها اختلس البراكتيكانتيس (مساعدو المستشفى) عملياً كل ما كنت أحمله. وفيه آلة التصوير وكل الصور التي التقطتها. الكل في الجبهة يسرق، وهذا نتيجة حتمية للنقص في المواد، لكن جماعة المشافي كانوا أسوأ الجميع. بعدئذٍ، في مشفى برشلونة. أخبرني أحد الأمريكان الذي قدم ليلتحق بالطابور الدولي على سفينة ضربتها بالطوربيد غواصة طليانية، كيف حُمل إلى الشاطئ جريحاً، وكيف أنه حتى الذين حملوه على المحفة لإدخاله عربة الإسعاف، شلّحوه ساعة يده.

بينما كانت ذراعي في القلادة قضيت عدة أيام هادئة في التجوال في الريف حولي. كانت مونفلوريتي تتألف من الحشد المعتاد من البيوت الطينية الحجرية، بأزقتها المتعرجة التي حفرتها عجلات الشاحنات إلى أن صارت مثل تضاريس سطح القمر. الكنيسة كانت متضررة كثيراً لكنها تستعمل مخزناً عسكرياً. وفي الجوار كله لم يكن إلا مزرعتان بحجم ملحوظ، هما تورّي لورنزو وتورّي فابيان، وعمارتان عظيمتان إلى حدٍّ ما، الواضح أنهما كانتا لمالِكي الأراضي الذين كانوا أسياد الريف هناك؛ ويمكنك معرفة مدى ثرائهم بالمقارنة بأكواخ الفلاحين البائسة المحيطة. ووراء النهر، قريباً من خطوط النار، قامت مطحنة ضخمة ملحقة بقصر كبير إلى جانبها. كان من المؤسف رؤية تلك الماكينات الباهظة الثمن عرضة للصدأ بلا فائدة، وصوامع الطحين الخشبية تنقض لاستخدامها حطباً للنار. وفي مدة لاحقة، وللحصول على الحطب للرجال الأبعد إلى الوراء كانت الجنود ترسل بالشاحنات لتحطيم المكان بصورة نظامية. وقد اعتادوا أن يكسروا خشب أرضيات الغرف بتفجير قنبلة يدوية عليها. «لاجرانيا» مخزن طعامنا ومطبخنا، ربما كان سابقاً ديراً. فله باحة واسعة، ومنازل خارجية عديدة تغطي مساحة فدان واحد أو أكثر، مع اصطبلات لثلاثين أو أربعين حصاناً. القصور الريفية في هذا الجزء من إسبانيا قد لاتكون مثيرة للاهتمام من الناحية المعمارية، لكن مزارعها، بالحجر المكسو بالحوّار، وأقواسها المدورة

وأعمدة سقوفها الرائعة، تجعلها من الأبنية النبيلة العريقة المبنية على طراز ربما لم يختلف خلال قرون طويلة. حتى أنك لتشعر أحياناً بتسلل بعض العطف إليك على الملاّك السابقين الفاشيين عند رؤيتك المعاملة التي تنالها هذه الأبنية على أيدي الميليشيات التي استولت عليها. ففي لاجرانيا بالذات كل غرفة لم تستعمل تحولت إلى مرحاض - ركام رهيب من الأثاث المحطم والبُراز. الكنيسة الصغيرة المجاورة تثقبت جدرانها بالقنابل، وتغطت أرضيتها إلى ارتفاع عدة إنشات بالزبل والروث. أما الساحة العظمى حيث كان الطباخون يغرفون الطبيخ للتوزيع، كانت القمامة من علب التنك الصدئة، والطين، وروث البغال، وبقايا الطعام العفنة تدفع إلى الغثيان. كأنها تحقق مغزى أغنية العساكر القديمة:

هناك الجرذان، الجرذان،

جرذان بحجم القطط،

في مخازن القطعة!

وقد كانت الجرذان في لاجرانيا بحجم القطط بالفعل، أو قريباً منه؛ وحوشاً ضخمة بطيئة تتمشى فوق أكوام القمامة بعجرفة ملحوظة، ولاتهرب منك إلا إذا أطلقت عليها النار.

ثم حل الربيع علينا أخيراً. زرقة السماء أصبحت ألطف، والهواء تضمخ بالبلسم. والضفادع تقيم أعراسها بين خطوط الفلاحة بضجيج عال. وقد رأيت حول بركة المياه التي تستعمل في القرية لشرب البغال ضفادع خضراً طريفة بحجم الفلس النقدي، كانت خضرتها برّاقة بحيث بدت الحشائش الندية الفتية إلى جانبها قاتمة كامدة. وقد خرج صبيان الفلاحين إلى الحقول لجمع البزاق الذي كانوا يشوونه حياً على صفائح التنك. وما إن تحسن الطقس حتى عاد الفلاحون للفلاحة الربيعية. ومما يشهد بغموض الوضع الذي جرت عليه الثورة الفلاّحية في إسبانيا أنني لم

أستطع أن أعرف هل كانت الأرض المصادرة تنظمت على شكل تعاونيات، أم تقاسمها الفلاحون ببساطة فيما بينهم. وأظن أنها جُعلت تعاونية لأنها منطقة الـ p.o.u.m والأناركيين. مهما يكن الأمر، فالملاك القدماء قد مضوا، والحقول قيدْ الاستثمار، والناس يبدون قانعين. إن وداد وتعاطف الفلاحين تُجاهنا ظل يدهشني. فعند بعض كبار السن منهم لاشك في أن الحرب بدت لامعنى لها، والواضح أنها جلبت النقص والافتقار إلى كل شيء والحياةَ الكئيبة الشقية للجميع، فالفلاحون في أحسن الأحوال يكرهون فرض الجيوش أنفسها عليهم. وبالرغم من هذا كانوا جميعاً وبلا استثناء ودودين - وأظن بعد التأمل أننا، ومهما كنّا ذلك العبء الذي لايحتمل، كنا نقف بينهم وبين ملاك أراضيهم السابقين. الحرب الأهلية شيء عجيب. هويسكا لم تكن تبعد أكثر من خمسة أميال، وقد كانت سوقاً لهؤلاء الناس، ولهم جميعاً أقرباء هناك، وقد اعتادوا في كل أسبوع طيلة حياتهم أن يقصدوها لبيع دواجنهم وخضارهم. والآن، ومنذ ثمانية شهور، انتصب ذلك السور الذي لايمكن اختراقه من الأسلاك الشائكة ونيران الرشاشات. لكن ذلك السور ذاته كان أحياناً يختفي من ذاكرتهم. كنت مرة أتحدث مع إحدى العجائز، وكانت تحمل واحداً من الفوانيس الصغيرة التي يستعمل فيها الإسبان زيت الزيتون. قلت لها: «من أين أحصل على فانوس مثل هذا؟» أجابت فوراً دون تردد «من هويسكا». ثم ضحكنا معاً. وكانت صبايا القرية مخلوقات بهيجة بشعر أسود فاحم ومشية متثنية، ومواجهة جريئة مواجهة الرجال، وهذا على ماأظن من الآثار الجانبية للثورة.

الرجال بقمصان زرقاء مرقوعة، وبناطيل سوداء قصيرة وقبعات من القش عريضة الحافة، كانوا يحرثون الأرض وراء أزواج من البغال ترفّ بآذانها على إيقاع مسيرها. كانت المحاريث حقيرة تنكث الأرض نكثاً، ولايكاد يبدو من أثرها مايشبه الخط أو الأخدود. وكان هذا شأن كل الأدوات الزراعية هناك، قديمة الطراز بصورة تدعو إلى الشفقة، لأن كل شيء يبدو محكوماً بغلاء أسعار المعادن. سكة الفلاحة،

مثلاً، التي تنكسر ترقع، ثم ترقع ثانية إلى تصبح أحياناً معظمها رقع. أما المجارف والمذاري فكانت تصنع من الخشب. وأما الرفوش والمعاول فعند الناس الذين نادراً مالبسوا الأحذية الثقيلة، غير معروفة على الإطلاق، وهم يحفرون بما يشبه المعزقة البدائية المستعملة في الهند. وعندهم نوع من النوارج يعود بالمرء مباشرة إلى العصر الحجري؛ مصنوع من ألواح الخشب المضمومة جنباً إلى جنب إلى حجم قريب من حجم طاولة المطبخ ، وعلى الألواح مئات من الحفر، وفي كل حفرة حشرت قطعة من الحجر الصوّان التي شظّيت بنفس الطريقة التي كان يتبعها الإنسان منذ عشرة آلاف سنة. وأذكر شعوري بمايقارب الرعب الشديد حين وقعت عيناي لأول مرة على أحد تلك الأشياء في أحد الأكواخ المهجورة في المنطقة العازلة. وكان علي أن أخمن طويلاً قبل أن أحزر بأنه كان نورجاً. وقد ارتعت لمجرد تفكيري بالوقت الطويل الذي يستغرقه صنع الواحد منها، والفاقة الشديدة التي تُلجئ إلى استعمال الصوّان بدلاً من الفولاذ. وقد تلطّفت آرائي تجاه التصنيع منذ ذلك الحين. لكنّ في القرية اثنين من أحدث الجرارات الزراعية، لاشك أنها صودرت من قصر ملاّك الأرض الكبير.

مرة أو مرتين تجولت خارج القرية حول المقبرة المسوّرة التي كانت تقع على بعد ميل تقريباً من القرية. قتلى الجبهة كانوا يُرسلون عادة إلى سييتامو؛ فلاشك أن المدفونين هنا هم أموات القرية. كانت تختلف اختلافاً عجيباً عن المقابر الإنجليزية. لاتوقير للموت والأموات هنا! كل شيء تعلوه الدغلات والأعشاب، والعظام متناثرة في كل مكان. لكن المفاجئ حقاً كان خلو الكتابات على الشواهد من أية نصوص دينية بالرغم من أنها تعود جميعاً إلى ماقبل تاريخ الثورة. أظن أنني رأيت مرة واحدة فقط كتابة «صلّوا من أجل نفس فلان» المألوفة على القبور الكاثوليكية. معظم الكتابات كانت دنيوية علمانية، مع قصائد طريفة عن فضائل الفقيد. كان على واحد

من كل أربعة أو خمسة قبور صليب صغير، وإشارة مألوفة إلى نعيم السماء؛ وهذه عادةً تكون طمسها أحد الملاحدة المتحمسين بإزميله.

لقد فاجأني أن الأهالي في هذا الجزء من إسبانيا كانوا بدون شك ضعيفي الشعور الديني ، أقصد الشعور الديني بالمعنى الأرثوذكسي الأصولي. والغريب أنني طوال إقامتي في إسبانيا لم ألحظ أحداً من الإسبان يرسم إشارة الصليب على صدره، بالرغم من أنك تظن أن مثل هذه الحركات يصبح بمرور الوقت شبه غريزي، بالثورة أو بعدمها. الظاهر أن الكنيسة الإسبانية ستعود (تحقيقاً للمثل القائل: إن هي إلا ليلة ويعود الجزويت)، ولكن لايشك أحد بأنه عند اندلاع الثورة تهاوت وتحطمت الكنيسة إلى مدى يجعل من غير الممكن مقارنتها حتى بالكنيسة الإنجليزية المحتضرة. لكن الكنيسة عند الشعب الإسباني، على أية حال في كاتالونيا والأراغون، لم تكن إلا أُحبولة محضاً. وقد تكون العقيدة المسيحية أُبدلت إلى حد ما بالأناركية التي هي واسعة الانتشار والتي لها بلاشك نكهة النُحلة الدينية.

يومَ عدت من المستشفى قدّمنا الخطوط إلى ماهو في الحق موقعها المناسب، حوالي ألف ياردة إلى الأمام، على طول الجدول الصغير الذي يجري على بعد مئتي ياردة من الخطوط الفاشيّة. كان يجب القيام بهذه العملية قبل عدة شهور. والسبب في القيام بها الآن كان أن الأناركيين يهاجمون الفاشيين على طريق جاكا، فكان الهدف من تقديم الخطوط إجبارهم على تحويل المزيد من الجنود إلينا لمواجهتنا.

قضينا ستين أو سبعين ساعة بدون نوم، ذكرياتي عنها تنتهي إلى فضاء أزرق، أو إلى سلسلة من الصور المتفرقة. مهمة تنصت في المنطقة العازلة، على بعد مئة ياردة من كازا [حصن] فرانشيسكا وهو بيت ريفي محصن كان جزءاً من الخطوط الفاشيّة. سبع ساعات من الاستلقاء في مستنقع شنيع، بين المياه المضمخة بروائح القصب، يغوص الجسد فيها شيئاً فشيئاً: روائح القصب المتعفن، والصقيع إلى درجة

الخدر، النجوم متوقفة في السماء السوداء، نقيق الضفادع يصم الآذان. وبالرغم من أننا كنا في إبريل فإنها أبرد ليلة أذكر أنني قضيتها في إسبانيا. ووراءنا بما لا يزيد عن مئة ياردة، كانت فرق العمل جاهدة دون أن يصدر عنها صوت، لم نسمع إلا نقيق جوقة الضفادع؛ مرة واحدة في الليل بطوله سمعت صوتاً – هو الصوت المألوف لكيس الرمل يجري تسطيحه بالمجرفة. عجيب كيف أن الإسبان، بين الحين والآخر، يستطيعون إذا أرادوا تنظيم وتنفيذ عمل جماعي رائع. عملية الانتقال بكاملها كانت مخططة بكفاءة. وبسبع ساعات أقام ستمئة رجل ألفاً ومئتي متر من الخنادق والاستحكامات، على مسافة بين المئة وخمسين وبين الثلاثمئة متر من الخطوط الفاشيّة، كل هذا بسكون لم يمكّن الفاشيّين من سماع شيء. وخلال الليل لم يحدث إلا إصابة واحدة. وقد حدث المزيد طبعاً في اليوم التالي. وقد رُسم لكل فرد دوره المحدد، حتى عناصر المطبخ وصلوا فجأة عند انتهاء العمل بدِلاء النبيذ المخلوط بالبراندي.

ثم طلع الفجر واكتشف الفاشيون فجأة أننا أصبحنا هناك. وقد بدت الكتلة المربعة البيضاء لبناء حصن فرانشيسكا كأنها تشرف علينا مع أنها على بعد مئتي ياردة، والرشاشات في النوافذ المحصنة بأكياس الرمل بدت كأنها تسلط فوهاتها على الخنادق مباشرة. وقفنا جميعاً نحدق فيها، متعجبين كيف لم يرنا الفاشيون. ثم انهمرت الطلقات فارتمى كل واحد على ركبتيه يحفر بانهماك شديد معمقاً الخندق، ومغترفاً من الجوانب مايشكل ملاجئ صغيرة. كان ذراعي مايزال في الأربطة، فلم أكن أستطيع الحفر، فقضيت اليوم أقرأ رواية بوليسية عنوانها «المرابي المفقود»! لاأذكر الحبكة فيها، لكنني أذكر بوضوح شعوري وأنا جالس أطالعها، والغضار الرطب في قاع الخندق تحتي، والحركة الدائمة لإبعاد ساقيّ من طريق الرجال الذاهبين في الخنادق، والفرقعة المتتالية للطلقات على بعد قدم أو قدمين فوق رأسي. وقد أصيب توماس باركر برصاصة في أعلى فخذه، لكن ليست قريبة، على حد

قوله، من المواقع التي تجعله يهتم كثيرا. كانت الإصابات تقع على طول الخطوط، لكنها لاتعد شيئاً مقارنةً بما كان سيحدث لو اكتشفنا أثناء الانتقال في الليل. وقد أخبرنا أحد الفارين بعدئذ أن خمسة من رجال الحرس في تلك الليلة قد أعدموا للإهمال. حتى حينئذ كان يمكن أن يبيدونا بمذبحة لو بادروا باستجلاب بضعة من مدافع الهاون. وكان عملاً صعباً إخلاء الجرحى نزولاً في الخندق الضيق المزدحم. وقد رأيت أحد هؤلاء الأشقياء وقد سقط من محفته وبنطاله القصير مشرّب بالدماء، فاغراً فاه لالتقاط الأنفاس بألم شديد. كان لابد من حمل الجرحى لمسافة طويلة، ميلاً أو أكثر، إذ حتى لو كان ثمة طريق، فإن المحفات لم تكن تقترب من الخطوط الأمامية كثيراً. فقد اعتاد الفاشيون على الرمي عليهم إذا اقتربوا - وهذا مبرر في الحرب الحديثة لأنه لايتورع أحد من استخدام عربات الإسعاف لنقل الذخيرة.

ثم، وفي اليوم التالي، كنا في القصر الريفي (تورّي فابيان) بانتظار هجوم ألغي في اللحظة الأخيرة بالراديو. وفي الحظيرة حيث كنا ننتظر، كان على الأرضية طبقة رقيقة من القش تغطي أكواماً عالية من العظام، الآدمية والبقرية المختلطة ببعضها، وكان المكان يعج بالجرذان. تلك الوحوش القذرة كانت تخرج من تحت الأرض من كل النواحي. وإذا كان من شيء أكرهه كثيراً، فهو أن يتمشى جرذ من فوقي في الظلام. لكنني حصلت على الترضية المتمثلة بالقبض على واحد منها وإرساله طائراً في الهواء بضربة واحدة.

ثم تابعنا الانتظار على بعد خمسين أو ستين ياردة من المتاريس الفاشية بانتظار الأوامر بالهجوم. خط طويل من الرجال يحبْون في قناة ري وحراب بنادقهم تبدو من حرف القناة وبياض عيونهم يلمع في الظلام. وكان كوب و بنيامين يجلسان القرفصاء وراءنا ومعهم رجل بجهاز استقبال لاسلكي مربوط إلى كتفيه. على الأفق الغربي كانت تبرق نيران المدفعية كل بضع ثوان يتلوها بعد قليل انفجارات عالية.

ثم ضوضاء: بب بب بب صادرة عن اللاسلكي، ثم الأمر المهموس بأن علينا أن ننسحب إذا استطعنا. وقد فعلنا هذا، لكن لابالسرعة الكافية. فقد حوصر اثنا عشر من صِبية الـ I.C.I. (وهم الشبيبة من منظمة الـ P.O.U.M مثل شبيبة الـ I.C.U التابعة للـ P.S.U.C) وقد كانوا وُضعوا فيما لايزيد عن أربعين ياردة من الاستحكامات الفاشية. وقد طلع الفجر فلم يعد يمكنهم الانسحاب. ظلوا طول النهار هناك، لاتغطيهم إلا خصل واهية من الأعشاب، وكان الفاشيون يطلقون النار عليهم كلما بدرت منهم حركة. فما حلّ الظلام إلا وقتل سبعة منهم، وتمكن الخمسة الباقون من الزحف في الظلام والنجاة.

ثم، في الصباح التالي ولأيام كثيرة بعدها، أصوات الهجوم الأناركي على الطرف الآخر من هويسكا. الأصوات ذاتها دائماً. في ساعات الفجر المبكرة تنطلق فجأة عشرات القنابل لتنفجر معاً - بصوت يبدو شيطانياً حتى من مسافة أميال عنها - يلي هذا هدير متصل من نيران البنادق والرشاشات، شبيه شبهاً عجيباً بقرع الطبول. وبالتدريج ينتشر إطلاق النيران على مدى خطوط الجبهة المحيطة بهويسكا كلها. كنا نتعثر في الخنادق لنستند على أطراف الأسوار والنوم مايزال في عيوننا بينما تمرق الشهب النارية التي لامعنى لها فوق رؤوسنا.

وطوال النهار تستمر نوبة إطلاق نيران المدفعية كالصرعة. وقد قُصفت تورّي فابيان، التي أصبحت دار مطبخنا، وتهدمت جزئياً. الغريب أنك حين تراقب نيران المدفعية من مسافة آمنة لاتتمالك دائماً من أن ترغب في أن يصيب المدفعي هدفه! حتى ولو كان الهدف يؤوي عشاءك وعشاء رفاقك. كان الفاشيون يجيدون التصويب ذاك الصباح. وربما كانوا يستعينون ببعض المدفعيين الألمان في هذا. حصروا موقع تيرّي فابيان جيداً، طلقة جاءت خلفها، وأخرى جاءت أمامها، ثم جاء الصوت الموعود: «وز-بوم»! والألواح الخشبية تتطاير في الهواء، حتى لَترى اللوح

المعدني يتهاوى نحو الأرض مثل ورقة اللعب المقذوفة. القنبلة التالية قطعت جزءاً من زاوية البناء كما لو كان مارد يقطعها بالسكين. مع هذا جاء الطباخون بالعشاء في وقته المحدد – وهو إنجاز لاينسى.

مع مرور الوقت أصبح للمدفعية، المسموعة غير المنظورة، شخصية متميزة. كان ثمة بطاريتا مدفع بمدافعهما الـ٧٥مم التي كانت تطلق نيرانها من قريبٍ في مؤخرتنا، كانت بطريقة ما تثير في مخيلتي صورة رجل بدين يضرب كرة الجولف. وقد كانت أولى المدافع الروسية التي أراها – بل أسمعها. كان لقنابلها انحناء قليل وسرعة كبيرة، بحيث كنتَ تسمع انفجار حشوة الخرطوشة، ثم الأزيز فانفجار القنبلة معاً تقريباً. ووراء «مون فلوريتي» كان هناك مدفعان ثقيلان جداً لايطلقان إلا عدة مرات في اليوم، بزئير عميق، مكتوم مثل نباح وحوش بعيدة مربوطة بالسلاسل. وفي الأعلى، على جبل أرّاجون، تقع القلعة العريقة التي اجتاحها جنود الحكومة العام الماضي (لأول مرة في تاريخها، كما يقال)، والتي كانت تمنع أحد المداخل إلى هويسكا، كان ثمة مدفع ثقيل لاشك أنه يعود إلى القرن التاسع عشر. كانت قنابله الهائلة تئز فوقنا متمهلة ببطء يجعلك تظن أنك تستطيع الركض معها إلى أن تصل. والقنبلة من هذا المدفع لايمكنني تشبيه صوتها إلا برجل يركب دراجة هوائية ويصفر بفمه لحناً. أما هاونات – الخنادق، على ضآلة حجمها، فكانت تصدر أعلى ضجة مزعجة من المدفعية جمعاء. وقنابلها نوع من الطوربيدات المجنحة، على شكل سهام بطينة، وهي بحجم قارورة تسع ليتراً، تنطلق بفرقعة معدنية شيطانية، كما لو كانت قطعة ضخمة من المعدن يطرقها مارد على سندان ضخم. أحياناً كانت تأتي طائراتنا فتحلق فوقنا وتلقي بسلسلة من الطوربيدات التي تهدر انفجاراتها المتتالية في الآذان وتدك الأرض محدثة ارتجاجات محسوسة حتى على بعد ميلين. أما انفجارات القنابل الفاشية المضادة للطائرات، فكانت تنقّط السماء ببقع كالسحاب الضئيل في صورة سيئة الرسم بالألوان المائية، لكنني لم أشاهدها تصل إلى بُعد يقل

عن ألفي ياردة من أية طيارة. وحين تنقض «الطيارة» وهي تطلق رشاشاتها فإن الصوت. من عندنا من تحت، يبدو كخفق الأجنحة.

على جانبنا من الخطوط لم يكن يحدث الكثير. وإلى يميننا، على بعد مئتي ياردة كانت المواقع الفاشية تشرف على مواقعنا فتُمكّن قناصتهم من اقتناص بضعة من رفاقنا. وعلى مئتي ياردة إلى اليسار، على الجسر الذي يقطع الجدول، كانت مبارزة قائمة بين الهاونات الفاشية وبين رجالنا الذين كانوا ينشئون استحكاماً إسمنتياً بعرض الجسر. كانت القنابل الصغيرة الشريرة تمر من فوقنا، زوينج-كراش! زوينج-كراش!. ومحدثة صوتاً مضاعف الرهبة عند نزولها على الطريق الإسفلتي. المئتا ياردة الفاصلة تسمح لك بأن تقف بكل أمان وتشاهد أعمدة التراب والدخان الأسود تنبثق قافزة في الهواء لتنتصب كالأشجار السحرية. وقد قضى أبالستنا الأشقياء معظم اليوم متكورين في الحفر الفردية التي جرفوها سلفاً على طرف الخنادق. وقد أصيب منهم أقل مما كنا نتوقع، وظل الاستحكام يعلو باستمرار، حائطاً من البيتون بسماكة قدمين، مع سوارين لرشاشين آليين ومدفع ميدان خفيف. وكان الإسمنت يسلح بالتخوت الحديدية القديمة، التي كانت في الظاهر الحديد الوحيد الذي أمكن وضع اليد عليه.

٧
الغارة الليلية

في عصر أحد الأيام أخبرني بنيامين أنه يريد خمسة عشر متطوعاً. الهجوم على الحصن الفاشيّ الذي أُلغي في المرة الماضية سيعاد تنفيذه الليلة. طليت بالزيت الطلقات المكسيكية العشر التي عندي، ولطخت حربة بندقيتي (فهي تشي بوجودك إذا أصدرَت بريقها)، وصررت قطعة كبيرة من الخبز، وثلاثة إنشات من القديد الأحمر، وسيجاراً أرسلتْه زوجتي من برشلونة كنت أدّخره منذ زمن طويل. ثم وزعوا القنابل اليدوية، ثلاثاً لكل فرد. لقد نجحت الحكومة الإسبانية أخيراً في إنتاج قنبلة لائقة. كانت على مبدأ قنبلة «الميلز» لكن بدبوسين بدلاً من واحد. وبعد أن تنزع الدبوسين لديك سبع ثوانٍ قبل أن تنفجر. السيّئ فيها أن أحد الدبوسين كان شديداً والآخر مفرط الرخاوة، بحيث أن لك الخيار بين إما أن تدع القنبلة بدبوسيها، وتتعرض للعجز عن الاستفادة منها عند الاضطرار، وإما أن تنزع الدبوس الشديد سلفاً وتكون عرضة دائماً لانفجار القنبلة في جيبك. لكنها كانت قنبلة جيدة التشكيل عند الإمساك بها لرميها.

قبيل منتصف الليل بقليل قاد بنيامين الخمسة عشر منّا إلى تورّي فابيان. كان المطر يهطل منذ الغروب. الخنادق الزراعية امتلأت بالمياه إلى الحافة، وكلما تعثرتَ في أحدها غطست في المياه إلى خصرك. وفي الظلام الحالك وتحت المطر المنهمر تكتل الرجال في ساحة المزرعة ينتظرون. خاطبَنا كوب بالإسبانية أولاً ثم بالإنجليزية، شرح لنا خطة الهجوم. كان الخط الفاشي هنا يرسم زاوية، والمقرر أن نهاجم

المتاريس من ركن تلك الزاوية. والمقرر أن يقوم حوالي الثلاثين منا، نصفهم من الإنجليز والنصف من الإسبان بقيادة يوركي روكا، قائد فصيلنا ([باتليون]، وكان في الميليشيات يتألف من حوالي أربعمئة رجلاً)، وبنيامين. بالزحف وقطع الأسلاك الشائكة الفاشية. ثم يرمي يوركي القنبلة الأولى إشارةً لنا، فعلى بقيتنا أن يرسلوا وابلاً من القنابل، وأن نُجلي الفاشيين عن المتاريس ونحتلها قبل أن يتمكنوا من النجدة. وفي الوقت ذاته من المقرر أن يقوم سبعون من رجال الصاعقة بمهاجمة الموقع الفاشي التالي. الواقع على بعد مئتي ياردة إلى يمين الأول، والمتصل به بخندق مراسلات. وتحرُّزاً من إطلاق النار على بعضنا في الظلام تقرر أن نضع مناديل بيضاً على أذرعتنا. وفي تلك اللحظة وصل مراسل ليبلغنا بأنه لم تكن هناك مناديل بيض. وارتفع صوت من بين العتمة يقترح حلاً: «ألا يمكننا أن نطلب من الفاشيين أن يعتضدوا هم بمناديل بيض؟»

مازال علينا ساعة أو ساعتان للانتظار. كانت أرضية الطابق العلوي من الحظيرة فوق إسطبل البغال مهدمة بفعل قنابل المدفعية لدرجة أنه لايمكنك التحرك في أرجائها بدون سراج. نصف الأرضية هدمته القنابل الساقطة فكان السقوط منها يصل إلى عمق عشرين قدماً إلى الحجارة تحتنا. وقد عثر أحدنا على معول فقرص به أحد ألواح خشب الأرضية، وبعد بضع دقائق كانت نيران التدفئة موقدة وألبستنا تجف وتتبخر المياه منها. وأحضر واحد آخر شَدّة من أوراق اللعب. ثم سرت إشاعة من تلك الإشاعات الغامضة التي تُبتلى بها كل الحروب - وجرى تداولها بيننا بسرعة ومفادها أن القهوة بالبراندي سوف توزع علينا بعد قليل. فتقاطرنا نزولاً على السلم المتهاوي الذي يكاد ينقضّ، وأخذنا نجول ضمن الباحة المعتمة، نستعلم عن مكان وجود القهوة. وبدلاً منها جمعونا. واصطففنا رتلاً أحادياً. ثم انطلق يوركي وبنيامين مسرعين في الظلام، وتبعهم سائر من بقي منا.

كان المطر مايزال يهطل بغزارة، لكن الرياح هدأت قليلا. فلا تَسل عن الطين. أصبحت الدروب بين حقول الشمندر سلسلة من الكتل القاسية اللزجة كالعمود المشحم، مع برك ضخمة في كل مكان. وقبل أن نصل إلى حيث نغادر خطوطنا كان كل واحد منا قد تزحلق عدة مرات وتلوثت بنادقنا بالطين. وفي فرجة المتاريس كانت زمرة صغيرة من الجند، هي احتياطينا الظهير، بانتظارنا، والطبيب وصفٌّ من المحفّات. تسرّبنا من الفتحة في المتاريس لنخوض في أخدود آخر من أخاديد الري. سبلاش، جرجل! مرة أخرى المياه إلى خصرك والوحل اللزج يتسرب من أعلى حذائك. وعلى الأعشاب في الخارج كان يوركي ينتظر إلى أن مررنا جميعاً. ثم انحنى إلى أن كاد يصل الأرض، وأخذ يتقدم ببطء وهو يحبو. متاريس العدو كانت على بعد مئة وخمسين ياردة. والفرصة الوحيدة للوصول إلى هناك كانت بالتحرك بلا ضوضاء.

كنت في المقدمة مع يوركي وبنيامين. ظهورنا محنية لكن وجوهنا مرفوعة، نزحف في الظلام المطبق بخطوات كانت تبطئ كلما تقدمنا. المطر يضربنا ضربات خفيفة على وجوهنا. وحين نظرت إلى الخلف تمكنت من رؤية الرجال الذين كانوا أقرب إليّ، كتلة من الأشخاص المحدودبة مثل نبتات فطر سوداء كبيرة تتحرك ببطء إلى الأمام. لكنني كلما رفعت رأسي كان بنيامين، أقرب الرجال إليّ، يهمس غاضباً في أذني بإنجليزية ركيكة: 'أبقِ الرأس تحت!'. كنت أستطيع أن أخبره بأنه ليس من داعٍ للقلق. لقد تعلمت بالتجربة أنك في الليلة المظلمة لاتستطيع رؤية رجل على بعد عشرين خطوة. وأنه كان الأكثر أهمية المسير بهدوء. فإذا سمعوا منا أي حسيس قضوا علينا. لايكون عليهم إلا أن يرشقوا العتمة برشاشاتهم، ولايكون أمامنا إلا أن نهرب بأرواحنا أو نذهب في المذبحة.

لكن يستحيل تقريباً السير بهدوء على الأرض الموحلة. افعل ماشئت فإن قدميك ستغوصان في الطين، وحين ترفع إحداها يخرج صوت الامتصاص سلاب–

سلاب، سلاب-سلاب. والأنكى أن الريح سكنت، فكانت الليلة صامتة بالرغم من استمرار نزول المطر. والأصوات أصبحت تسير إلى مدى بعيد. وقد مرت لحظة رهيبة حين ارتطمت قدمي بعلبة معدنية فخلت أن كل فاشي بحدود أميال لاشك سمعها. لكن لم يصدر أي صوت، ولا طلقات. ولا حركة في الخطوط الفاشية. تابعنا الزحف بأبطأ من ذي قبل. لاأستطيع أن أنقل لكم مدى لهفتي على الوصول إلى هناك. الوصول فقط إلى مسافة تسمح باستخدام الرمانات اليدوية قبل أن يحسّوا بنا!. في مثل هذه الأوقات لاينتابك أي خوف، فقط لهفة كبيرة يائسة لاجتياز الأرض الفاصلة العائقة. وقد شعرت بذات الشعور حين كنت أتعقب حيواناً برياً، الرغبة الممضّة في الوصول إلى مدى مُجدٍ، ونفس اليقين، مثل يقين الأحلام، بأن ذلك محال. كم استطالت تلك المسافة!. أعرف تلك البقعة تماماً، إنها لاتزيد عن مئة وخمسين ياردة، ومع هذا بدت أطول من ميل. حين تكون تحبو بذلك البطء تصبح واعياً، مثل وعي النملة، مدى التنوع الشديد في تفاصيل الأرض؛ البقعة اللطيفة من المرج هنا، البقعة اللعينة من الوحل الدّبق هناك، أجمة القصب المتكاثفة التي يجب تجنبها، كومة الحصى التي تكاد تحملك على اليأس من إمكان اجتيازها بدون صوت.

لقد قضينا في هذا الزحف دهوراً حتى لظننت بأننا تُهنا. ثم بدا في الظلام خطان رفيعان متوازيان أشد حلكةً. هذه هي الأسلاك الشائكة الخارجية (فقد نصب الفاشيون خطين من الأسلاك). ركع يوركي على ركبتيه وأخذ يتحرى جيوبه. كان عنده قطاعة الأسلاك الوحيدة؛ سنِب، سنِب. ورفعنا السلك المتدلي ونحيناه جانباً بلطف. انتظرنا الرجال خلفنا إلى أن اقتربوا. بدا أنهم يثيرون أكبر ضجة مخيفة. لم يعد يفصلنا عن المتاريس الفاشية أكثر من خمسين ياردة. إلى الأمام، مطأطئين، نحبو حبواً. خطوات مُسترَقَة استراقاً. تنزل بقدمك بلطف كالقطة تقترب من فأر؛ ثم توقف للتنصت، ثم خطوة أخرى. رفعت رأسي مرة واحدة فرفع بنيامين يده

ووضعها على رقبتي ودفعها بقوة. كنت أعرف أن الأسلاك الداخلية لاتبعد أكثر من عشرين ياردة عن الاستحكامات. وبدا لي من غير المعقول أن يتمكن ثلاثون رجلاً من الوصول إلى هناك بدون أن ينكشفوا. لهاثنا وحده يكفي للوشاية بنا. بالرغم من هذا وصلنا. الاستحكامات الفاشية أصبحت مرئية الآن، مرتفع حالك يخيم فوق رؤوسنا. وركع يوركي مرة أخرى وقطع الأسلاك؛ سنِب، سنِب. ليس من طريقة لقطعها على الساكت!

هذا هو السلك الداخلي. مرقنا من تحته على أربع وبأسرع مانستطيع. إذا كان لدينا من الوقت مانصطفّ فيه جميعاً فهذا كل مانريد. زحف يوركي وبنيامين أماماً وإلى اليمين. لكن الرجال وراءنا، وكانوا منتشرين على نسق، اضطروا إلى المرور من الثغرة الضيقة بين الأسلاك بالرتل الأحادي. في تلك اللحظة بالذات لمعت الدنيا وبدأت الفرقعة من الاستحكامات الفاشية. لقد لاحظَنا الحرس أخيراً. ركع يوركي على ركبة واحدة ولوح بذراعه من فوق رأسه ، وانفجرت قنبلته وراء الاستحكام. فوراً، وبأسرع مما يظن المرء أنه بالإمكان سمعنا هدير النيران، عشر، أو عشرون بندقية انطلقت معاً من الاستحكامات الفاشية. لقد كانوا بانتظارنا بعد كل شيء! وفوراً أصبح يمكنك أن ترى كل كيس من أكياس الرمل في تلك الإضاءة المتوهجة. الرجال من ورائنا كانوا يرمون رماناتهم وبعضها كان يسقط قبل الاستحكامات. وكل فتحة تسديد في السور كانت تبصق اللهب في رشقات متتالية. إنه لمن الكريه أن تكون عرضة للنار في الظلام – كل لهب يخرج من فوهة بندقية يبدو أنه موجه خصيصاً إليك وحدك – لكن القنابل اليدوية كانت الأسوأ أثراً. ولايمكنك تصور فظاعتها إلا إذا وجدتَ واحدة منها تنفجر بالقرب منك في الظلام، ففي النهار ليس ثمة إلا الفرقعة والانفجار، أما في الليل فيضاف إلى هذا الوهج الأحمر الذي يكاد يعمي البصر. كنت قد ارتميت على الأرض على جنبي على الطين الدبق مع الرشقة

الأولى، أصارع طوال الوقت بوحشية دبوس القنبلة في يدي. كان اللعين يرفض الانتزاع؛ وبعد لأي اكتشفت أنني كنت أدوّره بالاتجاه الغلط. انتزعت الدبوس، ونهضت على ركبتيّ، وقذفت الرمانة، وألقيت بنفسي على الطين ثانية. انفجرت القنبلة إلى اليمين، خارج الاستحكام؛ لقد أفسد الرعب تصويبي. وفي اللحظة ذاتها انفجرت رمانة أخرى أمامي مباشرة، قريبة بحيث أنني شعرت بحرارة الانفجار. بسطت نفسي على الأرض بقدر ماأستطيع، ونزل وجهي على الطين بقوة آذت عنقي حتى لظننت أنني جرحت. ومن بين الضوضاء سمعت صوتاً من خلفي يقول بهدوء، بالإنجليزية: «لقد أُصِبت». والواقع أن القنبلة جرحت عدة أفراد من حولي دون أن تمسني بأذى. ونهضت على ركبتي ورميت قنبلة ثانية، لم أعرف أين حطّت.

كان الفاشيون يطلقون النار، وجماعتنا من الخلف يطلقون النار، وأنا كنت على إدراك حاد بأنني بين النارين. وشعرت بلهيب طلقة وتبينت أن رجلاً كان يطلق النار من ورائي مباشرة. وقفت وصحت به: 'لاتطلق النار عليّ يامغفل!' وفي اللحظة ذاتها لمحت بنيامين على بعد عشر أو خمس عشرة ياردة إلى اليمين يشير لي بذراعه. أسرعت إليه. وهذا يعني المرور في طريق فتحات الإطلاق في الاستحكامات، وأثناء مسيري إليه ألصقت يدي اليسرى على وجنتي؛ وهو عمل غبي – يقوم به الواحد وكأن يده تستطيع إيقاف الرصاصة القادمة! – لكنني عانيت رعب الإصابة في الوجه. كان بنيامين جاثياً على إحدى ركبتيه وعلى ملامحه تعابير السرور الشيطاني وهو يطلق النار بعناية على ومضات لهب البنادق من مسدسه الآلي. كان يوركي قد خر مصاباً من أول رشقة في مكان بعيد عن الأنظار. ركعت بجانب بنيامبن، ونزعت الدبوس من ثالث الرمانات عندي ولوحت بها ورميتها. آآ!.. ليس من مجال للشك هذه المرة. لقد حطت القنبلة داخل الاستحكام، على الزاوية. قرب عش الرشاش.

بدأت النيران الفاشية تخف فجأة. فهبّ بنيامين واقفاً وأوعز: «إلى الأمام! هجوم!» وانطلقنا مندفعين صعوداً على السفح القصير المنحدر الذي يقع عليه الاستحكام. أقول «اندفعنا»، والأصح أنها «تخبّطنا»؛ والحق أنك لاتستطيع التحرك بسرعة حين تكون مبللاً يعلوك الطين من الرأس إلىالقدم، ومثقلاً ببندقية ثقيلة ذات حربة ومئة وخمسين خرطوشة. كنت موقناً بوجود فاشيٍ بانتظاري في الأعلى، ولأمر ما لم أتخيله يطلق النار عليّ، بل يحاول فقط أن يوصل إليّ حربته. بدأت أحس سلفاً بكيفية تصالُب حربتينا، وتساءلت تُرى هل سيكون ذراعه أقوى من ذراعي. لكن لم يكن هناك فاشيّ بالانتظار. وانتابني شعور غامض بالارتياح، ووجدت أنه استحكام واطئ، وأن أكياس الرمل تتحمل الأقدام النازلة بقوة، مع أن القاعدة أنها صعبة الاجتياز. كان كل شيء في الداخل محطماً، والعوارض متناثرة، وقطع الأوراليت في كل الأنحاء. لقد هدمت قنابلنا كل الأكواخ والتعريشات. ولم نجد أي كائن حي. وفكرت في أنهم قد يكونوا مختبئين في مكان ما تحت الأرض، صحت بالإنجليزية (فلم أكن أستطيع التفكير بأية إسبانية في تلك اللحظة): «اخرجوا من عندكم! استسلموا!» لاجواب. ثم ظهر رجل، شبح مظلل في الضوء الخافت، انزلق من سطح أحد الأكواخ المهدمة واندفع مبتعداً إلى اليسار. فانطلقت وراءه، وأنا أطعن الخواء بحربتي بلا طائل. ومع التفافي حول زاوية الكوخ رأيت رجلاً - لاأعرف ماإذا كان الرجلَ الأولَ ذاته الذي رأيته من قبل - يهرب صاعداً في خندق الاتصال الذي يؤدي إلى المراكز الأخرى. ولابد أنني كنت شديد القرب منه لأنني كنت أراه بوضوح. كان حاسر الرأس، ويبدو لايرتدي شيئاً إلا بطانية كان يمسك بها وهي على كتفيه. ولو أطلقت النار لمزقته قطعاً. لكننا، خشية من إصابة بعضنا بعضاً، أُمِرنا باستخدام الحراب فقط داخل الاستحكامات، وعلى كل الأحوال لم تخطر ببالي فكرة إطلاق النار. وبدلاً من هذا قفز تفكيري رجوعاً عشرين سنة إلى الوراء، إلى مدرب الملاكمة في مدرستنا، وهو يعرض عليّ بإيماءات واضحة كيف طعنَ أحدَ

الأتراك في الدردنيل. قبضت على أخمص بندقيتي ووجهت طعنة باتجاه ظهر الرجل. لكنه كان خارج متناول ذراعي قليلاً. طعنة أخرى، وهو مايزال بعيداً. وتابعنا على هذا المنوال لمسافة قصيرة، هو يندفع صعوداً في الخندق، وأنا وراءه على الأرض من فوق، أطعن باتجاه لوحي كتفه دون أن أنجح في الوصول إليها - إنها ذكريات مضحكة عند الرجوع إليها الآن، بالرغم من أنني لاأظن أنها كانت كذلك عنده هو.

كان طبعاً يعرف الأرض أكثر مني، وسرعان ما أفلت ورجعت عن صيدي. وحين عدت كان الموقع يعج بالرجال المتصايحين. وقد خفَتَ ضوضاء الطلقات بعض الشيء. الفاشيون ظلوا يصلوننا نيراناً حامية من ثلاثة جوانب، لكنها كانت قادمة من مسافة أبعد. لقد أجليناهم إلى الوراء للوقت الحاضر. أذكر قولي بلهجة العارف الخبير: «نستطيع المحافظة على هذا الموقع لنصف ساعة، لا أكثر». لاأدري كيف اخترت نصف الساعة. إذا نظرت إلى الاستحكام اليميني رأيت مالايحصى من الومض الأخضر الصادر من فوهات البنادق تطعن الظلام. لكنها كانت بعيدة جداً إلى الخلف، مئة أو مئتا ياردة. أصبحت مهمتنا تفتيش الموقع ونهب أي شيء يستحق العناء. وقد كان بنيامين وبعض الأفراد قد بدأوا التنقيب بين أنقاض كوخ كبير في وسط الموقع. وترنح بنيامين وهو يجر حبل أحد صناديق الذخيرة وهتف متحمساً:

«ذخائر يارفاق! هناك الكثير من الذخائر!»

«لانريد ذخائر، نريد بنادق».

كان الصوت الذي أجابه في الظلام على حق؛ فنصف البنادق لدينا قد استعصى بالوحل والطين وأصبح غير صالح للاستعمال. نعم يمكن تنظيفها، ولكن من الخطر نزع مغلاق البندقية في الظلام؛ إذ ستضعه في مكان ما، ثم تفقده. كان معي مصباح كهربائي يدوي استطاعت زوجتي أن تشتريه لي من برشلونة، ولم يكن لدينا

جميعاً من ضوءٍ سواه. تابع بضعة الرجال الذين يحتكمون على بنادق صالحة إطلاقَ النار على مهل على الومضات البعيدة. لم يجرؤ أحد على الإطلاق الغزير، لأن أحسن البنادق كان عرضة للاستعصاء إذا زادت حماوته. كان حوالي الستة عشر منّا داخل الاستحكامات، من بينهم واحد أو اثنان جرحى. كما استلقى عدد من الجرحى، من الإنجليز والإسبان، في الخارج. وانشغل باتريك أوهارا، وهو إيرلندي من بلفاست كان التحق بتدريبات في الإسعاف، في الذهاب والمجيء حاملاً لفائف من الضمادات، مضمداً بها الجراح ومتعرضاً لإطلاق النار كلما عاد إلى الاستحكام، بالرغم من نداءاته اليائسة «أنا من .P.O.U.M أنا منكم!».

بدأنا التفتيش في الموقع. كان ثمة عدة قتلى لكنني لم أتوقف لفحصهم. كنت أبحث عن الرشاش. لقد ظللت طوال الوقت الذي كنا مستلقين فيه في الخارج أتساءل لماذا لم يُستعمل الرشاش. أشعلت مصباحي داخل عش الرشاش. وأصبت بخيبة مريرة! السلاح لم يكن هناك. كانت قاعدته هناك، وعدة صناديق من الذخيرة وقطع التبديل، لكن الرشاش نفسه مفقود. أكيدٌ أنهم فكّوا بَراغيه وحملوه عند أول نذير خطر. ولاشك أنهم فعلوا هذا مأمورين. وهذا عمل جبان سيّئ، إذ أنهم لو تركوا الرشاش في موضعه لأبادونا عن بكرة أبينا. وأعمانا الغضب. فقد عقدنا الآمال على الاستيلاء على رشاش.

بحثنا هنا وهناك لكننا لم نجد شيئاً ذا قيمة. كان هناك كميات من القنابل الفاشيّة ملقاة هناك – وهي من نوع أردأ من قنابلنا، تكون تهيئتها بنزع خيط فيها – وضعت زوجاً منها في جيبي تذكاراً. وكان صعباً ألا تصاب بالصدمة من الأحوال في الخنادق الفاشيّة. فالملابس البديلة المبعثرة، والكتب، والطعام، والأغراض الشخصية التافهة، لم يكن منها هناك شيء، هؤلاء الأشقياء المجندون تجنيداً، بلا تعويض ولا راتب يبدو أنهم لايملكون إلا بطانياتهم وبضعة كتل زنخة من الخبز. وفي الأعلى

في آخر الاستحكام كان ثمة خندق صغير جزء من سقفه يقع فوق الأرض وله نافذة صغيرة. سلطنا ضوء المصباح من النافذة وصدر عنا فوراً هتاف الفرح، هناك شيء في غلاف جلدي اسطواني، أربعة أقدام طولاً، وست إنشات قطراً، كان مسنوداً إلى الحائط. الظاهر أنه بدن الرشاش. استدرنا بسرعة ووصلنا إلى الباب، لنجد أن المحفظة الجلدية لم تكن لرشاش بل لشيء يعتبر في جيشنا الضعيف التسليح أعلى قيمة. كان تلسكوباً كبيراً، بتكبير لايقل عن ستين أو سبعين ضعفاً، مع حامل قابل للطي. مثل هذا المنظار لايوجد مثيله في جانبنا بطوله من الجبهة، ونحن بأشد الحاجة إليه. أخرجناه بزهو وأسندناه إلى حائط الخندق، لحمله معنا في وقت لاحق.

هنا صاح أحدهم بأن الفاشيين يقتربون. والحق أن ضجة النيران قد احتدّت وأصبحت أعلى. لكن الواضح أن الفاشيين لن يُقدموا على الهجوم المعاكس من اليمين. وإلا اضطروا إلى عبور المنطقة الفاصلة ليهاجموا فيتعرضون لمواقعهم ذاتها. فإن كان فيهم أي تعقل فلابد أن يأتوا من داخل خطوطهم. استدرت إلى الجانب الآخر من الخنادق. كان الموقع إجمالاً على شكل حدوة الفرس والخنادق في الوسط، وكان ثمة استحكام آخر يغطينا من اليسار، وكان يمطرنا بنار غزيرة.لكنها لم تهمنا كثيراً. البقعة الخطرة كانت أمامنا تماماً، حيث لاحماية على الإطلاق. وكان وابل من الطلقات يمرق فوق رؤوسنا تماماً. أكيد أنها صادرة عن المواقع الفاشيّة من مواقع أبعد في الخطوط، فالواضح أن قوات الصاعقة لم تستطع احتلالها في النهاية. وهذه المرة كانت الضجة تصم الآذان. كان الهدير المتواصل بلا انقطاع يصدر عن بنادق كثيرة، وقد كنت اعتدت على سماعه من مسافة أبعد قليلاً، وهذه كانت المرة الأولى التي أكون فيها في صميمه. وهنا طبعاً كانت النيران قد انتشرت على طول خطوط الجبهة لأميال حولنا. كان دوجلاس تومبسون، بذراع جريحة متدلية إلى جانبه لافائدة منها، مستنداً إلى حائط المتراس ويطلق النار بيد واحدة على مصادر وميض الطلقات. وكان بجانبه واحد استعصت بندقيته يذخّر له.

كنا أربعة أو خمسة حول هذا الجانب. وكان واضحاً تماماً ماعلينا فعله. يجب أن نسحب أكياس الرمل من مقدمة المتاريس ونبني منها استحكاماً لحماية الجانب المهدد. وعلينا الإسراع بهذا. كانت الطلقات عالية للوقت الراهن، لكنهم قد ينزلون بها في أية لحظة، وبالنظر إلى الوميض الصادر من حولي قدّرت أن ثمة مئة أو مئتين من الرجال كانوا يواجهوننا. بدأنا خلخلة أكياس الرمل وحملها عشرين ياردة وإلقاءها في كومة كيفما اتفق. كان عملاً مضنياً. فقد كانت أكياساً ضخمة، يزن واحدها قنطاراً [٦٠كغ]، وتتطلب كل درهم من قواك لزحزحة واحدها من موقعه؛ ثم إن الكيس المتعفن قد يتمزق ويتناثر التراب الرطب منه ويغمرك بنثاره، وينزل من قبّتك، ويصعد من أكمامك. أذكر شعوري بالهلع من كل شيء: من الفوضى، والهرج، والظلام، وهدير النيران، والانزلاق إلى الأمام وإلى والوراء في الطين، الصراع مع أكياس الرمل المنبعجة - وطوال الوقت ملازماً بندقيتي، التي لم أجرؤ على تنحيتها خوفاً من أن أفقدها. بل إنني صحت في أحدهم، وكنا نتعثر وبيننا كيس رمل نحمله معاً: «أهذه هي الحرب! أليست لعينة؟» وفجأة قفز رتل من الأشخاص الطوال من على المتراس الأمامي. ومع اقترابهم رأينا أنهم في لباس قوات الصاعقة، فهللنا لمقدمهم، وظننا أنهم جاءوا لنجدتنا. لكن لم يكن إلا أربعة منهم، ثلاثة ألمان وواحد إسباني. وسمعنا في وقت تالٍ ماحلّ بقوات الصاعقة. لم يكونوا يعرفون الأرض، وفي الظلام اقتيدوا إلى المكان الخطأ، حيث حوصروا قرب الأسلاك الفاشية وقتل عدد منهم. أما هؤلاء الأربعة فقد تاهوا عن البقية، لحسن حظهم. كان الألمان لايعرفون كلمة من الإنجليزية، ولا الفرنسية، ولا الإسبانية. فبصعوبة شديدة وكثير من الإيماءات أفهمناهم ما نحن بصدده، ليعاونوننا في بناء المتراس.

والآن أحضر الفاشيّون رشاشاً. كنت تستطيع أن تراه يبصق اللهب على بعد مئة إلى مئتين من الياردات، وكانت الطلقات تمر من فوقنا بفرقعة وحفيف مستمرين. وبعد هنيهة كنا قد نقلنا كمية كافية من أكياس الرمل لتشكيل متراس

بارتفاع الصدر يمكن لبضعة الرجال الموجودين في هذا الجانب أن يجثوا وراءه ويطلقوا نيرانهم. كنت راكعاً وراءهم. ومرت قنبلة هاون، تئز، وسقطت في المنطقة الفاصلة. وهذا خطر آخر، لكنهم بحاجة إلى عدد من الدقائق لكي يسددوا على مدى يصيبنا. خصوصاً وأننا نجحنا في مصارعتنا أكياس الرمل المتوحشة؛ وكان في هذا متعة سيئة من وجهٍ ما: الضجة، والعتمة، والوميض المقترب، ورجالنا يصلون النيران ردّاً على كل ذلك. أصبح لدى المرء من الوقت مايمكّنه حتى من قليل من التفكير. وأذكر تساؤلي عما إذا كنت أشعر بالخوف، وقراري بأنني لم أكن كذلك. بينما حين كنت في الخارج، ربما كان الخطر عليّ أقل، كنت أكاد أتهاوى من الخوف. وصدرت صيحة أخرى فجأة بأن الفاشيين يطبقون علينا. هذه المرة لم يكن في الأمر أي شك، ومضات البنادق كانت أقرب بكثير. حتى إن إحداها لم تكن أبعد من عشرين ياردة. الواضح أنهم كانوا يصعدون في خندق الاتصالات. ومن على بعد عشرين ياردة يكون المدى سهلاً للرماية بالرمانات؛ كان هناك ثمانية أو تسعة منا متجمعين معاً، فرمانة واحدة إذا أُحسن وضعها تكفي لتمزيقنا قطعاً. وقد بادر بوب سميلّي والدماء تسيل على وجهه بالنهوض على ركبتيه وألقى بقنبلة. وتكورنا على أنفسنا بانتظار الفرقعة. وأخذ الفتيل يئز بضوء أحمر والرمانة سابحة في الهواء، لكنها لم تنفجر. (ربع هذه القنابل على الأقل كان معطوباً). لم يبق عندي إلا القنبلتان الفاشيّتان ولم أكن متأكد من كيفية معالجتهما. صحت بالآخرين سائلاً ماإذا كان لدى أحد قنبلة متبقية. مدّ دوجلاس مويل يده إلى جيبه ومرّر لي واحدة. رميتها وألقيت بنفسي منكباً على وجهي. وبإحدى ضربات الحظ التي تحدث مرة في السنة تمكنت من وضع القنبلة حيث كانت البندقية تومض بالضبط. وسمعنا فرقعة الانفجار، وفي اللحظة ذاتها الصراخ والعويل. لقد نلنا واحداً منهم على أية حال؛ لاأعرف ما إذا كان قُتل. لكن المؤكد أنه جُرح جرحاً بليغاً. يااَلشقيّ البائس، ياللشقي البائس! لقد شعرت بأسى غامض وأنا أسمع عويله. لكنني في اللحظة

ذاتها، وعلى الضوء الخافت الصادر عن وميض البنادق رأيت، أو خُيِّل إليَّ، شبحاً يقف بحيث تضيئه البندقية اِلتي كانت تطلق. سددت بندقيتي وأرسلت طلقة؛ صرخة أخرى، لكنني أظن أنها من آثار القنبلة. رمينا عدة قنابل أخرى، وكانت الومضات التي رأيناها بعدئذ صادرة من أمكنة أبعد بكثير، مئة ياردة أو تزيد. إذن فقد دحرناهم إلى الخلف، موقتاً على الأقل.

كان الجميع يشتُم، ويَعجب لماذا بحق الجحيم لم يدعمونا ببعض الظهير. كنا نستطيع برشاش خفيف، أو بعشرين بندقية نظيفة ، إيقاف فوج كامل. في هذه اللحظة عاد بادي دونوفان، معاون بنيامين في القيادة، وقد أُرسل إلى المؤخرة للأوامر، وصعد الاستحكام.

«هيّا، أخرجوا جميعاً! انسحبوا جميعاً حالاً!»

«ماذا؟»

«انسحبوا، أخرجوا جميعاً».

«لماذا؟»

«إنها الأوامر، رجوعاً إلى خطوطنا وبسرعة».

وقد بدأ الرجال بتسلق الاستحكام الأمامي بالفعل. بضعة منهم كانوا يجاهدون بصناديق الذخيرة الثقيلة. ومر بخاطري فوراً التلسكوب الذي خلفته مسنداً إلى الحائط، على الجانب الآخر من الموقع. لكنني في تلك اللحظة رأيت أن الأربعة من قوات الصاعقة يتصرفون كأنهم جاءتهم أوامر القدر الغاشم، وهم يهرولون صعوداً في خندق الاتصال بين المواقع، الذي ينتهي عند الفاشيين، والذي، لو أكملوه، لقادهم إلى الموت المحتم. كادوا يختفون في الظلام، أسرعت خلفهم بقدر ماأستطيع. وأنا أحاول تذكّر معنى "عودوا" بالإسبانية، وأخيراً ناديت: «أتْرايس!، أتْرايس!» وربما

أدت ما هو قريب من المعنى، فقد فهمها الإسباني وعاد بالآخرين. وكان «بادي» في الاستحكام، فناداني:

«تعال، وبسرعة».

«والتلسكوب؟»

«كذا... في التلسكوب! بنيامين ينتظر في الخارج».

تسلقنا خارجين من المكان، وكان بادي يرفع السلك الشائك لأتمكن من المرور. ومانإن خرجنا من مأمننا في الاستحكام الفاشي حتى انصبت علينا نيران الشياطين، التي بدا أنها قادمة من كل الاتجاهات. ولا شك بأن جزءاً منها كان قادماً من جانبنا نحن! لأن الجميع كانوا يطلقون النار على طول خط الجبهة المجاور. ومهما كان الاتجاه الذي نتخذه كان يواجهنا سيل من الطلقات ينصبّ حولنا؛ فأصبحنا نُساق من هنا إلى هناك في الظلام مثل قطيع الغنم. ولم يسهّل علينا الحياة كوننا نجر وراءنا مما غنمناه صندوقاً من الذخيرة - واحداً من التي تتضمن ١٧٥٠ طلقة وتزن قنطاراً [٦٠كغ]، إلى جانب صندوق من الرمانات وبضع بنادق فاشيّة. وبعد بضع دقائق، وبالرغم من أن المسافة بين استحكاماتنا واستحكاماتهم لاتزيد عن مئتي ياردة، ومن كون معظمنا يعرف الأرض كما يعرف راحة كفه، فقد تُهنا تماماً. وجدنا أنفسنا نخوض في حقل من الطين، لانعرف إلا أن الطلقات تنصب علينا من الجانبين. لم يكن القمر طالعاً لنهتدي به، لكن الليل بدأ ينكشف شيئاً فشيئاً. كانت خطوطنا تقع إلى الشرق من هويسكا؛ وكنت أريد أن نبقى حيث نحن إلى أن يبزغ أول خيوط الفجر من الشرق فنعرف اتجاهنا؛ لكن الآخرين كانوا ضد هذا. تابعنا الخوض قُدُماً، مغيرين اتجاهنا عدة مرات، ومتناوبين حمل صندوق الذخيرة. وأخيراً لمحنا الخط الواطئ للاستحكام يلوح أمامنا. قد يكون خطنا وقد يكون الخط الفاشي، إذ لم يكن لدى أحد أقل فكرة عن وجهتنا. زحف بنيامين على

بطنه خلال أجمة قصب طويل مبيض. إلى حوالي عشرين ياردة من الاستحكام وطلب التعارف. فأجابنا صوت بكلمة «p.o.u.m.». نهضنا جميعاً على أقدامنا، وتلمسنا طريقنا حوله، وانزلقنا مرة أخرى في الخندق الزراعي - سبلاش، جرجل! - ثم وصلنا مأمننا.

كان كوب يقف في الداخل مع بضعة إسبان. والطبيب والمحفات قد غادروا. يظهر أن كل الجرحى جرى إخلاؤهم عدا يوركي وأحد رجالنا، واسمه هيدلستون، كانا مفقودين. كان كوب يتمشى جيئة وذهاباً، شديدَ الشحوب؛ لم يكن يلقي بالاً إلى الطلقات التي تنصبّ فوق المتراس الواطئ وتفرقع قريباً من رأسه. معظمنا جاثياً وراء المتراس محتمياً. كان كوب يغمغم بالإسبانية «Jorge! Cogño! Jorge!» ثم بالإنجليزية الركيكة: «راح يوركي! فظاعة، ياللفظاعة!» كان يوركي صديقه الشخصي ومن خيرة ضباطه. التفت إلينا فجأة وطلب خمسة متطوعين، إنجليزيان وثلاثة إسبان، للخروج والبحث عن المفقودين. تطوعت أنا ومويلي وثلاثة إسبان.

ماإن خرجنا حتى بدأ الإسبان يغمغمون بأن ضوء الصباح اشتد بصورة خطيرة. وكان هذا صحيحاً؛ فالسماء تلونت بالأزرق الداكن. وكان الهرج والمرج يعلو من الخطوط الفاشية. واضح أنهم عادوا لاحتلال المكان بقوات أعظم بكثير من ذي قبل. وكنا على بعد ستين أو سبعين ياردة من خنادقهم حين رأونا أو سمعونا، لأنهم أرسلوا زخات قوية من النيران جعلتنا ننكبّ على وجوهنا. بل إن أحدهم رمى قنبلة من وراء المتراس، وهي علامة أكيدة على الاهتياج والذعر. كنا منبطحين على العشب، بانتظار فرصة للتحرك حين سمعنا، أو خيّل إلينا أننا سمعنا - لاأشك أنها كانت محض أوهام، لكنها بدت حقيقية في حينها - أصوات الفاشيين أقرب بكثير من المواقع. لقد خرجوا منها لملاقاتنا. صحت بـ مويل: «النجاة!»، ونهضت واقفاً. ياللَسماء كيف ركضت! لقد ظننتُ قبلها بأنك في الليل لاتستطيع الركض حين تكون

مطيّناً من الرأس إلى القدم وتثقل كاهلك البندقية والذخائر، وقد كشفت الآن أنك تستطيع الركض أبداً إذا ظننتَ أن وراءك خمسون أو مئة مسلح يطلبونك. لكن، إذا كنت أستطيع الركض بسرعة، فغيري يستطيع الركض بأسرع! فقد لمحت، وأنا أكاد أطير، أشياء تتجاوزني كأنها الشهب. كانوا الثلاثةَ الإسبان، وكانوا قبلاً ورائي، فلم يتوقفوا إلا في موقعنا حيث تمكنت من اللحاق بهم. والحق أن أعصابنا كانت مزقاً. ولأنني كنت أرى أنه في نصف الضوء لايمكن تمييز الواحد المفرد، ويسهل تمييز الخمسة المتجاورين، لذا عدت إلى البحث وحدي. وتمكنت من الوصول إلى الأسلاك الخارجية وفتشت المنطقة جيداً بقدر استطاعتي التي لم تكن جيدةً جداً لأنني كنت مضطراً للبقاء منبطحاً. لم أجد أثراً ليوركي أو هيدلستون، فزحفت راجعاً. وعلمنا في وقت لاحق أنهما أُخليا إلى محطة الإسعاف في وقت مبكر؛ يوركي كان جرحه خفيفاً في الكتف. أما هيدلستون فقد أصيب بجراح فظيعة - طلقة ضربت ذراعه اليسرى صعوداً فحطمتها في عدة أماكن؛ وبينما كان مستلقياً عاجزاً على الأرض انفجرت قنبلة بالقرب منه فمزقت أجزاء أخرى من بدنه. ويسرني أن أقول إنه شفي. وأخبرني بعدئذ أنه زحف مسافة طويلة وهو مستلقٍ على ظهره، ثم تمسّك بأحد الجرحى الإسبان وتعاونا إلى أن وصلا.

طلع النهار الآن. وعلى طول الجبهة وبعرض عدة أميال حولنا كانت النيران ماتزال ترعد وتهدر بلا معنى، كالمطر يستمر في الهطول بعد العاصفة. أذكر المظهر البائس لكل شيء، مستنقعات الطين، أشجار الحور الباكية، الماء العكر في قاع الخنادق، ووجوه الرجال المنهكة، بلا حلاقة، ملطخة بالوحل، ومسودّة بالدخان. حين عدت إلى مغارتي وجدت الرجال الثلاثة الذين يشاركونني إياها يغطون بالنوم. لقد ألقوا بأنفسهم بكل تجهيزاتهم حتى أنهم تمسكوا ببنادقهم. كل شيء كان مبتلاً، داخل الحفرة وخارجها. وبعد بحث طويل تمكنت من تجميع بعض قطع

الأخشاب الجافة لإشعال نار صغيرة. وأخيرا بدأت بتدخين السيجار الذي كنت أدَّخره، والذي كان عجيباً أنه لم يتكسر خلال أحداث الليل.

علمنا بعدئذ أن العملية كانت ناجحة إلى الحد الذي تنجح فيه أمثالها. فهي لم تكن إلا إغارة لحمل الفاشيين على سحب الجنود من الجانب الآخر من هويسكا، حيث كان الأناركيون يهاجمون من جديد. قدّرتُ أن الفاشيين أنزلوا مئة رجل أو مئتين في الهجوم المعاكس، لكن أحد الفارّين أخبرنا في وقت لاحق أنهم كانوا ستمئة. وأقول إنه كاذب - فالفارّون يكذبون كثيراً، لأسباب واضحة..وقد تحسرت كثيراً على التلسكوب. وتفكيري بفقدان تلك القطعة الجميلة من الغنائم مازالت تمضّني حتى الآن.

٨
ذكريات الحياة على الجبهة

الجو أخذ يتحسن يوماً بعد يوم، حتى الليالي أصبحت دافئة يمكن تحمّلها. وعلى شجرة شذبتها طلقات الرصاص أمام استحكاماتنا أخذت عناقيد كثيفة من الكرز بالتكوّن. لم يعُد الاستحمام بمياه النهر ذلك العذاب الأليم، وأصبح شبه لذيذ. الزهور البرية باللون الوردي وبحجم الفنجان انتشرت على حفر القنابل حول تورّي فابيان. وراء الخطوط كان يمر بك فلاحون يضعون الزهور البرية وراء آذانهم. كانوا يخرجون في العشيّ بشباك خضراء يصطادون الفِرّي والسُمّن. تمُد الشبكة فوق رؤوس الأعشاب وتستلقي وتصدر أصواتاً تشبه نداء أنثى السُمّن. فيأتيك كل الذكور الذين في مدى الأسماع، وحين يصير السرب تحت الشبكة ترميه بحجر لإخافته، فيقفز في الهواء ويعلق في الشبكة. الظاهر أنه لايُمسَك إلا الذكور، وهذا مما صُدمت له وعددته من قلة الإنصاف.

أصبح ثمة قطاع للأندلسيين بجانبنا على الخطوط. لاأدري بالضبط كيف وصلوا إلى الجبهة. الإشاعة المتداوَلة أنهم نزحوا من مالاقا بسرعة كبيرة جعلتهم ينسون أن يتوقفوا في فالنسيا؛ لكن هذه الرواية مصدرها، بالطبع، الكاتالانيون، الذين يقال إنهم ينظرون إلى الأندلسيين بتَعالٍ كأنهم من عرق نصف همجي. أكيد أن الأندلسيين كانوا على درجة كبيرة من الجهل. لايقرأ منهم إلا القليل النادر، وبدا أنهم لايعرفون الشيء الوحيد الذي يعرفه كل إسباني؛ وهو الحزب الذي ينتمون إليه. كانوا يظنون أنهم أناركيون، لكنهم لم يكونوا متأكدين تماماً؛ ربما كانوا شيوعيين. وكانوا نكدي المزاج، عليهم جلافة الريفيين، ربما كانوا رعاةً أو عمالاً زراعيين من كروم الزيتون، وجوههم لوحتها عميقاً الشمس الحارقة في أقصى

الجنوب. كانوا ذوي فائدة قيمة لنا لأنه كان لديهم مهارة فائقة في لف السجائر من التبغ الإسباني الناشف. كان توزيع السجائر قد توقف لكن كان يمكن أحياناً في مونفلوريتي شراء علب من أرخص أنواع التبغ، الذي كان في المظهر والملمس شبيهاً بالقش المفروم. نكهته لم تكن سيئة، لكنه كان من الجفاف بحيث أنك حتى إذا نجحت في لف السيجارة فإن التبغ يتساقط منها فوراً وتبقى بورقة فارغة. أما الأندلسيون فقد كانت لديهم طريقة في زَمّ الأطراف بحيث لايسقط منها شيء.

خرّ إنجليزيان ضحية ضربة الشمس. وأبرز ذكرياتي عن تلك الأيام كانت عن القيظ الشديد عند الظهيرة، والعمل نصف عارٍ في أكياس الرمل محملاً كتفيك مزيداً من العقور على تلك التي خلفتها حرارة الشمس؛ والقمل في ملابسنا وأحذيتنا، التي كانت، فعلاً، تناثرت قطعاً، والصراع مع البغل الذي كان ينقل أطعمتنا ومؤننا، والذي كان لايهتم لإطلاق النار والقنابل، ويطير شعاعاً من أصوات الشظايا الحجرية التي تتطاير في الهواء، ولسعات البعوض (الذي بدأت تباشير موسمه قبل قليل). والجرذان التي كانت وباء عاماً وتقضم حتى السيور الجلدية ومحافظ الذخيرة. لم يكن يحدث شيء إلا حصول بعض الإصابات العرَضية من طلقات القناصة، وقصف المدفعية ، والغارات الجوية على هويسكا بين الحين والحين. وبعد أن اكتست الأشجار بكامل أوراقها، أقمنا للقناصة بعض العرائش على أشجار الحور التي كانت على حدود خطوطنا.

على الجانب الآخر من هويسكا كانت هجماتنا بدأت تفتر. الأناركيون مُنيوا بخسائر ثقيلة ولم ينجحوا تماماً في قطع طريق جاكا. لقد نجحوا في ترسيخ أقدامهم على الجانبين بحيث وضعوا الطريق نفسه تحت مرمى نيران رشاشاتهم فأصبح السير عليه ممتنعاً، لكن الثغرة كانت بسعة كيلومتر فبادر الفاشيون إلى إنشاء طريق غائر، ضمن مايشبه خندقاً عظيم الاتساع، يمكن لعدد من الشاحنات المرور فيه ذهاباً وإياباً. وقد أخبرنا الفارون أن هويسكا تحتوي على كمية وافرة من الذخائر، لكن

المؤن الغذائية شحيحة. فالواضح أن المدينة لن تسقط في أيدينا. بل ربما كان من المستحيل سقوطها بالخمسة عشر ألفاً من الجنود السيِّئي التسليح المتوافرين. وبالفعل سحبت الحكومة في وقت لاحق، في يونيو، قطعات عسكرية من جبهة مدريد وركزت ثلاثين ألفاً من الرجال على هويسكا، مع كمية كبيرة من الطائرات، ولم تسقط المدينة.



حين غادرت بإجازة كنت قد قضيت مئة وخمسة عشر يوماً على خطوط الجبهة، حينئذ بدت لي هذه المدة أكثر أيام حياتي عقماً وسُدى. لقد انضممت إلى الميليشيات لأحارب الفاشيّة، وحتى تاريخه لم أكد أحارب إطلاقاً، بل كنت مجرد موجود سلبي، لم أؤد أي شيء مقابل مخصصاتي إلا معاناة البرد وقلة النوم. ربما كان هذا قَدَر معظم الجنود في معظم الحروب. لكنني إذ أنظر الآن إلى تلك الآونة في منظورها الطبيعي، لاآسف على قضائي إياها إطلاقاً. بل الحق أرجو لو كنت استطعت خدمة الإسبان خدمة أكثر تأثيراً؛ لكن من وجهة النظر الشخصية – من وجهة تطوراتي أنا بالذات – تلك الشهور الثلاثة أو الأربعة التي قضيتها على خطوط الجبهة كانت أقل عبَثاً مما كنت أظن. لقد شكّلت نوعاً من المرحلة الانتقالية في حياتي، تختلف تماماً عن أي شيء حصل قبلها. أو حتى عما سوف يحدث في المستقبل، كما علمتني أشياء لم أكن لأتعلمها بوسيلة أخرى.

النقطة الأساسية هي أنني ظللت طول الوقت معزولاً – لأن المرء في الجبهة كان ينعزل بالكلية تقريباً عن العالم الخارجي، حتى ما كان يحدث في برشلونة كان المرء لايحمل عنه إلا فكرة غامضة – بين أناس يمكن وصفهم عموماً، لكن بحق، بأنهم ثوريون. وكان هذا نتيجة لنظام الميليشيات الذي لم يتغير جذرياً على جبهة الأرَاجون إلا في يونيو ١٩٣٧. الميليشيات العمالية، القائمة على أساس النقابات وكل

منها يتألف تقريباً من أناس يحملون نفس الآراء السياسية، كان من نتيجتها أنها أحضرت إلى مكان واحد كل الأمزجة الثورية في البلاد. إذن فقد انخرطتُ، بالصدفة المحضة كثيراً أو قليلاً، في المجتمع الوحيد في أوروبا الغربية حيث يسود الوعي السياسي والكفر بالرأسمالية أكثر من المعتاد، لا العكس. هنا، فوق، في الأرّاغون، كان المرء بين عشرات الألوف من الناس الذين كانوا، بالرغم من أنهم ليسوا جميعاً من الطبقة العاملة أصلاً، يعيشون على مستوى واحد ويتعاملون على أساس المساواة. نظرياً كانت المساواة كاملة، وحتى عند التطبيق لم تكن بعيدة عن هذا. فيمكن بمعنى ما أن يصح قولُ المرء أنه كان يجرب حالة أولية من الاشتراكية، وأعني بهذا أن المناخ العقلي السائد كان المناخ الاشتراكي. كثير من الدوافع المألوفة في الحياة المتحضرة - العجرفة، التهالك على المال، الخوف من الرئيس، الخ، انعدمت ببساطة. واختفى الانقسام الطبقي المألوف في المجتمع إلى حد لايمكن تخيّله في جو المجتمع الإنجليزي الملوث بالمال؛ لم يكن هناك إلا نحن والفلاحون، وليس من أحد يسيطر على غيره بأنه سيّد عليه. طبعاً مثل هذه الأحوال لايمكن أن تدوم. كانت ببساطة مرحلة موقتة ومحليّة في لعبة كبرى مسرحها سطح الأرض كلها. لكنها ظلت مدةً تكفي لتُحْدث أثراً دائماً في كل من عاناها وخبرها. ومهما شتم المرء وتضايق في حينه، فإنه يتحقق بعد قليل بأنه كان يباشر شيئاً غريباً قيّماً. وأنه كان في مجتمعٍ الأملُ فيه سائد أكثر من القنوط واللامبالاة، وحيث كلمة 'الرفيق' تعني الرفقة لا ماتعنيه في المجتمعات الأخرى من الخداع. فقد تنسم المرء نسيم المساواة. وأنا أدرك تماماً أن الدارج الآن إنكار أن للاشتراكية علاقة بالمساواة. ففي كل بلد من بلدان العالم تجد عشيرة ضخمة من الفرقاء الحزبيين والأساتذة الصغار المتحذلقين همّهم 'إثبات' أن الاشتراكية لاتعني أكثر من رأسمالية الدولة المخطط لها، مع دافع الاحتياز مصوناً محفوظاً. لكن لحسن الحظ يوجد أيضاً رؤية للاشتراكية تختلف تماماً عن هذا. وهو الشيء الذي يجتذب الناس العاديين إلى الاشتراكية ويجعلهم

مستعدين للتضحية بأنفسهم من أجلها. فإن 'سحر' الاشتراكية هو في فكرة المساواة، وللغالبية العظمى من الناس الاشتراكية إما أن تعني المجتمع بلا طبقات. أو لا تعني شيئاً على الإطلاق. هنا بالذات كانت بضعة الشهور التي قضيتها في الميليشيات ذات قيمة عندي. لأن الميليشيات الإسبانية، طالما ظلّت، كانت نوعاً من صورة مصغّرة، ميكرو كوزم، للمجتمع بلا طبقات. لذلك المجتمع الخالي من أي فرد مزيَّف، المفتقر إلى كل شيء، لكن بلا امتيازات ولا لعق أحذية، يمكن الحصول على تنبؤات بدائية عما ستكون عليه المراحل الافتتاحية من الاشتراكية. وعلى كل حال إنها بدلاً من أن تخيب أملي اجتذبتني أكثر فأكثر. أثرها كان أنني صرت أتوق لرؤية الاشتراكية تترسخ فعلياً إلى أعمق مما حصل قبلاً. وهذا يعود جزئياً للحظ الحسن الذي ألقاني بين الإسبان، الذين تمكنوا، بكرَمهم وعزة النفس الباطنة فيهم، ورفضهم الأبدي لأية سلطة (أناركيتهم)، جعلوا حتى المراحل الأولية من الاشتراكية ممكنة التحمل بقدر الاستطاعة.

طبعاً لم أكن وقتَها مدركاً تماماً للتغيرات التي تطرأ على تفكيري. فقد كنت، شأن الجميع من حولي، لاأشعر إلا بالملل، والحر، والبرد، والوسخ، والقمل، والحرمان، وبعض الخطر أحياناً. والأمر يختلف الآن. فالأيام التي بدت في حينها عقيمة بلا أحداث هي الآن لاتقدر بثمن عندي. وهي تختلف عن كل ما رأيت في حياتي حتى لقد اتّخَذَت تلك الصفة السحرية التي تتصف بها الذكريات بعد أعوام طويلة. كانت شقية أثناء حصولها، لكنها حقل جميل من حقول ذكرياتي يطيب لي أن أرتع فيه. أتمنى لو استطعت أن أنقل إليكم الجو في أيامها. وأرجو أن أكون نجحت في هذا قليلاً، في الفصول الأولى من هذا الكتاب. فكله مترابط في ذهني مع برد الشتاء، والملابس المهلهلة لرجال الميليشيا، ووجوه الإسبان البيضاوية. ونقرات طلقات الرشاشات مثل إشارات مورس، وروائح الروث والخبز المتعفن، وطعم الصدأ في حساء الفاصوليا الملتَهم التهاماً من قصعات غير نظيفة.

تلك الأيام كلها محفوظة عندي برونقها الغريب. أعيد في ذهني حوادث مرّت تبدو تافهة لاتستأهل الذكر: أنا في مغارتي في مونتي بوتشيرو مرة أخرى، على الدكة الحجرية التي تستعمل سريراً، والشاب رامون يشخر وأنفه محشور على كتفَي. أو أنني أتعثر مصعّداً في الخندق الزلق، والضباب يلفني كأنه بخار بارد. أنا في منتصف شرخ طولي في سفح الجبل، أحاول جاهداً حفظ توازني، وأشد بكل قوتي محاولاً قلع جذر شجيرة إكليل الجبل. وفوق رأسي عالياً تلعلع رصاصات بلا معنى.

أقبع متوارياً بين شجيرات الشربين في أراضي القاع غربي مونتي أوسكورو، مع كوب وبوب إدواردز وثلاثة إسبان. وصعوداً في الجبل الرمادي الأجرد إلى يميننا رتلٌ من الفاشيين يتسلقونه مثل النمل. وقريباً منا إلى الأمام يصدح بوق من الخطوط الفاشية. تلتقي أنظاري بأنظار كوب، فيعمد مثل صبيان المدارس إلى فرك أنفه بإصبعه جواباً على نفير البوق.

أنا في الساحة الموحلة في لاجرانيا، بين عصبة من الرجال يحملون قصعاتهم الحديدية حول حلّة الحساء. والطباخ البدين يحاول صدّهم عنها بمغرفته. وإلى طاولة قريبة جلس رجل ملتحٍ يزيّن خصره بمسدس آلي ضخم مشغولاً بفَتّ أرغفة الخبز الواحد إلى خمس قطع. وورائي صوت إنكليزي بلهجة الكوكني اللندنية (هو بيل تشامبرز، الذي تشاجرت معه كثيراً، وقُتل خارج هويسكا) يغني:

ثمة جرذان، جرذان، جرذان

جرذان بحجم القطط،

في ...

ويُسمع عويل قنبلة تصفر في الأعالي. فيسارع صبيان الخامسة عشرة إلى الانبطاح كبّاً على وجوههم، ويتوارى الطباخ وراء الحلة. ثم ينهض الجميع وعلى وجوههم علائم الاستحياء، فالقنبلة تجاوزتنا وانقضّت منفجرة على بعد مئة ياردة.

أنا أتمشى صعوداً ونزولاً مع خطوط الحراسة، تحت أغصان الحور والصفصاف المعتمة. وعلى سطح القناة المفعمة بالماء في الخارج تجذف الجرذان محدثة من الضجة كأنها الحيتان أو القنادس. ومع انشقاق الفجر خلفنا، يبدأ الحارس الأندلسي، متلفعاً بعباءته بالغناء الذي تردد على طول المنطقة العازلة، وعلى بعد مئة أو مئتين من الياردات، يأتيك صوت الحرس الفاشيّ وهو يغني أيضاً.



في ٢٥ إبريل، وبعد «المانيانات» المعتادة، حضرت مفرزة أخرى لإراحتنا فسلمنا بنادقنا، وحزمنا أمتعتنا، وعدنا إلى مونفلوريتي. لم أكن آسفاً لمغادرة الخطوط. كان القمل يفقس في سراويلي بأسرع من قدرتي على إبادته. وقد قضيت الشهر الماضي بدون جوارب، ولم يبق إلا القليل من النعل أسفل حذائي بحيث أنني كنت أمشي شبه حافٍ. كنت أتوق لحمام ساخن، وثياب نظيفة، وقضاء ليلة بين الملاحف والملاءات توقاً شديداً لايحسه تجاه أي شيء من يعيش حياة مدنية عادية. نمنا عدة ساعات في حظيرة في مونفلوريتي، وتسلقنا شاحنة في ساعات الفجر، ولحقنا بقطار الخامسة صباحاً في بارباسترو، ولأننا كنا محظوظين بالوصول إلى القطار السريع في لِيريدا كنا في برشلونة في الساعة الثالثة من بعد ظهر السادس والعشرين من الشهر. بعد هذا بدأت المتاعب.



٩

العودة إلى برشلونة

يمكنك السفر بالقطار من مندلاي في أعالي بورما إلى مايميو، (عاصمة المقاطعة) على أطراف هضبة شان. وهي تجربة غريبة نوعاً ما. فأنت تنطلق في الجو المألوف من المدينة الشرقية – الشمس اللاهبة، النخيل المغبر، روائح السمك والتوابل والثوم والفواكه المدارية العجينية، الزحام من البشر السمر الوجوه – وبسبب اعتيادك هذا الجو تحمله معك جملةً، إن صح القول، إلى عربة القطار. ذهنيّاً، أنت مازلت في مندلاي حين يصل بك القطار إلى مايميو، على ارتفاع أربعة آلاف قدم عن سطح البحر. لكنك ماإن تخطو خطوة خارج عربات القطار حتى تجدك في مناخ مختلف تماماً. فجأة تتنفس الهواء البارد العليل الذي لايختلف عما هو في إنجلترا، والأعشاب الخضراء تحيط بك من حولك، السرخس والشوح والشربين، والنساء الجبليات بوجناتهن الحمر يعرضن سلال توت الفريز.

العودة إلى برشلونة، بعد ثلاثة شهور ونصف، ذكّرتني بهذا. نفس تغيير الجو المفاجئ. في القطار، وطوال الطريق إلى برشلونة، استمر معنا جو الجبهة: التلوث، والضجيج، والإرهاق، والأسمال البالية، والشعور بالحرمان، والرفاقية، والمساواة. القطار الذي كان امتلأ برجال الميليشيا عند مغادرته محطة بارباسترو، فقد ظل عرضة لإغارة المزيد من الركاب من الفلاحين في كل محطة على الخط؛ بخضارهم، ودجاجهم المذعور يحملونه رؤوسه مدلاة إلى أسفل مع أكياس كانت تلتف وتتلوى على الأرضية، ثم اكتشفنا أنها مليئة بالأرانب الحية –وأخيراً جاءوا بقطيع من الأغنام اندفعت داخل المقاصير وانحشرت في كل فراغ. وكان رجال الميليشيات

ينشدون الأناشيد الثورية التي طغت على ضجيج القطار، ويقبّلون أكف أيديهم ويلوحون بمناديل حمراء سوداء لكل فتاة جميلة طوال الطريق. وزجاجات النبيذ والمشروب الأراجوني المحلي الرهيب تتناقلها الأيدي. يستعملون لهل أحقاقاً من جلد الماعز يمكن منها أن تطلق رشقة من الخمر إلى مسافة بعيدة لتنزل في فم زميلك، مما يوفر كثيراً من الجهد. وإلى جانبي كان صبي من الميليشيات أسود العينين في الخامسة عشرة يروي روايات عجيبة- غير صحيحة بلا شك، عن منجزاته في خط النار - على اثنين من الفلاحين مخدّدي الوجوه يستمعان فاغري الفم عجباً. وحالاً حلّ الفلاحون ربطاتهم وضيّفونا بنبيذ أحمر لزج. كان الكل سعيداً، سعادة لاأستطيع التعبير عنها. لكن حين قطع القطار ساباديل ودخل إلى برشلونة، خطونا داخل مناخ مختلف لايقل غربة وعداءً لنا ولأمثالنا عما هو عليه لو كنا وصلنا باريس أو لندن.

كل من كان قام بزيارتين، بينهما مدة من الزمن، إلى برشلونة أثناء الحرب أبدى ملاحظته بأن تغيرات غير عادية تطرأ عليها. والعجيب أنهم سواء ذهبوا إليها في أغسطس ثم في يناير، أو مثلي، ذهبوا في ديسمبر ثم في إبريل، كانوا يقولون الشيء ذاته: وهو أن الجو الثوري قد زال. لاشك أن كل مَن زارها في أغسطس، حين لم تكد الدماء تجف من الشوارع ثم حين أصبحت الميليشيات مستقرة في الفنادق الفخمة، فإن برشلونة في ديسمبر تبدو له بورجوازية؛ أما عندي وأنا القادم للتو من إنجلترا فإنها كانت أقرب إلى مدينة العمال من أي شيء كنت أعدّه ممكناً. الآن بدأ المد ينحسر. فقد عادت مدينةً عاديةً، عليها بعض الرضوض والكسور من الحرب. لكن بدون أي مظهر خارجي لسيطرة الطبقة العاملة.

التغير في مظهر الجماهير كان مدهشاً. لباس الميليشيا النظامي وبذلات العمال الزرقاء اختفت. كان الكل يلبس اللباس الصيفي الأنيق الذي تخصص به الخياطون الإسبان. رجال أثرياء بدينون، ونساء أنيقات، وسيارات فارهة كانت في كل مكان.

(الظاهر أنه لم تعد هناك سيارات خصوصية، وبالرغم من هذا فإن أي أي رجل ذي حيثية يستطيع الحصول على سيارة). ضباط الجيش الشعبي الجديد، الذين كانوا قلّةً حين غادرت برشلونة، صاروا يتجولون زمراً بأعداد كبيرة. إذ كان الجيش الشعبي يعين الضباط بمعدل واحد لكل عشرة رجال. بينهم عدد ممن خدموا في صفوف الميليشيات وأعيدوا من الجبهة للتدريب التكتيكي، لكن الغالبية منهم كانوا شباباً التحقوا بالمدرسة الحربية مفضلينها على الالتحاق بالميليشيا. نعم لم تكن علاقتهم برجالهم مثل تلك التي في الجيش البورجوازي، لكن كان ثمة فوارق اجتماعية ظاهرة، يوضحها الفارق في الراتب واللباس. الأنفار يرتدون بزة عمل بنية اللون خشنة، والضباط يرتدون لباساً أنيقاً باللون الكاكي، بوسط مختصر مثل ضباط لباس الجيش البريطاني، مع بعض المبالغة. لاأعتقد أن فيهم واحداً من كل عشرين قد خدم في الجبهة حتى ذلك الحين، لكنهم جميعاً كانوا مزودين بمسدسات مربوطة بأحزمتهم؛ وقد كنا في الجبهة لانحصل على المسدسات، لابالحب ولا بالمال. وحين كنا في طريقنا صعوداً بالشارع لاحظت أن الناس كانوا يحدقون فينا، وفي حوائجنا القذرة. طبعاً كان منظرنا ، شأنَ كل الذين قضوا عدة شهور على خطوط النار، مريعاً. وقد كنت مدركاً تماماً أنني أبدو كفزّاعة الحقول. جاكيتي الجلدية كانت مزقاً، وقبعتي الصوفية تهدلت ولم يعد لها شكل معين، وأصرت على أن تنسدل على إحدى العينين، حذائي لايتألف إلا من القليل المبسوط فوق القدم. جميعنا كنا تقريباً بنفس الهيئة، يضاف إليها أننا كنا تعلونا القذارة ومشعثي الشعر، فلا عجب أن حدق الناس مشدوهين. ومع هذا امتعضت قليلاً، وحدس في نفسي أن أشياء غريبة كانت تحدث هنا في ثلاثة الشهور الأخيرة.

في بضعة الأيام التالية كشفتُ بدلائل لاتحصى أن انطباعي الأول لم يكن خاطئاً. لقد طرأ على المدينة تغير عميق. كان ثَمّ واقعتان يمكن اعتبارهما دليلين رئيسيين على كل شيء. الأولى هي أن الناس - الأهالي المدنيين - قد انعدم اهتمامهم

بالحرب. والأخرى كانت أن التقسيم المعتاد للمجتمع إلى الأثرياء والفقراء، الطبقة العليا والطبقة الدنيا، عاد إلى ترسيخ ذاته.

اللامبالاة الشاملة بالحرب كانت مفاجئة، ومقززة إلى حدّ ما. وقد كانت تريع القادمين إلى برشلونة من مدريد أو حتى من فالنسيا. وتعود جزئيّاً إلى ابتعاد برشلونة عن القتال الفعلي؛ وقد لاحظت الشيء ذاته بعد شهر في تارّاجونا، حيث عادت إليها الحياة العادية كبلدة ساحلية أنيقة لايعكّرها شيء. لكن مايسترعي الانتباه أن التطوع الاختياري في الجيش الشعبي على مستوى إسبانيا كلها أخذ يفتر ابتداءً من يناير. أما في كاتالونيا فقد استمرت حتى فبراير موجة الحماس حول الاندفاع الأولي الكبير نحو الجيش الشعبي، لكنها لم تؤدّ إلى زيادة كبيرة في عدد المتطوعين. فلم يمض على ابتداء الحرب ستة شهور حتى اضطرت الحكومة الإسبانية إلى اللجوء إلى التجنيد الإجباري. الذي يبدو طبيعيّاً في حرب مع الخارج، لكن شاذّاً في الحرب الأهلية. لاشك أن هذا كان مرتبطاً بالخيبة في الآمال الثورية التي أيقظتها الحرب. كان أعضاء النقابات العمالية الذين شكلوا من بينهم ميليشيات طاردت الفاشيين رجوعاً إلى زاراجوزا في الأسابيع الأولى من الحرب، فعلوا هذا لإيمانهم بأنهم إنما يناضلون من أجل سلطة الطبقة العاملة؛ وقد بدأ يتضح شيئاً فشيئاً أن سلطة الطبقة العاملة هي قضية خاسرة، فلا مجال للوم الناس العوام، خصوصاً البروليتاريا المدينية. الذين عليهم ملء الصفوف في أية حرب، خارجية أو أهلية. على الفتور تجاهها. لم يكن أحد يتمنى خسارة الحرب، لكن الغالبية كانت تتوق لانتهائها. كنت تلاحظ هذا أنّى توجهت. وفي كل مكان كنت تسمع الملاحظة المملولة ذاتها: "هذه الحرب رهيبة، أما هكذا؟ متى تنتهي؟" كان الواعون سياسياً من الشعب أشدّ إدراكاً بأن الصراع هو داخلي بين الأناركيين وبين الشيوعيين أكثر منه صراعاً ضد فرانكو. أما الجماهير فقد كان النقص في الأغذية لديها هو الأهم. أما "الجبهة" فقد أصبحت ترد إلى الذهن كمكان أسطوري بعيد جداً يختفي فيه الشباب

فإما لايعودون أبداً، وإما يعودون بجيوب مليئة بالنقود (كان رجل الميليشيا يستلم كل رواتبه المستحقة عند ذهابه بإجازة.) أما جرحى الحرب، حتى حين كانوا يظلعون على العكاكيز، فلم يعد يلتفت إليهم أحد. إذن لم يعد الانتساب إلى الميليشيا زيّاً سائداً. والحوانيت، معايير الذوق الشعبي الدائمة، كانت تعبر عن هذا بكل جلاء. فقد كانت، أوائلَ وصولي إلى برشلونة، على فقرها ورثاثة مافيها، تغص بتجهيزات الميليشيات؛ قبعات الغزو، الجاكيتات بسحَاب، أحزمة سام براون، سكاكين الصيد، أجربة المسدسات، كانت معروضة في كل واجهة. الآن أصبحت الحوانيت أكثر أناقة بكثير، لكن الحرب اتخذت مكاناً خلفيّاً. وقد اكتشفت في وقت لاحق، حين كنت أبتاع حوائجي قبيل رجوعي إلى الجبهة، أن بعض الأشياء التي لاغنى عنها في الخطوط الأمامية أصبحت عزيزة صعبة الإيجاد.

في تلك الأثناء كانت حملة دعائية قوية منظمة قائمة ضد الميليشيات الحزبية لمصلحة الجيش الشعبي. وهذا الوضع كان غريباً نوعاً ما. فمنذ فبراير كانت القوات المسلحة كلها موحدة جميعاً نظريّاً بالجيش الشعبي، والميليشيات كانت، على الورق، أعيد تشكيلها على منوال الجيش الشعبي بالرواتب المتفاوتة، والرتب التصاعدية، الخ، الخ. أما الفِرَق فقد تشكلت من "أفواج مختلطة" يفترض أنها تتألف جزئيّاً من عساكر الجيش الشعبي وجزئيّاً من الميليشيات. التغيرات الوحيدة التي حصلت بالفعل هي تغيرات التسميات. فرجال منظمة الـ p.o.u.m التي كانت تعرف بفرقة لينين، أصبحت تسمى الآن بالفرقة الـ٢٩. وحتى يونيو لم يصل إلى الجبهة في الأراجون إلا القليل من جنود الجيش الشعبي، ونتيجة لهذا تمكنت الميليشيات من الاحتفاظ ببنيانها المستقل وخصائصها الذاتية. لكن على كل حائط في المدينة اختط عملاء الحكومة نداء: «نريد الجيش الشعبي»، وعلى الراديو. وفي الصحافة الشيوعية كان التهجم، المرير أحياناً، على الميليشيات يتردد بلا انقطاع، فتوصف بالسيئة التدريب، وغير الانضباطية الخ، الخ. أما الجيش الشعبي فكان

يوصف دائما بالبطل. ومن كثير من هذه الدعايات كان يمكن أن تعتقد بوجود شيء ما مُشين في الذهاب إلى الجبهة متطوعاً. وشيء يستحق الثناء في الانتظار إلى أن يتم تجنيدك إجبارياً! لكن الواقع أنه حتى ذلك الوقت كانت الميليشيات هي التي تدافع عن الخطوط الأمامية، بينما ظل الجيش الشعبي يتمرن في المؤخرة، هذه الواقعة لم يتطرق إليها أحد إلا لماماً. وقطعات الميليشيات المساقة إلى الجبهة لم تعد تُسيَّر في الشوارع بقرع الطبول ورفرفة الأعلام، بل كانت تُهرّب تهريباً بالقطار أو بالشاحنات عند الساعة الخامسة صباحاً. أما الجيش الشعبي، الذي سُيِّرت منه بضع دفعات إلى الجبهة، فكما كنا نفعل قبلاً، كانوا يسيرون في عرض احتفالي في الشوارع؛ لكنهم، وبسبب فتور الاهتمام بالحرب، لم يلاقوا الحماس المعتاد. بل إن واقعة كون جنود الميليشيا، على الورق، جزءاً من الجيش الشعبي جرى استغلالها بمهارة في الدعاية الصحافية. فأي إنجاز يستحق التنويه به ينسب آليّاً إلى الجيش الشعبي عموماً، بينما يخصص اللوم بالميليشيات. وحدث كثيراً أن نفس القطعة كانت تمجد بصفة معينة وتلام بالصفة الأخرى.

إلى جانب هذا كان التغير المحير في الجو الاجتماعي - شيء يصعب تفهُّمه إلا إذا عاينته بنفسك. حين وصلت برشلونة أولاً ظننتها مدينة ينعدم فيها التمييز أو الفارق الكبير في الثروة. هكذا كان مظهرها بالتأكيد. كانت الثياب الأنيقة شذوذاً، لاتملّق ولا بخشيش، النادل وبائعة الزهور وماسح الأحذية ينظرون في عينيك ويعدّونك نداً ويخاطبونك بالرفيق. وأنا لم أعتبر هذا من المجاملة أو الرجاء. الطبقة العاملة اعتقدت حقّاً بالثورة التي ماتزال في بداياتها ولم تترسخ، والبورجوازيون كانوا خائفين ومتموهين مؤقتاً بمظهر العمال. وفي الشهور الأولى للثورة لاشك كان الآلاف من الناس يلبسون البزات الزرقاء ويرددون الشعارات الثورية كوسيلة للنجاة بجلودهم. الآن عادت الأمور إلى طبيعتها. المطاعم الفاخرة والفنادق كانت تعج بالزبائن من الأثرياء يلتهمون الوجبات الباهظة الثمن، بينما قفزت الأسعار بالنسبة للطبقة العاملة إلى مستويات عالية دون أن توازيها زيادات في الأجور. وإلى جانب

الغلاء في كل شيء كان النقص المتواصل في هذا الشيء ثم في ذاك، الأمر الذي كان يصيب الفقراء طبعاً ولايؤثر في الأغنياء. المطاعم والفنادق يبدو أنها لم تكن تلاقي أية صعوبة في الحصول على كل ماتريد، بينما كان الفقراء في أحياء الطبقة العاملة يصطفون صفوفاً إلى مئات الياردات من أجل الخبز وزيت الزيتون وغيرهما من الضروريات. كنت قد فوجئت قبلاً بانعدام المتسولين من شوارع برشلونة؛ أما الآن فالشوارع تعج بهم. خارج حوانيت المعلبات وعلى قمة الرامبلاس قطعان من الأطفال الحفاة كانت بالانتظار للإحاطة بكل من يخرج، يضجون في طلب الفتات من الطعام. طرقَ التعبير الثورية بدأت تختفي من المحادثة. الغرباء لم يعودوا هذه الأيام يخاطبونك بـ «تو» [أنت] أو «كامارادا» [رفيق]؛ بل عادت السنيور والأوستيد [ياسيد]. *Buenos días* عادت بدلاً من «أحييك». خدم المطاعم عادوا إلى قمصانهم المنشّاة، والبائعون في الحوانيت عادوا إلى التملّق المألوف. ذهبت برفقة زوجتي إلى أحد حوانيت الملابس على الرامبلاس لشراء بعض الجوارب. فأخذ البائع ينحني ويفرك راحتيه كما لايفعلون حتى في إنجلترا هذه الأيام، بالرغم من أنهم كانوا هكذا منذ عشرين أو ثلاثين سنة. وبطريقة ماكرة غير مباشرة عادت عادة البخشيش. وقد صدر الأمر بحل الدوريات العمالية وعاد بوليس ماقبل الحرب إلى الشوارع. إحدى النتائج كانت أن ملاهي الكابارية والمواخير للطبقة العليا أعيد افتتاحها، بعد أن أغلقت الدوريات العمالية الكثير منها.* مثال صغير لكنه ذو دلالة على كيفية اتجاه كل شيء لمصلحة الطبقات الثرية هو أزمة التبغ والسجائر. كان الافتقار إلى التبغ حاداً عند الغالبية لدرجة أن السجائر المصنوعة من عرْق السوس كانت تباع في الشوارع. وقد جرّبت بعضها مرة. (الكثير جربوها مرة!). كان فرانكو محتفظاً [بجزر] الكناري، حيث يزرع الإسبان كل حاجتهم من التبغ؛ وبالنتيجة لم تكن في المخازن الحكومية إلا الكميات من التبغ الموجودة من مرحلة ماقبل الحرب. وهذه بلغت من القلة بحيث أن دكاكين التبغ لم تكن تفتح أبوابها إلا مرة في الأسبوع؛ وبعد انتظارك لساعتين في الصف قد تستطيع إذا حالفك الحظ، الحصول على علبة

---

* يقال إن الدوريات العمالية أغلقت ٧٥ بالمائة من المواخير ودور البغاء.

بوزن ثلاثة أرباع الأونصة [٢٠ غراماً] من التبغ. ونظريّاً لم تكن الحكومة لتسمح باستيراد التبغ من الخارج، لأن هذا ينقص رصيدها من الذهب المرصود لضرورات التسليح. أما في الواقع، فقد كان ثمة ورود مستمر للسجائر الأجنبية من أغلى الأنواع، 'لوكي سترايك' وما يشبهها، وهذا أعطى فرصة عظيمة للاستغلال، فيمكنك على المكشوف شراؤها من الفنادق الفخمة، وبشيء قليل من الخفاء، من الشوارع، شرط أن تكون ممن يستطيعون دفع عشر بيزيتات (راتب رجل الميليشيا ليوم كامل) لكل علبة. فالتهريب كان لمصلحة الأثرياء، ولهذا كان يجري غض الطرْف عنه. وإذا كان لديك من النقود الكفاية فليس من شيء لايمكنك الحصول عليه بقدر ماتريد، هذا فيما عدا الخبز، الذي كان مقنناً بصرامة إلى حدٍ ما. هذا التباين المكشوف بين الغنى والفقر كان مستحيلاً قبل عدة شهور، حين كانت الطبقة العاملة تبدو قابضة على زمام الأمور. لكن من عدم الإنصاف نسبة هذا كله إلى انتقال السلطة السياسية. فهي تعود جزئيّاً إلى اطمئنان الحياة في برشلونة، حيث لم يعد هناك إلا القليل مما يذكر المرء بالحرب، إلا بعض غارات الطيران المتباعدة. وكل من كان في مدريد يقول إن الأمر كان مختلفاً تماماً هناك. في مدريد أجبر الخطر المخيم الناس من جميع المشارب تقريباً على الشعور بشيء من الرفقة. منظر البدين الذي يلتهم طيور السمّن المشوية بينما يتسول الأطفال الخبز هو منظر مقزز مستهجن دائماً، لكنك لاتراه إلا قليلاً ضمن مدى صوت إطلاق المدافع.

أذكر أنني، بعد يوم أو يومين من القتال الذي حدث في الشوارع، مررت في أحد الشوارع الأنيقة وعلى زاويته حانوت حلويات واجهته مترعة بالمعجنات والسكاكر عالية الأناقة والفخامة، وبأسعار باهظة. كان من تلك الحوانيت التي تصادفها في بوند ستريت [في لندن] وفي رو دي لابي [في باريس]. وأذكر أنني صعقت ارتياعاً من أن النقود ماتزال تُهدر على مثل هذه الأشياء في بلد جائع في حالة حرب. يشهد الله أنني لاأزعم بهذا أي زهد أو استعلاء شخصي. بل إنني، بعد بضعة شهور من الإرهاق، عندي شهية لاتنسدّ للطعام اللائق والنبيذ والكوكتيل، والسجائر الأمريكية، وما إلى ذلك. وأعترف بأنني انخرطت في كل الطيبات التي وجدتُ لديّ

النقود الكافية لها. خلال ذلك الأسبوع الأول، قبيل اندلاع قتال الشوارع، كنت مشغولاً بعدة أشياء تفاعلت فيما بينها بطريقة غريبة. في المقام الأول، وكما قلت قبل قليل، كنت مشغولاً بالأخذ بأسباب الراحة بقدر ماأستطيع. ثانياً، والفضل في هذا لإسرافي في الأكل والشرب، ظللت منحرف الصحة قليلاً طوال ذلك الأسبوع. أشعر بقليل من التوعك، فألازم السرير نصف يوم، أستيقظ وأتناول وجبة كبيرة، فأعود إلى التوعك. في نفس الوقت كنت أُجري مباحثات سرية لشراء مسدس. كنت شديد العزم على الحصول على مسدس - وهو في حرب الخنادق أكثر فائدة من البندقية - وكانت المسدسات نادرة يصعب الحصول عليها. كانت الحكومة توزعها على رجال البوليس وضباط الجيش، لكنها رفضت توزيعها على رجال الميليشيات؛ فكان عليك ابتياعها، وبطرق غير قانونية، من المخازن السرية للأناركيين. وبعد الكثير من اللغط والمتاعب استطاع صديق أناركي أن يحصل لي على مسدس أوتوماتيكي من عيار ٢٦ صغير، وهو سلاح حقير لافائدة له على أبعد من خمس ياردات، لكنه أحسن من لاشيء. وإلى جانب هذا كنت أجري ترتيبات أولية للانتقال من ميليشيات الـ p.o.u.m. إلى أخرى تستطيع ضمان إرسالي إلى جبهة مدريد.

كنت قد أخبرت الجميع بأنني أنوي الانتقال. فأما عن تفضيلاتي الشخصية المحض كنت أود لو انضممت إلى الأناركيين. وإذا استطاع المرء إلى الانتساب الـ c.n.t. [الاتحاد الوطني للنقابات العمالية] يصبح بإمكانه الانضمام إلى ميليشيات الـ f.a.i. [الاتحاد الأناركي] لكنني سمعت أن الاتحاد الأناركي كانوا أقرب إلى إرسالي إلى التيرول، منهم إلى مدريد. أما إذا أردت الذهاب إلى مدريد فعليّ الانضمام إلى الطابور الدولي، وهذا يستدعي الحصول على توصية من أحد أعضاء الحزب الشيوعي. بحثت عن أحد أصدقائي الشيوعيين الملحق بالإسعاف الطبي الإسباني، وشرحت له قضيتي. وقد بدا متحمساً لتنسيبي وطلب مني أن أقنع إذا أمكن بعض أعضاء الـ I.L.P [حزب العمال] الإنجليز بالقُدوم معي. فلو كنت في صحة جيدة لوافقت على التو. ويصعب الآن القول كم كان يحدث من الفارق. كان يمكن أن أكون

أُرسلت إلى ألباسيتي قبل أن يبدأ الاصطراع في برشلونة؛ وفي تلك الحال، ولعدم شهودي القتال عن قرب، فلربما كنت قبلت الرواية الرسمية عن تلك الأحداث وصدقتها. لكن من الناحية الأخرى، لو ظللت في برشلونة أثناء القتال وتحت الأوامر الشيوعية، مع بقاء الإحساس بالولاء الشخصي لرفاقي في الـ P.O.U.M. لكان وضعي مستحيلاً. لكن كنت لاأزال في إجازة وأمامي أسبوع آخر من الراحة، وكنت مهتمّاً كثيراً باستعادة قواي قبل العودة إلى الجبهة. يضاف إلى هذا – وهو من التفاصيل الصغيرة التي تعمل دائماً على البت بمصير المرء – أنه كان عليّ الانتظار بينما يعمل الحذّاءون على تفصيل حذاء عسكري على مقاس رجلي (وقد عجز الجيش الإسباني كله أن يحصل على حذاء من ذلك المقاس.) فقلت لصديقي الشيوعي أنني سأقوم بالترتيبات المحددة في وقت لاحق. كنت أنوي الإخلاد إلى الراحة. بل خطر لي أن نقوم – أنا وزوجتي – برحلة إلى الشاطئ ليومين أو ثلاثة. يالها من أفكار! الجو السياسي وحده كان يجب أن ينبهني إلى أن هذا ليس من الأشياء التي يقوم بها المرء هذه الأيام.

كان تحت الوجه الظاهري للمدينة، تحت التنعم والافتقار المتزايدين، تحت المرح الزائف في الشوارع، بدكاكين زهورها، وراياتها المتعددة الألوان، وملصقاتها الدعائية، وجماهيرها المحتشدة، كان شعور رهيب لايمكن أن يخطئ بالاصطراع والكراهية السياسية. الناس بمختلف مشاربهم السياسية كان يقولون منذرين: «ستبدأ المتاعب بعد قليل»،. والخطر كان بسيطاً تماماً ومعقولاً. كان النزاع بين من يريدون للثورة أن تسير قُدُماً وتتم فصولاً، وبين الذين يريدون إيقافها ومنعها، بين الأناركيين وبين الشيوعيين. سياسيًا لم يكن من قوة في كاتالونيا إلا للـ p.s.u.c. [الشيوعيين] وحلفائهم من الليبراليين. لكي تقاوم هذا القوة غير المؤكدة تماماً للـ c.n.t [الأناركيين]، كانوا اقلّ جودة في نوعية التسليح، وأقل ثقة بما يريدون من خصومهم، لكن أقوياء بسبب عددهم وسيطرتهم على مختلف الصناعات الرئيسة. فإذا أدركنا هذا الاحتشاد للقوى تأكدنا من حتمية المتاعب. من وجهة نظر الجنراليتا

[الحكومة] المحكومة بالشيوعيين (p.s.u.c.) الأهمية الأولى، لجعل مركزهم مأموناً، هي استخلاص السلاح من أيدي عمال الـ c.n.t. . وكما ذكرت سابقاً، كان التحرك لتفتيت الميليشيات مناورة تجاه هذه الغاية. في الوقت ذاته أعيد استخدام قوات ماقبل الحرب من البوليس والحرس المدني وما إليها وأُمدت بالعدد والسلاح. وهذا لايعني إلا شيئاً واحداً. الحرس المدني على وجه الخصوص، كانوا من الدَرَك المعتاد على النموذج القارّي (الأوربي)، كانوا طوال القرن الماضي بطوله في وظيفة حماية الطبقة المتسلطة. ثم صدر قرار بأن كل الأسلحة المقتناة فردياً يجب تسليمها. وطبعاً لم يستجب له أحد؛ فأصبح واضحاً أن أسلحة الأناركيين لايمكن استخلاصها منهم إلا بالقوة. طوال هذا الوقت ظلت الإشاعات تسري، ودائماً غامضة ومتناقضة بالنظر للرقابة على الصحافة، بحدوث مناوشات واضطرابات في كاتالونيا. في مختلف الأنحاء أخذ البوليس يقوم بإغارات على أمنع المواقع الأناركية. ففي بيجسيردا، على الحدود الفرنسية، أرسلت دورية من الكارابينيروز لاحتلال مركز الجمارك. وكان بالأيدي الأناركية، وقد قُتل أنتونيو مارتن، وهو أناركي مشهور. وحدثت حوادث مماثلة في فيجويراس. وعلى ماأظن في تيراجونا. أما في برشلونة فحصلت عدة مشاجرات في الضواحي العمالية. وكان أعضاء النقابات الأناركية والشيوعية يغتال بعضهم بعضاً منذ مدة؛ وفي عدة مناسبات كانت الجرائم تتلوها جنازات حافلة استفزازية، القصد منها إثارة العداء السياسي. وقبلها بقليل اغتيل أحد أعضاء الـ c.n.t. الأناركية فخرج مئات الألوف من أعضاء تلك النقابات في موكب التشييع. وفي نهاية إبريل، بُعيد وصولي إلى برشلونة، اغتيل رولدان، وهو عضو بارز في الـ u.g.t الشيوعية، وافتُرض أن هذا كان بيد أحد أعضاء النقابات المنافسة، الـ c.n.t. . فأمرت الحكومة بغلق الحوانيت في الأسواق، وأقامت له جنازة حافلة، معظم المشيعين فيها من جنود الجيش الشعبي، استغرق مرورهم ساعتين. وقد شهدتها من نافذة الفندق بدون حماس كبير. فالواضح أن هذه الجنازة المزعومة ماهي إلا عرض من عروض القوة؛ ولايحتاج الأمر إلا إلى بضع عراضات منها ويبدأ سفك

الدماء. وفي الليلة ذاتها أفقنا أنا وزوجتي على وابل من النيران من ميدان بلازا دي كاتالونيا، على بعد مئة أو مئتي ياردة. وعلمنا في اليوم التالي أن رجلاً من الـ c.n.t. قتله بعض أفراد الـ u.g.t . يحتمل طبعاً أن تكن كل هذه الجرائم ارتكبها عملاء التخريب والإثارة *agents provocateurs*. ويمكن قياس مواقف صحف العواصم الأجنبية الرأسمالية تجاه الصراع الأناركي- الشيوعي بواقعة أن اغتيال رولدان نال تغطية إعلامية واسعة، بينما جرى الحرص على إغفال ذكر الجريمة المقابلة.

كان عيد أول مايو يقترب، وكان الحديث متواتراً عن عرض ضخم يهيّئ له كلا المجموعتين النقابيتين الـ c.n.t. والـ u.g.t.. كان قادة الـ c.n.t.، الأكثر اعتدالاً من الكثير من أتباعهم، يسعون منذ بعيد للتسوية مع ال u.g.t ؛ والحق أن الفكرة الأساسية في سياستهم كانت محاولة توحيد الكتلتين من النقابات في ائتلاف واحد كبير. كانت الفكرة هي أنه لابد من أن يسير الاتحادان جنباً إلى جنب إظهاراً لتضامنهما. لكن العرض أُلغي في اللحظة الأخيرة. كان واضحاً تماماً أنه لن يؤدي إلا إلى الشغب. ولم يجر أي عرض في أول مايو. كانت هذه الحالة شاذة؛ برشلونة، الملقبة بالمدينة الثورية، قد تكون المدينة الوحيدة في أوروبا اللا-فاشيّة التي لم تحتفل بذلك اليوم. وأعترف بأنني ارتحت إلى هذا نوعاً ما، كان المفروض بجنود المفرزة العمالية الإنجليزية (I.L.P) أن تدخل المسيرة ضمن نطاق ماركسيي الـ p.o.u.m. فتوقّع الجميع حصول المتاعب. آخر شيء كنت أرغب في التورط فيه هو الشغب في الشوارع بلا معنى. وأن أكون أسير على الخطوة النظامية وراء راية حمراء منقوش عليها شعارات حماسية، ثم أصاب بطلق من رشاش شخص غريب عني تماماً، لم يكن هذا تصوري للموت الكريم.

١٠
حرب الشوارع مايو ١٩٣٧

حوالي ظهيرة الثالث من مايو صادفت أحد الأصدقاء في صالة في الفندق فقال عَرَضاً: «سمعت أن اضطرابات حصلت في السنترال المركزي». لكنني كنت مشغول البال فلم أُلق بالاً إلى هذا القول.

وفي عصر ذلك اليوم، بين الثالثة والرابعة، كنت في منتصف الطريق نزولاً في شارع الرامبلاس فسمعت عدة طلقات بندقية ورائي. التفتّ فرأيت بعض الفتيان والبنادق في أيديهم والمناديل الأناركية بالأحمر والأسود حول أعناقهم، يسيرون على طرف شارع فرعي يتجه من الرامبلاس شمالاً. يبدو أنهم كانوا يتبادلون النار مع واحد في برج عال مثمن -كنيسة على ماأظن - تشرف وتتحكم بالشارع الجانبي. وخطر لي فوراً: «لقد ابتدأت». فكرت فيها بدون إي إحساس كبير بالمفاجأة - فطوال الأيام الماضية كان البشر يتوقعون «أنها» ستندلع في أية لحظة. قررت أن عليّ العودة إلى الفندق حالاً للاطمئنان على زوجتي. لكن عدداً من الأناركيين على مدخل الشارع الجانبي كانوا يلوحون للناس بأن يرجعوا ويصيحون بالجميع أن لايمروا في خط إطلاق النار. وصدرت طلقات أخرى. كانت الطلقات من البرج تتطاير عبر الشارع، واندفع جمهور من المذعورين نزولاً في الرامبلاس، بعيداً عن النار، وعلى طول الشارع من فوق ومن تحت كنت تسمع صوت إغلاق أبواب الحوانيت الفولاذية على الواجهات. رأيت اثنين من ضباط الجيش الشعبي يتراجعون بحذر من شجرة إلى شجرة وأيديهما على مسدسيهما. أمامي كان الحشد يندفع تجاه محطة المترو في

منتصف الرامبلاس ليحتموا فيها. قررت فوراً ألا أتبعهم، فقد يعني هذا الانحصار تحت الأرض ساعات.

في تلك اللحظة جاءني طبيب أمريكي كان معنا في الجبهة وقبض علي من ذراعي بشدة. كان شديد الاهتياج.

«تعال، يجب أن ننزل إلى فندق فالكون»

(كان فندق الفالكون نوعاً من المنازل تديره الـ .p.o.u.m ويستخدمه كثيراً رجال الميليشيات في الإجازة).

«شباب الـ .p.o.u.m سيكونون بانتظارنا هناك. لقد بدأت الاضطرابات. يجب أن نظل معاً».

سار الطبيب وهو يشدني من ذراعي. كان من الهياج بحيث لم يستطع الحديث بعبارات واضحة. الظاهر أنه كان يتمشى في ساحة بلازا دي كاتالونيا حين وصل حمولة عدة شاحنات من الحرس الوطني إلى مركز الهاتف، الذي كان تشغيله تحت سيطرة اتحاد نقابات الـ c.n.t وشنوا هجوماً مفاجئاً عليه. بعدها وصل بعض الأناركيين فحصلت مناوشات كبيرة. ففهمت أن 'المشاكل' التي سمعت بها صبيحة ذلك اليوم كانت مطالبة الحكومة بتسليمها مركز الهاتف. ذلك الطلب الذي كان جوابه الرفض طبعاً.

وأثناء توجهنا في الشارع نزولاً مرت بنا شاحنة مندفعة من الاتجاه المقابل. كانت محملة بالأناركيين وقد أشرعوا بنادقهم. وفي مقدمتهم كان فتى أشعث منبطحاً على بعض الحشايا خلف رشاش خفيف. وحين وصلنا فندق الفالكون رأينا حشداً من الناس المهتاجين في قاعة المدخل؛ كان الاضطراب عظيماً، لم يكن أحد يعرف ما يفترض عمله، ولم يكن أحد مسلحاً إلا حفنة من قوات الصاعقة Shock Troopers كانوا يقومون في العادة بحراسة المبنى. قطعت الشارع إلى مقر اللجنة

المحلية لمنظمة الـ .p.o.u.m وكانت مقابلنا تقريباً. وفي الطابق الأعلى، حيث كان رجال الميليشيا يتوجهون لقبض رواتبهم، كان ثمة أيضاً حشد ملتاع. وشاب طويل وسيم في حوالي الثلاثين باللباس المدني يحاول أن يعيد بعض النظام ويوزع الأحزمة وأمشاط الذخيرة من كومة في الزاوية. يبدو أنه ليس من بنادق حتى الآن. وقد اختفى الدكتور - أظن أنه حصلت بعض الإصابات ونداء للأطباء - لكن وصل إنجليزي آخر. وحاليّاً خرج من المكتب الجوّاني الشاب الطويل وآخرون، يحملون ملء أحضانهم بنادق يوزعونها على مَن حولهم. كنت والإنجليزي الآخر، كأجانب، موضع شك إلى حدٍ ما، فلم يناولنا أحد بندقية في البداية. ثم حضر أحد الرجال الذين عرفتهم في الجبهة وانتبه إليّ، فجاءتنا بعد قليل البندقيتان وبضعة أمشاط من الذخيرة، مع بعض الامتعاض.

أصوات إطلاق النار تتعالى في الخارج، والشوارع خلت من المارة تماماً. وقد أجمع الكل على أن من المستحيل المرور صعوداً في شارع الرامبلاس. فالحرس الوطني احتل البنايات المشرفة وكان يطلق النار على كل من يمر. لم أكن لأبالي بالمخاطرة بالمرور من هناك والرجوع إلى الفندق، لولا رواج شائعة كبيرة مفادها أن مقر اللجنة المحلية الذي نحن فيه كان عرضة للمهاجمة في أية لحظة والأحوَط أن نظل ملازمين هناك. وقد تجمهر الناس في كل أنحاء البناء وعلى السلالم وعلى الأرصفة المجاورة زمراً يتحادثون متهيجين. يبدو أنه لم يكن لدى أحد فكرة واضحة عما يجري. وكل مافهمته هو أن الحرس الوطني هاجم المركز الهاتفي واحتل مواقع مختلفة استراتيجية تشرف على الأبنية الأخرى التابعة للعمال. كان الانطباع العام أن الحرس الوطني 'يلاحق' أعضاء اتحاد الـC.N.T والطبقة العاملة جملةً. فالملاحظ أنه، في هذه المرحلة، لم يلق أحد باللوم على الحكومة. كانت الطبقة الفقيرة في برشلونة تنظر إلى الحرس الوطني بأنه مثل أصحاب القمصان السوداء والبنية، ويسلّمون بأنهم هاجموا بمبادرة منهم وحدهم. وما إن سمعت حقيقة الوضع حتى

هدأت أفكاري. كان الخلاف واضحاً تماماً. المعركة هي بين اتحاد نقابات الـ C.N.T. من طرف، وبين البوليس من الطرف الآخر. كنت لاأحمل محبة مخصوصة للعامل المثالي كما يتصوره الذهن الشيوعي البورجوازي، لكنني حين أرى أمامي عاملاً متجسداً يصارع عدوه الطبيعي، رجل البوليس، فلست بحاجة إلى التساؤل عن الطرف الذي أنا معه.

مضى وقت طويل لم يبد أنه سيحدث شيء في طرفنا من المدينة. لم يخطر لي أن باستطاعتي أن أتصل بالفندق بالهاتف لأطمئن على زوجتي. فقد سلّمت بأن السنترال المركزي لابد قد توقف - والواقع أنه لم يتوقف إلا مقدار ساعتين. كان في البناءين حوالي الثلاثمئة شخص. غالبيتهم من الطبقات الأفقر، من الحواري الخلفية السفلية المحاذية لأرصفة الشحن؛ بينهم عدد من النساء، منهن من تحمل طفلها على ذراعها، وشرذمة من الأولاد المشعثين. أظن أن الكثير منهم ليس لديه أية فكرة عما يجري، وأنهم التجأوا إلى البناء طلباً للحماية. وان هناك أيضاً عدد من رجال الميليشيا في إجازة، وقليل من الأجانب. وبحسب تخميني لم يكن بيننا جميعاً إلا حوالي الستين بندقية، وكان المكتب في الطابق الأعلى محاصراً على الدوام بأناس يطالبون بالسلاح ويجاب عليهم بأن لم يبق منه شيء. وكان صغار السن من صبيان الميليشيا، و يظهر أنهم يعتبرون الأمر مجرد حفلة، يتذمرون ويتجولون في كل الأنحاء محاولين بالتملق أو السرقة الحصول على البندقية ممن يحملونها. ولم يمض طويل قبل أن اختطف واحد منهم بندقيتي، وتوارى عن الأنظار. وهكذا عدت أعزلَ ثانيةً، إلا من مسدسي الآلي الصغير الذي ليس معه إلا مشط واحد من الذخيرة.

حل الظلام، وبدأت أشعر بالجوع، والظاهر أن ليس من طعام في الفالكون. تسللنا أنا وصديقي إلى فندقه على مسافة غير بعيدة، لتناول العشاء. الشوارع كانت مطبقة الظلام والصمت.، لايتحرك فيها مخلوق. الأبواب الفولاذية مسدلة على كل

واجهات الدكاكين، لكن لم يجر بناء أية متاريس حتى ذلك الحين. وقد حدث كثير من اللغط قبل أن يسمح لنا بدخول الفندق الذي كان مغلقاً بالمزاليج والقضبان الحديدية. وحين عدنا علمت أن السنترال المركزي كان شغالاً فذهبت إلى الهاتف في المكتب العلوي لمخابرة زوجتي. وكما هو متوقع لم يكن من دليل للهاتف في البناء كله، ولم أكن أحفظ رقم هاتف فندق الكونتيننتال؛ وبعد حوالي الساعة من التفتيش من غرفة إلى غرفة، وقعت على كتيِّب سياحي مذكور فيه الرقم. لم أستطع الاتصال بزوجتي بالذات، لكنني وصلت إلى جون مك ناير، ممثل الحركة العمالية الإنجليزية في برشلونة. أخبرني أن الجميع بخير وأنه لم يصب أحد هناك. واستفسر عن أحوالنا في مقر اللجنة المحلية، فأجبته بأن حالنا يكون على مايرام لو كان لدينا بعض السجائر. لم أقصد بهذا إلا المزاح؛ ومع هذا ظهر مك ناير بعد نصف ساعة ومعه علبتان من اللوكي سترايك. لقد خاطر بالمرور في تلك الشوارع المعتمة، تجوبها الدوريات الأناركية التي استوقفته مرتين على فوهة المسدس وتفحصت أوراقه. لن أنسى أبداً هذا العمل البطولي الصغير. وقد سررنا كثيراً بالسجائر.

كانوا قد ركزوا حرساً مسلحاً على معظم النوافذ، وفي الشارع تحت كان بعض جنود الصاعقة يستوقفون المارين القلائل ويستجوبونهم. وقد مرت سيارة دورية أناركية تعج بالمسلحين. وإلى جانب السائق جلست فتاة جميلة في حوالي الثامنة عشرة تهدهد رشيشاً صغيراً على ركبتيها. قضيت وقتاً طويلاً أجول في البناية، كانت مكاناً للتيه يستحيل تعلّم جغرافيته. وفي كل مكان كانت القمامة المألوفة، والأثاث المحطم والأوراق الممزقة التي تبدو من نواتج الثورة التي لايمكن تجنبها. وفي جميع أنحاء البناء كان أناس نائمون؛ وعلى أريكة مكسورة في الممر كانت امرأتان من أرصفة الميناء تُصدران الشخير آمنتين. كان المكان مسرح منوعات قبل أن يستولي عليه اتحاد نقابات الـp.o.u.m مجهزاً بدكك مرفوعة للأداء المسرحي في بضع قاعات؛ على إحداها كان يقبع بيانو مهجور. وأخيراً اكتشفت ماكنت أبحث عنه

"الترسانة". لم أكن أدري ماستتمخض عنه هذه الأحداث، فكنت أتحرق على السلاح. ولقد سمعت مراراً وتكراراً بأن كل الفرقاء المتنازعين؛ P.S.U.C. و P.O.U.M.,و C.N.T. – F.A.I. بلا استثناء، قد خزنوا السلاح في برشلونة، لذا لم أستطع أن أصدق بأن بناءين كبيرين لقيادة اتحاد الـP.O.U.M لاتحتويان إلا على تلك الخمسين أو الستين بندقية التي رأيتها. كانت الغرفة المستعملة خزانة للسلاح بلا حراسة، ولها باب مخلخل؛ فلم نجد صعوبة، أنا وأحد الإنكليز الآخرين في خلعه بعتلة. وحين صرنا في الداخل وجدنا أن ماسمعناه كان حقاً. فلم يكن هناك أسلحة! لم يكن ثمة إلا دزينتان من البنادق الضيقة العيار من طراز بائد، وبضع بنادق رش (خردق)، بدون خراطيش لأي من النوعين. صعدت إلى المكتب وسألت عما إذا كان لديهم بعض ذخيرة المسدسات الفائضة؛ ولم يكن لديهم منها شيء. على أية حال كان هناك بضعة صناديق رمانات يدوية، جلبتها لنا إحدى سيارات الدورية الأناركية. وضعت زوجاً منها في جعبة الخرطوش عندي. طرازها بدائي وتشتعل بحكّ ضرب من الثقاب في أعلاها، فهي قابلة للانطلاق من ذاتها.

كان الناس متمددين نياماً على الأرضية كلها. وفي إحدى الغرف تعالى بكاء طفل بلا انقطاع. وبالرغم من أننا كنا في مايو كانت الليلة باردة. وكان على أحد مسارح الكاباريه مازالت الستائرة معلقة، فأنزلت إحداها بسكيني، ولففت نفسي بها ونمت عدة ساعات. أذكر أن نومي كان ينغصه خوفي من تلك القنابل اللعينة على جسدي، فقد تنسفني هباء إذا تقلبت عليها واحتككت بها بشدة. وفي الثالثة صباحاً جاء الشاب الطويل الوسيم الذي يبدو أنه قائد ذلك الموقع فأيقظني، وأعطاني بندقية، وعيّنني للحراسة على إحدى النوافذ. وأخبرني بأن سالاس، رئيس البوليس المسؤول عن الهجوم على مركز الهاتف قد وضع قيد الاعتقال. (والواقع، كما علمنا لاحقاً، أنه جرى فقط إبعاده عن مركزه. رغم هذا أكدت هذه الأخبار الانطباع السائد بأن الحرس الوطني كان يتصرف من عنده بدون أوامر.) وماإن طلع الفجر حتى بدأ

الناس في الطابق الأول ببناء متراسين، واحد خارج بناء اللجنة المحلية، والآخر خارج فندق الفالكون. كانت شوارع برشلونة مرصوفة بحجارة مكعبة يسهل بناء حائط منها، وتحت تلك البلاط نوع من الحصى الناعم يصلح لملء أكياس الرمل. كان بناء تلك المتاريس منظراً عجيباً؛ وإنّي لأدفع الكثير لو استطعت تصويره بالكاميرا. فبذلك الاندفاع للعمل الذي يصدر عن الإسبان إذا عقدوا العزم على عمل ما، اصطف عدد كبير من الرجال والنساء بل وكثير من الصبيان، يقتلعون الحجارة المرصوفة، وينقلونها بعربة يدوية عثروا عليها في مكانٍ ما، ويترنحون جيئة وذهاباً تحت أكياس الرمل الثقيلة. وعلى مدخل اللجنة المحلية وقفت فتاة يهودية ألمانية، ترتدي زوجاً من سراويل الميليشيا تصل أزرار الركبة فيه إلى كاحلها*، تتفرج وهي تبتسم. وبغضون ساعتين كان المتراس على ارتفاع القامة، وحملة البنادق على الفتحات فيه، ووراء أحد المتراسين كانت النيران تشتعل والرجال يشوون البيض.

استخلصوا مني بندقيتي مرة ثانية، ولم يبق شيء ذو جدوى يمكن للمرء أن يفعله. فقررنا، أنا وإنجليزي آخر، أن نعود إلى فندق الكونتيننتال. كان إطلاق النار مايزال غزيراً لكن بعيداً، ويبدو أنه لم يكن منه شيء في الرامبلاس. وفي طريقنا صعوداً نظرنا إلى سوق المواد الغذائية، قليل من الدكاكين كانت مفتوحة؛ وكانت محاصرة بجمهور من حواري الطبقة العاملة جنوبي الرامبلاس. ولحظة وصولنا إلى هناك بدأ إطلاق نار غزير في الخارج وتكسرت بعض ألواح الزجاج من سقف السوق، فاندفع الجمهور للنجاة من المداخل الخلفية. لكن ظلت بعض الدكاكين مفتوحة فحصلنا على فنجان من القهوة لكل منا واشتريت قالباً من جبن الماعز حشرته إلى جانب القنبلتين. وبعض بضعة أيام كنت سعيداً لاحتيازي تلك الجبنة اللذيذة.

---

* سنة ١٩٣٧ لم تكن النساء يرتدين البناطيل، فكان من معالم التحرر الجديد في الثورة الإسبانية ارتداء النساء البناطيل العسكرية. والمؤلف سوف يكرر هذه الملاحظة مرة أخرى في هذا الكتاب. [المترجم]

على زاوية الشارع التي رأيت الأناركيين يبدأون إطلاق النار منها أمس أقيم متراس وراءه رجل أخذ يناديني ويطلب مني الحذر (كنت على الطرف الآخر من الشارع). كان أفراد الحرس الوطني المتمركزون في الكنيسة يطلقون النار على كل من يمر بدون تمييز. توقفت قليلاً. ثم عبرت الثغرة راكضاً، وحقاً انطلقت الرصاصة، ومرت قريبة مني على مسافة لاتدعو للارتياح. وحين اقتربت من بناء إدارة اتحاد الـ p.o.u.m ، وأنا مازلت على الجانب الآخر من الشارع، جاءتني تحذيرات جديدة من رجال من قوات الصاعقة يقفون على مدخل البناء - صرخات لم أفهم مغزاها فوراً. كان ثمة بعض الأشجار وكشك لبيع الصحف بيني وبين البناء (فالشوارع من هذا النوع في إسبانيا لها ممشى واسع في وسطها)، فلم أتمكن من رؤية مايشيرون إليه. ذهبت إلى الكونتيننتال، وتأكدت من أن كل شيء على مايرام، وغسلت وجهي، ثم عدت إلى مقر إدارة الـp.o.u.m (كان يبعد حوالي مئة ياردة أسفل الشارع) لأسأل عن الأوامر. حينئذ بلغ هدير نيران البنادق والرشاشات الآتي من مختلف الجهات، مبلغ ضجيج المعركة الفعلية. عثرت على "كوب" وسألته عما يجب أن نفعل، حين انطلقت سلسلة من الانفجارات تحت في الشارع. كانت الضجة من العلوّ بحيث ظننت أنها قنابل مدفعية سلطها أحدهم علينا. والواقع أنها كانت رمانات يدوية، لكنها تصدر أضعاف الصوت الذي أعرفه حين تكون محصورة بين الجدران الحجرية.

نظر كوب من النافذة، وشكم عصاه وراء ظهره، وقال: «قم بنا نتحرّى». ونزل السلم مختالاً بمشيته المعهودة اللامبالية، وأنا أتبعه. وراء المدخل تماماً كانت زمرة من رجال الصاعقة تدحرج الرمانات إلى أسفل الرصيف وكأنهم يلعبون لعبة الدحل. فتنفجر القنابل بعد عشرين ياردة بفرقعة مريعة تصمّ الآذان وتضاف إلى لعلعة البنادق الجارية. وفي منتصف عرض الشارع، وراء كشك بيع الصحف، برز رأس رجل - كان رأس رجل ميليشيات أمريكاني أعرفه جيداً - لم أستطع تشبيهه

بما في العالم كله إلا بالقرع الملون الذي يعلقونه في المعارض. ولم أفهم تماماً ماكان يجري إلا بعد برهة. فإلى جانب بناء اتحادالـp.o.u.m كان مقهى يعلوه فندق هو كافّيه موكا. وفي اليوم السابق دخل إليه عشرون أو ثلاثون من الحرس الوطني بسلاحهم، وما إن ابتدأت الأحداث حتى استولوا فجأة على المقهى وتمترسوا داخله. والمفترض أنهم ما احتلوا المقهى إلا تمهيداً لمهاجمة مكاتب الـp.o.u.m لاحقاً. وفي الصباح الباكر حاولوا الخروج، وجرى تبادل إطلاق النيران، فجرح أحد جنود الصاعقة جرحاً بليغاً، وقُتل أحد أفراد الحرس الوطني. فعاد الباقون إلى الاحتماء بالمقهى، لكن حين حاول الأمريكاني قطع الشارع فتحوا النار باتجاهه بالرغم من أنه لم يكن مسلحاً. ألقى الأمريكاني بنفسه وراء الكشك محتمياً، وبدأ رجال الصاعقة بإلقاء الرمانات على الحرس الوطني لإجبارهم على الدخول ثانية.

ألقى كوب نظرة خاطفة على المشهد، واندفع بين الحشد إلى الأمام مزيحاً إلى الخلف جندي الصاعقة الألماني الأحمر الشعر الذي كان يهمّ بسحب لقاطة الرمانة بأسنانه. وصاح بالجميع بالتراجع إلى الخلف عن الباب، ثم خاطبنا بعدة لغات بأن علينا تجنب سفك الدماء. وخطا إلى الرصيف البرّاني، وأمام أنظار الحرس الوطني على الجهة الأخرى وبحركات متأنية ظاهرة سحب مسدسه ووضعه على الأرض. وفعل اثنان من ضباط الميليشيا الإسبان الشيء ذاته ومشى ثلاثتهم على مهل إلى المدخل الذي احتشد عليه أفراد الحرس الوطني. كان عملاً لست على استعداد لفعله ولو بعشرين جنيهاً! كانوا يسيرون، عزلاً من السلاح، نحو رجال أطار الخوف صوابهم وسلاحهم ملقّم في أياديهم. تلقّاهم أحد رجال الحرس الوطني يعلوه شحوب الخوف على الباب وأخذ يتحادث مع كوب . وظل يلوح بيده مهتاجاً مشيراً إلى قنبلتين لم تنفجرا ملقاتين على الرصيف. فعاد كوب وأوعز إلينا بتفجير القنبلتين. فبقاؤهما مرميتين على الأرض هو خطر على المارّة. أطلق أحد جنود الصاعقة بندقيته على إحداهما ففجّرها، ثم أطلق على الأخرى فأخطأها. طلبت منه البندقية وركعت

وأطلقت على الثانية فأخطأتها بدوري، للأسف. وكانت هذه الطلقة هي الوحيدة التي أطلقتها في كل تلك الاضطرابات. كان الرصيف مغطى بالزجاج المتناثر من اللافتة على باب مقهى الموكا، والسيارتان اللتان كانتا متوقفتين على الباب، وإحداهما سيارة كوب الرسمية، مخروقتان بالرصاص، وزجاجهما الأمامي متناثر بفعل القنابل.

صعد بي كوب ثانية إلى الطابق الأعلى وشرح لي الوضع. علينا الدفاع عن بناءي الـp.o.u.m إذا هوجما، لكن قادة الاتحاد أرسلوا تعليمات باتخاذنا موقف الدفاع. وبألا نفتح النار إذا استطعنا تجنب ذلك. ثمة مقابلنا تماماً دار للسينما هي بوليوراما، يعلوها متحف، وعلى السطح فوقه أقيم مرصد سماوي صغير ذو قبتين. هاتان القبتان تكشفان الشارع بكامله، ويستطيع بضعة رجال متمركزين هناك أن يمنعوا ببنادقهم أي هجوم على أبنية الـp.o.u.m . كان القيّمون على السينما من أعضاء اتحاد نقابات الـc.n.t فيسمحون لنا بالقُدوم والرواح. أما عن الحرس الوطني في مقهى موكا، فهم لن يسببوا لنا أية متاعب؛ فهم لايريدون القتال، ويسرهم أن يعيشوا ويدعوا غيرهم يعيش. وأعاد كوب قوله بأن أوامرنا تقضي بألا نطلق النار إلا إذا أُطلقت علينا أو هوجمت المقرّات. وفهمت منه، بالرغم من عدم قوله هذا، بأن قادة اتحاد الـP.O.U.M كانوا مغتاظين لاستدراجهم إلى هذا النزاع، لكنهم مضطرون للوقوف إلى جانب اتحاد الـC.N.T

كانوا قد ركزوا الحراسة في المرصد فعلاً. فقضيت الأيام والليالي الثلاثة التالية كلها على سطح البوليوراما، عدا دقائق قصيرة كنت أتسلل فيها إلى الفندق لتناول الطعام. لم يكن عليّ أي خطر، ولم أشكُ إلا من الجوع والملل، لكن تلك الأيام كانت من أكثر الأوقات التي لاتُحتمل في حياتي كلها. أظن أن قليلاً من التجارب يمكن أن تفوق هذه الأيام البغيضة من حرب الشوارع في الاشمئزاز، وخيبة الأمل، وتحطيم الأعصاب.

كنت أقف على السطح مشدوهاً من عبثية هذا كله. من تلك النافذة الضيقة في المرصد تستطيع الرؤية إلى أميال بعيدة حولك - مشاهد متتالية من الأبنية المتطاولة الرشيقة، والقبب الزجاجية، والسقوف الرائعة المخططة بصفوف من القرميد اللماع بالأخضر والنحاسي. وهناك، ناحية الشرق، يقبع البحر الأزرق الفاتح. وهي أول لمحة للبحر أبصرتها عيناي منذ جئت إلى إسبانيا. هذا، وتلك المدينة العظيمة، ذات المليون من الأهالي متورطة بنوع من العطالة العنيفة، كابوس من الضوضاء بدون حركة. الشوارع المشمسة خالية تماماً. لاشيء يحدث إلا زخات الرصاص من المتاريس والنوافذ المدعمة بأكياس الرمل. ليس من عربة تتحرك في الشوارع؛ وهنا وهناك في الرامبلاس توقفت عربات الترام خاوية بعد أن تخلى عنها سائقوها عند ابتداء الاضطرابات. وطوال الوقت لاخلاص من الفرقعات الرهيبة، تتردد أصداؤها من آلاف الأبنية الحجرية، وهي تتطاول وتتطاول وتتطاول، مثل عاصفة مطر استوائية. كراك - كراك، راتل، راتل- راتل، ثم زئير - أحياناً كانت تخفت فلا يتبقى منها إلا طلقات متفرقة. ثم تعود فتتسارع إلى أن تصبح هديراً يُصِم، لكنها لم تكن تهدأ أبداً طوال النهار، لتعود بالضبط مع طلوع الفجر.

ماذا بالشيطان كان يجري؟ من يحارب من؟ ومن الرابح؟ كان هذا من الصعب معرفته للوهلة الأولى. أهالي برشلونة اعتادوا على حرب الشوارع هذه، وهم يألفون الجغرافية المحلية بحيث يعرفون بما يشبه الغريزة كل شارع وزقاق ومَن الفريق الذي يتمركز فيه بل وفي أي بناء بالذات. أما الأجنبي فميؤوس منه من هذه الناحية. من ناحيتي في المرصد كنت أتطلع فأرى بنظرة واحدة أن شارع الرامبلاس، وهو من الشوارع الرئيسية في المدينة، كان يشكل خطاً فاصلاً. فإلي يمين الرامبلاس كانت أحياء الطبقة العاملة وهي أناركية صميمة؛ وإلى اليسار كان يجري صراع مختلط داخل الأزقة الجانبية المتعرجة. لكن اتحاد المنظمات الشيوعي P.S.U.C. والحرس الوطني كانت لهما اليد الطولى إلى حدٍ ما. وفوق. عند الطرف الذي نحن عليه من

الرامبلاس، وحول ساحة بلازا كاتالونيا، كان الوضع من التعقيد بحيث يبدو مستحيل الإدراك لولا أن كل بناء كان يرفع علمه الحزبي. كان المَعْلَم الرئيس هنا فندق كولون. مقر قيادة منظمات الـ .P.S.U.C ويشرف على ساحة كاتالونيا. ففي نافذة عند آخر حرف (O) من اسم الفندق على اللافتة الضخمة التي بعرض الواجهة ركزوا مدفعاً رشاشاً مميتاً يستطيع مسح الميدان بكامله بنتيجة قاتلة. وعلى بعد مئة ياردة إلى يميننا، أسفل الرامبلاس، كانت منظمة شبابهم (.I.S.U) (نظيرة الشبيبة الشيوعية في إنجلترا)، كانت تحتل سوقاً تجاريّاً ضخماً تواجه نوافذه الجانبية المدعمة بأكياس الرمل مرصدنا. وقد أنزلوا علمهم الأحمر ورفعوا علم الكاتالان الوطني. وعلى بناء السنترال المركزي، موقع بداية الأحداث كلها، كان علم الكاتالان الوطني مرفوعاً إلى جانب العلم الأناركي. فقد تم التوصل إلى ضرب من الحلول الوسطى هناك، فكان الهاتف يعمل بدون انقطاع ولاتصدر عن البناء أية نيران.

في موقعنا كان الوضع هادئاً وغريباً. رجال الحرس الوطني في مقهى موكا سحبوا الستائر الفولاذية وجعلوا أثاث المقهى في كومة اتخذوها متراساً. وبعد دقائق خرج ستة منهم إلى السطح مقابلنا وأقاموا متراساً آخر من التكايا، وعلقوا عليه علم الكاتالان الوطني. لكن الواضح أنهم لاينتوون البدء بالقتال. فقد توصل كوب إلى اتفاق محدد معهم؛ إذا لم يطلقوا النار علينا لن نطلق النار عليهم. بل لقد توطد بينه وبينهم نوع من الصداقة بعد أن تردد عليهم عدة مرات في مقهى موكا. كانوا طبعاً قد نهبوا كل مايمكن شربه في المقهى، حتى أنهم نفحوا كوب بخمس عشرة زجاجة من البيرة. وبالمقابل أعطاهم كوب إحدى بنادقنا تعويضاً عن واحدة فقدوها بالأمس.

وعلى كل الأحوال كان شعوري غريباً وأنا متربع على ذلك السطح. أحياناً كنت أحس بالسأم من الحكاية كلها، فلا ألقي بالاً إلى الضجة الجهنمية، وأقضي ساعات بقراءة كتب الجيب من سلسلة بنجوين، كنت لحسن الحظ قد ابتعتها قبل

عدة أيام. وفي أحيان أخرى أكون شديد الانتباه إلى وجود الرجال المسلحين المتربصين على بعد خمسين ياردة مني. فكان هذا أشبه شيء بالوجود في الخنادق على الجبهة ثانيةً. بل لقد رأيتني عدة مرات أتحدث عن الحرس الوطني، بحكم الاعتياد، بلفظ «الفاشيين». كان هناك ستة منا. وكنا نضع حرساً في كل واحد من برجي المرصد، ويظل بقيتنا على رصاص السقف تحتهما، حيث لادريئة إلا الإفريز الحجري. كنت مدركاً تماماً أنه في أية لحظة قد تصل إلى الحرس الوطني أوامر بالهاتف بفتح النار. لقد وافقوا على تحذيرنا قبل أن يفعلوا هذا، لكن لم يكن من ضمانة بأنهم سوف يوفون بالعهد. مرة واحدة فقط بدا أن المشاكل بيننا على وشك الاندلاع. فقد ركع أحد الحرس مقابلنا وبدأ بإطلاق النار من المتراس. كنت في نوبة الحراسة في البرج حينئذ. فهيأت بندقيتي وصحت به:

«هاي! توقف عن إطلاق النار علينا!»

«ماذا تقول؟»

«لاتطلق النار علينا وإلا رددنا عليك!»

«لا، لا! لم أكن أطلق النار عليكم. انظر إلى الأسفل هناك!»

وأشار ببندقيته نحو شارع يتفرع عند أسفل البناء. وحقّاً كان شابّ بلباس العمل الأزرق، والبندقية في يده، يتراجع متوارياً حول الزاوية. ولاشك أنه كان أرسل طلقة باتجاه الحرس الوطني على السطح.

«كنت أطلق النار عليه. وهو أطلق أولاً». (أعتقد أنه كان صادقاً). «نحن لانريد إطلاق النار بيننا وبينكم. لسنا إلا عمالاً. مثلكم تماماً».

وأدى التحية المعادية للفاشية، فرددتها. وناديته من بعيد:

«هل بقي عندكم بقية من البيرة؟»

«لا، نفدت كلها».

في اليوم ذاته، رفع أحد رجال منظمة الشبيبة الشيوعية .i.s.u في بنايتها أسفل الشارع بندقيته إلى كتفه فجأة، وأرسل طلقة باتجاهي بدون سبب ظاهر، وكنت مطلاً من النافذة. ربما صدرت عني إشارة متحدية. لم أردّ عليه. وبالرغم من أنه لم يكن يبعد عني أكثر من مئة ياردة فإن طلقته مرت بعيدة بحيث لم تصب حتى قبة المرصد.فكالعادة أنقذ حياتي مستوى التسديد في إسبانيا. وقد كنت عرضة لإطلاق النار عليَّ من تلك البناية عدة مرات.

استمرت جلبة النيران بلا انقطاع. لكنْ بحسب ما رأيت، وماسمعت، كان القتال دفاعيّاً من كلا الجانبين. ظل الناس قابعين في أبنيتهم ووراء متاريسهم يصلون الناس المقابلين لهم مايستطيعون من النار. وعلى بعد نصف ميل منا كان شارع تقع فيه بعض المكاتب المركزية لكلا اتحادي نقابات الـc.n.t والـu.g.t وكانتا تقريباً متقابلتين؛ من ذلك الاتجاه كان ضجيج النار رهيباً. وقد مررت في ذلك الشارع بعد انتهاء القتال، وكانت ألواح واجهات المحلات التجارية كالمناخل. (معظم أصحاب المحلات في برشلونة ثبّتوا زجاجهم بأشرطة لاصقة متقاطعة، بحيث أن الرصاصة حين تخترق اللوح لاتنثره قطعاً). وكانت لعلعة رصاص البنادق والرشاشات المستمرة تقاطعها بين الحين والحين فرقعة الرمانات اليدوية. وخلال دقائق أطول، ربما أكثر من عشر مرات، سمعنا أصوات انفجارات ثقيلة لم أستطع تخمين ماهيتها في حينها؛ بدت كأنها قنابل جوية، لكن هذا كان مستحيلاً لأنه لم يكن ثمة طائرات في الجو. وقد علمت فيما بعد - وربما صح هذا - أن مثيري الفتن *agents provocateurs* كانوا يفجرون كميات كبيرة من المتفجرات معدة سلفاً لإثارة الذعر العمومي. لكن لم يجر إطلاق لنيران المدفعية. وقد كنت أترقب هذا باستمرار، لأن المدفعية إذا ابتدأت فهذا يعني أن الأمر بدأ يصبح جديّاً (فالمدفعية هي العامل

الحاسم في حروب الشوارع). وقد صدرت الصحف بعدها بقصص مهولة عن بطاريات المدفعية تنطلق في الشوارع، لكن لم يكن أحد يستطيع أن يشير إلى بناية محددة أصابتها قنبلة مدفعية. وعلى كل الأحوال فإن أصوات نار المدفعية لايخطئها من كان معتاداً عليها.

منذ البداية تقريباً بدأ الطعام ينفد. فبصعوبة، وتحت جنح الظلام (لأن الحرس الوطني كان مستمرّاً في إطلاق نيران القنص على طول الرامبلاس) كان يجلب الطعام من فندق الفالكون لرجال الميليشيا الخمس عشر أو العشرين الذين كانوا في مقر إدارة اتحاد الـP.O.U.M لكن لم يكن هناك إلا الكفاف، وقد كان أكبر عدد ممكن منا يقصد فندق الكونتيننتال لتناول الطعام. كان الكونتيننتال قد أصبح "تعاونياً" بأمر الحكومة العمومية، الجنراليتة، وليس مثل معظم الفنادق بأمر اتحادي النقابات الـ C.N.T. أو الـU.G.T ، لذا كان يعتبر أرضاً محايدة. وبسرعة ابتداء الأحداث امتلأ الفندق إلى الحافة بأكثر الناس شذوذاً وغرابة. كان ثمة الصحافيون الأجانب، والمشبوهون السياسيون من كل لون، وطيار أمريكاني في خدمة الحكومة، ومختلف العملاء الشيوعيين، بما فيهم واحد روسي قحّ بدين، قيل إنه كان وكيلاً للأجبو OGPU ، ولُقِّب بشارلي شان، وكان يربط إلى حزامه مسدساً دواراً ورمانة صغيرة أنيقة. وكان هناك أيضاً بعض الأسر الإسبانية الميسورة الذين لايختلفون عن المتعاطفين مع الفاشيّة، واثنان أو ثلاثة من جرحى الفيلق الدولي، وزمرة من سائقي الشاحنات الفرنسيين نزلوا من شاحنات ضخمة تحمل شحنة من البرتقال إلى فرنسا وأعاقها القتال، وعدد من ضباط الجيش الشعبي. ظل الجيش الشعبي، إجمالاً، محايداً طوال القتال، بالرغم من أن أعداداً من الجنود تسربوا من الثكنات وشاركوا كأفراد؛ وقد رأيت صبيحة الثلاثاء اثنين منهم على متاريس اتحاد الـP.O.U.M . في البداية، وقبل النقص الحاد في الأغذية، ونفخ الصحافة في نار الكراهية، كان الميل

عاماً على اعتبار الأحداث مجرد طرفة عارضة. كان الناس يقولون إن هذا من الأحداث التي تجري في برشلونة كل سنة.

دخل جورج تيولي، وهو صحفي إيطالي وصديق عزيز، وسراويله تقطر منها الدماء. كان خرج لرؤية مايجري وساعد في تضميد إصابات أحد الجرحى على الرصيف حين تناول أحدهم قنبلة يدوية وألقاها عليه برعونة، ولحسن الحظ لم تكن جراحه خطرة. أذكر أنه اقترح أن يجري ترقيم أحجار أرصفة الطرق في برشلونة ؛ لأن هذا يوفر كثيراً في الاقتلاع وإعادة البناء بعد هدم المتاريس. وأذكر اثنين من رجال الفيلق الدولي جالسين في غرفتي في الفندق عند دخولي متعباً، جائعاً، تعلوني الأوساخ بعد ليلة في الحراسة. كان موقفهما محايداً تماماً. ولو كانا من الحزبيين «الصالحين» لشجعاني أن أنحاز إلى الجانب الآخر، أو لثبّتاني و"شلّحاني" القنابل التي كانت تملأ جيوبي؛ وبدلاً من هذا أخذا بمواساتي على اضطراري إلى قضاء إجازتي في أعمال الحراسة على السطح. كان الموقف العام هكذا: «هذا ليس إلا تنفيض للغبار بين الأناركيين وبين البوليس - وهو لايعني أي شيء». وبالرغم من اتساع مدى القتال، وعدد الإصابات أعتقد جازماً بأن هذا كان أقرب إلى الحقيقة من الرواية الرسمية التي صورت الحوادث بأنها انتفاضة مخطط لها.

لم يبدُ إلا في صبيحة الأربعاء (٥مايو) أن بعض التغير طرأ على الأحوال. الشوارع بدت خالية. بضعة مشاة، أخرجتهم الحاجة، لسبب أو لآخر، كانوا يسيرون بحذر ملوّحين بمناديل بيضاء. وفي بقعة في منتصف الرامبلاس، وكانت آمنةً من الرصاص الطائش، وقف بعض البائعين ينادون على الجرائد في الشارع الخالي. يوم الثلاثاء وصفت جريدة سوليداريداد أوبريرا، الناطقة بلسان الأناركيين، الهجوم على السنترال المركزي بأنه «استفزاز وحشي» أو (مابمعناه)، لكنها يوم الأربعاء غيرت لهجتها وبدأت تهيب بالجميع أن يعودوا إلى أعمالهم. وكان قادة الأناركيين

يذيعون ما بنفس المعنى. أما جريدة لاباتاليا الناطقة باسم ماركسيي منظمة الـ p.o.u.m. فلم يكن مقرها محميّاً وقد احتله الحرس الوطني مع احتلاله السنترال المركزي، لكن الصحيفة طبعت وجرى توزيع قليل من النسخ من مكان آخر. وقد أخذت تحث الجميع على البقاء خلف المتاريس. كان الناس مشتتي الذهن يتساءلون عن نهاية هذا كله. لاأظن أن أحداً كان قد ترك المتاريس حتى ذلك الوقت، لكن الجميع كانوا قد سئموا هذا القتال العبثي، الذي اتضح أنه لن يؤدي إلى نتيجة، لأن الجميع لم يكن يرغب في تطور الأمور إلى حرب أهلية كاملة قد تعني خسارة الحرب ضد فرانكو. سمعت تعابير عن هذا الخوف من جميع الأطراف. وبقدر ما يتحصل من أقاويل ذلك الحين لم تكن كوادر الـc.n.t ترغب، الآن ومن قبل، إلا بشيئين: إعادة تسلمها السنترال المركزي، ونزع سلاح الحرس الوطني البغيض. ولو قبلت الجنراليتا (الحكومة المحلية) هذين المطلبين، وأنهت الاستغلال والتهريب في المواد الغذائية، فلا شك أن المتاريس كانت أزيلت في ساعتين. لكن كان واضحاً أن الجنراليتا لاتنوي التراجع. وانتشرت إشاعات سيئة في الجو. قيل إن حكومة فالنسيا أرسلت ستة آلاف رجل لاحتلال برشلونة، وأن خمسة آلاف من مسلحي الأناركيين وماركسيي الـp.o.u.m قد غادروا جبهة الأراغون وعادوا لمواجهتهم. وقد كانت الإشاعة الأولى وحدها هي الصحيحة. فمن منظرتنا على سطح المرصد شاهدنا الشخوص الرمادية للسفن الحربية تقترب من الميناء. وقد قال دوجلاس مويل، وكان بحاراً، إنها شبيهة بالمدمرات البريطانية. والواقع أنها كانت بالفعل بريطانية، لكننا لم نعرف أنها كذلك إلا بعد حين.

وفي المساء سمعنا أنه في ساحة بلازا دي إسبانيا استسلم أربعمئة من رجال الحرس الوطني وسلّموا أسلحتهم للأناركيين. وأيضاً تسربت أخبار غامضة أن المناطق الواقعة في الضواحي (ومعظمها أحياء تقطنها الطبقة العاملة) أصبحت تحت السيطرة الكاملة لاناركيي الـc.n.t . فالظاهر أننا كنا في موقف المنتصر. لكن في المساء ذاته

طلبني كو واستقبلني بوجه متجهم، وأخبرني بأن الحكومة، بحسب المعلومات التي تلقاها، تنوي حظر الـp.o.u.m وإعلان الحرب عليها. وكانت الأخبار صدمة أتلقاها. وكانت اللمحةَ الأولى التي تظهر لي عن التفسير الذي سوف يُسبغ على الأحداث في المستقبل. رأيت رؤية غامضة أنه ما إن تنتهي الأحداث حتى يُلقى اللوم كله على اتحاد النقابات الماركسي الـp.o.u.m وهو أضعف الأطراف، وبالتالي الأنسب عند الحاجة إلى كبش فداء. فالآن أصبح وقوفنا على الحياد منتهياً. وإذا أعلنت الحكومة الحرب علينا لايبقى أمامنا مجال للاختيار إلا أن ندافع عن أنفسنا، وهنا، في بناء المقر لنا أن نتأكد بأن أفراد الحرس الوطني المجاورين لنا سوف تأتيهم الأوامر بمهاجمتنا. ففرصتنا الوحيدة هي في أن نهاجمهم أولاً. وكان كوب بانتظار الأوامر على الهاتف؛ فإذا تأكدنا بأن الـ.p.o.u.m أصبحت محظورة فعلينا اتخاذ الترتيبات لاحتلال مقهى موكا.

أذكر أنها كانت ليلة متطاولة، كابوسية قضيناها في تحصين البناء. أقفلنا الستائر الفولاذية على طول المدخل الأمامي وأقمنا وراءها متراساً من أحجار البناء التي خلّفها عمال كان يجرون بعض التعديلات. وأحصينا مخزوننا من السلاح، وجمعنا إليها ست البنادق التي كانت على سطح سينما البوليوراما المقابلة. كان لدينا إحدى وعشرون بندقية، واحدة منها معطوبة، وحوالي الخمسون طلقة من الذخيرة لكل منها، وبضع دزينات من الرمانات اليدوية؛ لاغير، إلا بضع مسدسات بمشط وبدولاب «أبو طاحونة». وقد تطوع حوالي اثنا عشر رجلاً، معظمهم من الألمان. لمهاجمة مقهى موكا، إذا لزم الأمر. سنهاجم من السطح طبعاً، عند السحَر لنأخذهم فجأة؛ كانوا أكثر عدداً، لكن معنوياتنا أعلى. فلاشك نستطيع أن نقتحم المكان، بالرغم من أنه سوف يقع قتلى في العملية. لم يكن لدينا من أغذية في البناء إلا بضعة ألواح من الشوكولاتة، وقد سرت شائعة «أنهم» سوف يقطعون المياه. (لم يكن أحد يعرف من المقصود بـ «هم». قد تكون الحكومة التي تسيطر على تمديدات المياه، وقد

تكون الـc.n.t ، من يدري؟) قضينا وقتاً نملأ كل حوض في دورات المياه، وكل دلو وقع بين أيدينا، وأخيراً قوارير البيرة الخمس عشر التي أصبحت فارغة، والتي كان أعطاها أفراد الحرس الوطني لكوب .

كنت في حال سيئة من الأفكار المضطربة والإنهاك الجسدي بعد حوالي الستين ساعة بدون كفاية من النوم. وقد أصبح الوقت متأخراً من الليل. وكان الناس نائمين على طول الأرضية وراء المتراس في الطابق الأرضي. وكان في العلوي غرفة صغيرة، فيها تكيّة كنا ننوي جعلها غرفة تضميد، بالرغم من أنه لاداعي للقول بأنه لم يكن عندنا صبغة يود ولا ضمادات في البناء كله. وقد حضرت زوجتي من الفندق للعمل في حال اضطر الأمر إلى ممرضة. ألقيت بنفسي على الأريكة لشعوري بأنني بحاجة إلى نصف الساعة من الراحة قبل الهجوم على مقهى موكا، الذي كنت متأكداً بأنني سأقع فيه قتيلاً. أذكر بوضوح الانزعاج الذي يفوق الاحتمال بسبب مسدسي المربوط إلى حزامي والذي كان يضغط بشدة على سلسلة ظهري. وفوراً بعدها أذكر أنني فتحت عينيّ مع انتفاضة لأجد زوجتي فوق رأسي. كان الوقت نهاراً والضوء يملأ المكان. إذن لم يحدث شيء، ولم تعلن الحكومة الحرب على الـ p.o.u.m. ، والمياه لم تُقطع، ولولا بعض الرصاصات التي تسمع بين الحين والحين في الشوارع لكان كل شيء على طبيعته. قالت زوجتي أنه لم يطاوعها قلبها على إيقاظي، وأنها نامت على مقعد في إحدى الغرف الأمامية.

كان عصر ذلك اليوم نوعاً من الهدنة. تلاشى إطلاق النار، وبسرعة مدهشة امتلأت الشوارع بالناس. وبدأ قليل من الحوانيت برفع الأغلاق، وامتلأت الأسواق بحشود الناس يتزاحمون على المواد الغذائية، بالرغم من أن البسطات كانت شبه فارغة. لكن لوحظ أن حافلات الترام لم تستأنف سيرها. وكان رجال الحرس الوطني على حالهم وراء المتاريس في مقهى موكا، ولم يجر إخلاء البنايات المحتلة من أي

طرف. كان الجميع يسعى هنا وهناك لشراء الطعام. وفي جميع الأنحاء كنت تسمع نفس السؤال: «هل تظن أنه انتهى الأمر؟ أم تراه يعود من جديد؟» كأن «الأمر» - القتال - كان يعتبر من الكوارث الطبيعية مثل العواصف والزلازل، تصيبنا جميعاً على السواء، وليس لنا من قدرة على الوقوف بوجهه. والحق أنه في مايشبه اللحظة الفورية، وكأن الهدنة التي دامت في الواقع بضع ساعات، لم تكن إلا دقائق - انفجر الوضع بوابل من رصاص البنادق - مثل فرقعة الغيوم في يونيو، جعلت الجميع يهرعون في كافة الأنحاء، والأغلاق الفولاذية تنزل على أبواب المحلات، وبلمسة ساحر خلت الشوارع كما كانت امتلأت، والمتاريس عاد إليها رجالها. فذلك «الأمر» عاد ولم ينته.

عدت إلى نقطتي على السطح بشعور من الغثيان والحنق الشديدين. فحين تساهم في مثل هذه الأحداث تكون، في رأيي، تساهم ولو إلى مدى صغير في صنع التاريخ، ولك ملء الحق بالإحساس بشعور الشخصيات التاريخية. لكن هذا لم يحدث أبداً، لأن تلك الأوقات تتغلب فيها التفاصيل الآنية والجسدية التي تفوق كل شيء. طوال تلك الأحداث لم أتوقف لأقوم «بالتحليل» الواجب للوضع الذي شوهه ارتجال الصحافيين البعيدين مئات الأميال. ماكان يشغل تفكيري لم يكن الحق والباطل في هذا الاختباط المميت، بل كان ببساطة، القلق والتململ من القعود ليلاً ونهاراً على ذلك السطح المقيت، والجوع الذي كان يزداد سوءاً - إذ لم يتناول أحدنا وجبة كاملة منذ الإثنين. لم يفارق ذهني طوال ذلك الوقت أن عليّ أن أعود إلى الجبهة فور انتهاء الأحداث. وكان هذا يثير الغيظ. لقد قضيت مئة وخمسة عشر يوماً على خطوط النار ثم عدت إلى برشلونة طلباً لقليل من الراحة والمتعة؛ وبدلاً منه كان عليّ قضاء الوقت جالساً على سطح مقابل للحرس الوطني الذين لايقلون سأماً عني، والذين كانوا بين الحين والحين يلوّحون لي ويؤكدون بانهم من الكادحين (ويقصدون من هذا أنهم يرجون ألا أطلق النار عليهم)، وهم، مع هذا، لايتورعون

عن إطلاق النار إذا صدر لهم الأمر بذلك. فإذا كان هذا هو التاريخ فلا أظن أنني أحببته. لم تكن المرحلة أشبه في السوء إلا بما على الخطوط الأمامية، حين كان الرجال قلّة وكان علينا أن نؤدي نوبات غير معتادة من الحراسة؛ وبدلاً من أن ينعم المرء في ظلال البطولة، كان عليه أن يتحمل بقاءه في نقطته، يقتله الملل، ويكاد يسقط من النعاس، وليس مهتماً البتة بالغاية من هذا كله.

داخل الفندق، وبين الخليط المتنافر من الناس المحتشدين فيه الذين لم يجرؤ معظمهم على مد أنفه خارج الأبواب، استفحل جو رهيب من الريبة والشك. وسرت عدوى الخوف من الجواسيس على كافة المستويات هناك فكانوا يتسللون هنا وهناك ويتهامسون بأن كل ماعداهم كانوا جواسيس، إما للشيوعيين وإما للتروتسكيين، وإما للأناركيين، وإما لكائن من كان. وكان العميل الروسي البدين ينزوي باللاجئين الأجانب كلٍّ بدوره ليشرح له بأن القضية ماهي إلا مؤامرة أناركية. كنت أراقبه باهتمام لأنني أشاهد لأول مرة في حياتي شخصاً محترفاً وظيفته إطلاق الأكاذيب – إذا استثنينا الصحافيين. كان ثمة ماينفر في المهزلة القائمة من استمرار الحياة الأنيقة لذلك الفندق وراء النوافذ المغلقة وبين هدير طلقات البنادق. لقد تركوا غرفة الطعام الأمامية بعد أن اخترقت طلقة النافذة وشحذت أحد الأعمدة، وحشدوا الجمهور في غرفة مزدحمة معتمة في الخلف، حيث لم يعد من الطاولات مايكفي الجميع. كما انخفض عدد الخدم لأن بعضهم كانوا أعضاء في نقابات اتحاد الـc.n.t وقد انضموا إلى الإضراب العام – وقد تخلى الباقون عن قمصانهم المنشّاة للوقت الحاضر، لكن ظلوا يقدمون الوجبات مع المجاملة المعهودة. لم يكن ثمة في الواقع مايؤكل. وفي ليلة الخميس تلك كان الطبق الرئيس للعشاء سردينة واحدة للفرد. وقد نفد الخبز من الفندق منذ عدة أيام؛ حتى النبيذ أخذ يقل ويندر بحيث أصبحنا نشرب نبيذاً أعتق فأعتق مع الأيام بأسعار أعلى فأعلى. وقد استمر في الفندق هذا النقص في الطعام عدة أيام بعد انتهاء الأحداث. أذكر أنه ظللنا أنا وزوجتي ثلاثة أيام متتالية نتناول

إفطارنا من قطعة صغيرة من جبن الماعز بدون خبز وبلا مشروب. الشيء الوحيد الذي كان متوافراً هو البرتقال. فقد أدخل سائقو سيارات النقل الفرنسيون منه إلى الفندق كميات كبيرة من سياراتهم. كانوا عصبة تبدو عليهم الجلافة، وكانوا يصطحبون فتيات إسبانيات وحمّال ضخم بقميص أسود. وفي غير هذه الظروف لاشك أن مدير الفندق كان يبذل جهده لجعل حياتهم لاتطاق، بل كان يرفض استقبالهم في حوزته، لكنهم في الوقت الحاضر كانوا يتمتعون بالشعبية لأنهم يمتلكون مخزوناً خاصّاً من الخبز الذي كان الكل يحاول استنزاف بعضه منهم.

أمضيت الليلة الأخيرة على السطح، وفي اليوم التالي بدا أن القتال في طريقه إلى الانتهاء حقّاً. لاأظن أنه جرى الكثير من إطلاق النار في ذلك اليوم - الجمعة. لم يكن يبدو أن أحداً كان متأكداً ما إذا كان جنود فالنسيا قادمين أم لا؛ لكنهم وصلوا ذلك المساء حقّاً. كانت الحكومة تذيع بلاغات نصف مهدّئة ونصف مهددة، تطلب من الجميع العودة إلى بيوتهم قائلة أنه بعد ساعة معينة سيجري اعتقال كل من يشاهد حاملاً سلاحاً. لم تنل بلاغات الحكومة الكثير من الاهتمام، لكن بدأ الناس يتغيبون عن المتاريس. وأنا متأكد أن المسؤول الأول كان النقص في الغذاء. وقد كنت تسمع من جميع الأنحاء عبارة «ليس عندنا ما نأكله، ونحن مضطرون إلى العودة إلى العمل». ومن الناحية الأخرى ظل أفراد الحرس الوطني، المطمئنين إلى أن أقواتهم ستصلهم طالما كان في المدينة مواد غذائية، قادرين على البقاء مرابطين في نقاطهم المحددة. عنِد العصر كانت الشوارع قد عادت تقريباً إلى طبيعتها، بالرغم من أن المتاريس التي هجرها أصحابها ظلت قائمة، وامتلأ الرامبلاس بالجماهير، والحوانيت جميعاً فتحت أبوابها، إلى أن حصل الشيء الذي يجعل المرء أكثر اطمئناناً - الترام الذي ظل طويلاً كتلاً متجمدة هنا وهناك، انتفض وعاد إلى المسير. ظل الحرس الوطني محتفظاً بمقهى موكا ولم ينقض متاريسه هناك. لكن بعض أفراده أخرجوا كراسيهم وجلسوا على الرصيف وبنادقهم على ركبهم. غمزت لأحدهم من

طرف وأنا مارٌّ به فرد عليّ بابتسامة لا تحمل أي عداء، وقد عرفني طبعاً. على السنترال المركزي أُنزل العلم الأناركي وبقي علم الكاتالان مرفوعاً. وهذا يعني أكيداً أن العمال خسروا. وهنا شككت، لكن لسذاجتي السياسية حينئذ، لم أعط الأمر أهميته الواجبة - بأن الحكومة بعد أن تزداد ثقة بإمكانياتها، ستبدأ منهم بالانتقام. في ذلك الوقت لم أكن مهتمّاً بهذا الجانب من الأمور. كل ماأحسست به كان شعوراً عميقاً بالراحة والخلاص من ضجة النيران الشيطانية، وبأنني أستطيع الآن أن أبتاع بعض الطعام وأنال بعض الراحة والأمن قبل العودة إلى الجبهة.

لابد أنه في ساعة متأخرة من المساء بدأ ظهور العساكر القادمة من فالنسيا في الشوارع. كانوا من حرس المداهمة، وهو تشكيل آخر مشابه لهذين الآخرين، الحرس الوطني، والكارابينيروز (أي كان تشكيلاً مقصوداً به أعمال الدرك والشرطة)، ونخبة العساكر في الجمهورية. فجأة بدوا وكأن الأرض انشقت عنهم؛ فكنت تراهم في كل مكان يجوبون الشوارع في دوريات من عشرة أفراد، طوال ببزّات رسمية رمادية أو زرقاء، وبنادقهم الطويلة معلقة على أكتافهم، مع رشيش صغير لكل زمرة.

حينئذ بقي علينا عمل واحد دقيق حساس لابد من القيام به. وهو أن البنادق الستّ التي استخدمناها في الحراسة على برجي المرصد كانت ملقاة هناك، ولابد من إعادتها إلى مقرنا بأي ثمن! لم يكن مطلوباً إلا قطع الشارع بها. فهي جزء من ترسانة بناء المقر، لكن حملها على المكشوف في الشارع يعد انتهاكاً لتحذيرات الحكومة، وإذا قبض علينا وهي في أيدينا فلا شك في أننا سنعتقل - والأسوأ منه أن البنادق ستصادر. وباقتصار البناء كله على إحدى وعشرين بندقية، لايمكننا التفريط بست منها. وبعد مداولات مطولة حول أنسب الطرق، بدأت أنا وفتى إسباني أحمر الشعر بإخراج البنادق، كان سهلاً أن نروغ من دوريات حرس المداهمة، أما الخطر فكان من الحرس الوطني في مقهى موكا، الذين كانوا على تمام العلم بأن لدينا

سلاحاً في المرصد وقد يثيرون المشاكل إذا شاهدونا نقطع بها الشارع. فخلع كل منا بعض ثيابه وعلق البندقية على كتفه الأيسر. أخمصها تحت الإبط والسبطانة داخل كم السروال. ومن سوء الحظ أنها كانت من نوع الموزر الطويل. وحتى الرجل الذي بطولي لايمكنه أن يرتدي بندقية موزر في بنطاله ويشعر بالراحة. وقد كان من العذاب الأليم النزول من الأدراج الحلزونية للمرصد ورجلك اليسرى متصلبة قطعة واحدة. ومإإن وصلنا إلى الشارع حتى وجدنا أن علينا السير بكل بطء، بحيث لانضطر لثني الركبة. وخارج دار السينما رأيت حشداً من الناس يحدق بي باهتمام وأنا أجر جسمي بسرعة السلحفاة. وكثيراً ما أتساءل ترى ماذا دار في أفكارهم عما أصابني. ربما عدّوني جريح حرب. على أية حال هرّبنا البنادق بدون حادث معكر.

وفي اليوم التالي كان حرس المداهمة في كل مكان، يسيرون في الشوارع كالغزاة. ليس من شك في أن الحكومة تقوم بعرض للقوة لكي ترهب شعباً تعرف تماماً أنه لن يقاوم؛ ولو كان ثمة خوف حقيقي لديها من انتفاضات أخرى لأبقي الحرس في الثكنات ولم ترسله في الشوارع زمراً صغيرة. كانوا جنوداً ظرفاء، أحسن من رأيت من الجنود في إسبانيا، وبالرغم من أنه كان عليّ أن أعدهم بمعنى ما «من الأعداء» إلا أنني لا أتمالك من القول بأنني أعجبت بمنظرهم. وقد كنت أراقب مشيتهم الإيقاعية جيئة وذهاباً بدهشة شديدة. فقد تعودت على رؤية الميليشيات الرثة الثياب الضعيفة التسليح على جبهة الأراغون، ولم أكن أعرف أن الجمهورية لديها مثل هؤلاء الجنود. ولم يكن انتقاؤهم من اللائقين جسدياً للخدمة وحده الذي أثار دهشتي، بل ونوعية سلاحهم أيضاً. كانوا جميعاً مسلحين ببنادق جديدة تماماً من النوع المعروف بالبندقية «الروسية» (تلك البنادق أرسلها إلى إسبانيا الاتحاد السوفياتي، لكنني أعتقد أنها من صنع أمريكي). ولقد تفحصت واحدة منها. لم تكن البندقية الكاملة، لكنها كانت أحسن بكثير من تلك "القَرَبينات" الرهيبة عندنا في الجبهة. وكان لدى حرس المداهمة رشاش واحد لكل عشرة أنفار ومسدس آلي لكل واحد منهم؛ أما نحن

في الجبهة فكان عندنا تقريبا رشاش واحد لخمسين رجلاً. أما عن المسدسات فلا يمكن الحصول عليها إلا بمخالفة الفانون. والحقيقة التي لم ألاحظها إلا الآن هي أن التسليح والعتاد كانا أكثر جودة عند الحرس الوطني والكارابنيرو، وكل من لم يكن المقصود منهم الإرسال إلى الجبهة. وأظن أن الشيء ذاته ينطبق على كل الحروب – دائماً ثمة تباين بين قوات الأمن الأنيقة في المناطق الداخلية، والجنود المهلهلين على خطوط النار. عموماً كانت المعاملة بين حرس المداهمة والأهالي حسنة بعد اليوم الأول أو الثاني. ففي اليوم الأول حصلت بعض المتاعب لأن بعض هؤلاء الحرس –تمشياً مع أوامر صدرت لهم لاريب – بدأوا يتصرفون تصرفات استفزازية. أخذت دوريات منهم تصعد عربات الترام ، وتفتش الركاب، فإذا وجدت لديهم بطاقات عضوية اتحاد الـc.n.t مزقتها وداستها. أدى هذا إلى عدة اشتباكات مع الأناركيين المسلحين ووقع عدة قتلى. لكنهم سرعان ما تخلوا عن مظهر المحتل وأصبح سلوكهم ودياً. ولوحظ أن الكثير منهم أصبح له صديقات بعد عدة أيام.

وقد أعطى القتال في برشلونة الذريعة التي انتظرتها منذ طويل حكومة فالنسيا للسيطرة على الأمور في كاتالونيا. ولسوف يجري تقسيم الميليشيات العمالية وتوزيعها على قطعات الجيش الشعبي. وأخذ العلم الجمهوري يرتفع في جميع أنحاء برشلونة – المرة الأولى التي أراه فيها، على ماأظن إلا من وراء الخنادق الفاشيّة. وبدأ هدم المتاريس في أحياء الطبقة العاملة، على مهل، لأن بناء المتراس أسهل من إنزال حجارته وترحيلها. أما خارج مقرات الاتحاد الشيوعي الـp.s.u.c فقد ظلت المتاريس قائمة، ظل بعضها حتى شهر يونيو. وتابع الحرس الوطني احتلال النقاط الاستراتيجية. وصودرت كميات كبيرة من الأسلحة من قواعد اتحاد الـc.n.t بالرغم من أنني متأكد من أن الكثير نجا من المصادرة. وجريدتهم، لاباتاليا ظلت تصدر وإن خضعت للرقابة حتى أصبحت الصفحة الأولى تخرج بيضاء تقريباً. بينما لم تخضع صحف اشتراكيي الـp.s.u.c للرقابة ونشرت مقالات ملتهبة تطالب بحظر اتحاد

الـp.o.u.m ، وتعلن أن ذلك الاتحاد منظمة فاشيّة متخفية، ورسما كاريكاتورياً يمثله شخصاً يرفع عن وجهه قناع المنجل والمطرقة ليبدو تحته وجه شرير عليه شعار الصليب المعقوف. وقد وزعها في جميع أنحاء المدينة أعضاء الـp.s.u.c. والظاهر أن الرواية الرسمية لأحداث المدينة الأخيرة قد استقرت: وهي أنها كانت شغباً قام به رجال الطابور الخامس وخطط له اتحاد الـp.o.u.m .

في الفندق ازداد جو الشك والعداء إلى الأسوأ بعد أن انتهت الأحداث. وفي مواجهة الاتهامات التي كانت تسري في أرجائه أصبح من المستحيل البقاء على الحياد. وقد عادت دائرة البريد للعمل، فدخلت الجرائد الشيوعية الأجنبية، وكانت روايتها للحوادث ليست فقط حزبية متحيزة بالطبع، ولكن بعيدة عن حقيقة الوقائع. أظن أن بعض الشيوعيين الذين حضروا الأحداث على الطبيعة، قد امتعضوا من التفسيرات التي أُسْبغها حزبهم على الحوادث، لكنهم طبعاً اضطروا إلى الالتزام بالجانب الذي ينتمون إليه. وقد اتصل بي صديقي الشيوعي ثانية وسألني عما إذا كنت لاأزال أود الانتقال إلى الطابور الدولي.

وقد فوجئت. فقلت له: «تقول جرائدكم إنني فاشيّ، فلابد من أن أكون مشبوهاً من الناحية السياسية، لأنني قادمٌ من صفوف الـp.o.u.m »

«أوه، هذا لايهم. فقد كنت تنفذ الأوامر».

وقد اضطررت لإفهامه أنني بعد هذه الأحداث لاأستطيع الانضمام إلى أية وحدة يسيطر عليها الشيوعيون. فهذا يعني أنني عاجلاً أو آجلاً سوف أكون أداة تستخدم ضد الطبقة العاملة الإسبانية. ولايستطيع أحد أن يتنبأ متى سوف تندلع مثل هذه الحوادث مرة ثانية، فإذا كنت سأستخدم بندقيتي حينئذ، فأفضل أن أستخدمها مع الطبقة العاملة لاضدها. وقد أبدى تفهماً كبيراً لموقفي. لكن العلاقة بيننا تغيرت بالكلية بعد ذلك. لم نعد كما كنا قبلاً «متفقين على أن نختلف» وأن

نتناول كأساً معاً رغم أننا أخصام سياسيون. وقد حدثت مماحكات شنيعة في ردهة الفندق. بينما أصبحت السجون مليئة بل أخذت تطفح بمحتوياتها. بعد الأحداث أخلى الأناركيون، طبعاً سبيل سجنائهم، لكن الحرس الوطني لم يخل بالمقابل سبيل أحد، بل نقل معظمهم إلى السجون وأبقوا هناك بدون محاكمة، ولأشهر عديدة في كثير من الحالات. وكالعادة كان يجري اعتقال أناس أبرياء تماماً بسبب تعسف البوليس. وقد ذكرت سابقاً أن دوجلاس تومبسون جرح أوائل إبريل. وبعدها فقدنا الاتصال به، كما يحدث عادة عندما يجرح الواحد.لأن الجرحى كانوا ينقلون كثيراً من مستشفى إلى آخر. والواقع أنه كان في مستشفى تارّاجونا وأعيد إلى برشلونة عند بداية الأحداث تقريباً. التقيت به صبيحة الثلاثاء في الشارع، فرأيته مضطرباً تماماً من النيران التي كانت تطلق حوله. وقد ألقى بالسؤال الذي كان على لسان الجميع:

«ما الهدف من هذا بحق الشيطان؟»

شرحت لتومبسون بقدر ما أستطيع. فقال فوراً:

«سأظل خارج هذا كله. إن ذراعي مازالت معطوبة، سأعود إلى فندقي وألازم هناك».

عاد إلى فندقه، لكن لسوء الحظ (وهذا يدل على أهمية فهم الجغرافيا المحلية في قتال الشوارع!) كان الفندق تحت سيطرة الحرس الوطني. جرت إغارة على الفندق واعتقل تومبسون، وألقي في السجن؛ وأبقي هناك في حجرة مليئة بحيث لايمكن فيها الاستلقاء. حصل مثل هذه الحادثة كثيراً. وظل العديد من الأجانب، من ذوي السجلات السياسية المشبوهة متوارين والبوليس في أثرهم، خشية من الاعتقال. كان الأمر على أسوأ صوره بالنسبة للطليان والألمان لأنهم لم يكونوا يحملون جوازات سفر، وكانوا عموماً مطلوبين حتى من الشرطة السرية في بلادهم ، فإذا قبض عليهم يكونون عرضة للتسفير إلى فرنسا، وهذا قد يعني الإعادة إلى بلادهم

إيطاليا أو ألمانيا، حيث لايعرف إلا الله ماينتظرهم من الأهوال. وقد عمدت واحدة أو اثنتان من الأجنبيات إلى عقد «قرانها» على إسبان لتسوية أوضاعهن القانونية. أذكر فتاة ألمانية ليس لديها أوراق نظامية اضطرت كي تتجنب البوليس إلى الظهور بمظهر خليلة أحد الرجال لعدة أيام. ومازلت أذكر مظهر العار والبؤس على وجه تلك الفتاة التعسة حين صادفتها فجأة وهي تغادر غرفة الرجل. طبعاً لم تكن خليلته فعلاً، لكن لاشك أنها ظنت بأنني اعتبرتها كذلك. كنت تبقى طوال الوقت يتملكك إحساس شنيع بأن أحدهم ممن تعده حتى الآن من أصدقائك قد يشي بك إلى البوليس السري.

وقد أدى الكابوس الطويل من القتال، والضجيج، وقلة الغذاء والنوم، وخليط الملل والضيق من الجلوس طويلاً على السطح متفكراً في أنني، ربما خلال الدقيقة التالية قد أصاب بطلقة أو أُضطر أنا ذاتي إلى إصابة شخص آخر، أدّى هذا كله إلى إيصال أعصابي إلى شفا الانهيار. وصلتُ إلى حدّ أن اصطفاق الباب خلفي يدفعني عفواً إلى سحب يدي باتجاه مسدسي. وقد حدث صبيحة السبت أن انطلق هدير طلقات بنادق في الخارج، فصاح الجميع: «لقد ابتدأت ثانية!» هرعت إلى الشارع لأجد الحرس الوطني يطلقون النار على كلب شارد. لايستطيع أحد ممن كانوا في برشلونة ذلك الحين نسيان الجو الرهيب من الخوف والشك والحقد، والصحافة المراقبة، والسجون الضيقة، وصفوف الدَّوْر الطويلة، والعصابات المسلحة المتجولة.

حاولت أن أعطي فكرة عن الإحساس الذي يخلفه الوجود في خضمّ الصراع في برشلونة، لكنني لاأراني نجحت في التعبير عن كثير من غرابة تلك الأيام. ومن الأشياء التي علقت في ذهني حين أراجع ذكرياتها هي تلك الاتصالات العابرة التي كان المرء يجريها تلك الأيام. واللمحات المفاجئة لأوضاع المدنيين غير المحاربين الذين لم يكن الأمر كله عندهم يزيد عن جلبة لامعنى لها. أذكر تلك المرأة المتأنقة

بأفخر اللباس تتمشى على شارع الرامبلاس، وعلى ذراعها سلة المشتريات، وكلبها "البودل" الصغير الأبيض منقاد وراءها، بينما تنطلق البنادق وتلعلع في الشارع المحاذي لها. الظاهر أنها كانت صماء. أو ذلك الرجل الذي رأيته يندفع في عرض ساحة كاتالونيا الشاغرة تماماً وهو يلوح بمنديلين أبيضين في كلتا يديه. وتلك الجماعة الكبيرة من الأشخاص يلبسون السواد جميعاً ويحاولون لساعة كاملة أن يعبروا ساحة كاتالونيا ويفشلون كل مرة. فكلما دخلوها من الشارع الفرعي على زاويتها فتح سدنة رشاش الـp.s.u.c النار عليهم من فندق كولون واضطروهم إلى العودة – لست أدري السبب في هذا، إذ الواضح أنهم كانوا غير مسلحين. وقدّرت بعدها أنهم كانوا ذاهبين لحضور جنازة. ثم أذكر ذلك الرجل الضئيل، قيّم المتحف فوق سينما البوليوراما، الذي اعتبر الأمر كله احتفالاً اجتماعيّاً. وقد سرّ بزيارة الإنكليز لمقرّه – فقد كانوا في رأيه simpático : جدّ لطفاء – وقد دعانا جميعاً لزيارته بعد نهاية الأحداث، وقد زرته فعلاً. والضئيل الآخر، الذي كان يتدارى في المدخل، ويحرك رأسه حركات الذي هزّه الطرب من جحيم النيران على ساحة كاتالونيا ويقول (بلهجة الذي يعبر عن صباح رائق الجو): «إذن فقد عاد التاسع عشر من يوليو ثانية!». والعمال عند الحذّاء الذين كانوا يعملون في تفصيل حذائي العسكري الذي أوصيت عليه. لقد ذهبت إليهم قبل اندلاع القتال، وبعده، ولعدة دقائق عند الهدنة في ٥ مايو. كان محلاً يتقاضى أغلى الأسعار، وعماله من نقابات الـu.g.t فالأوكد أنه انضموا إلى الـp.s.u.c أيضاً – مهما يكن الحال فقد كانوا من الجانب المقابل لي سياسياً، وكانوا يعرفون بأنني أقاتل مع الـp.o.u.m، وبالرغم من هذا لم يبد منهم أي اهتمام. "إنها مؤسفة، تلك الأحداث الجارية، أما هكذا؟ وتضر بمصالح الناس. المؤسف أنها لم تنته! وكأنه لايكفينا مايجري على الجبهة!" الخ، الخ. لاشك أنه كان هناك الكثير، ربما الغالبية العظمى من أهالي برشلونة، ينظرون إلى الموضوع بدون أي اهتمام، أو باهتمام لايزيد عن اهتمامهم بغارة جوية .

١١

الخلفية السياسية لاشتباكات بعد مايو ١٩٣٧

في هذا الفصل لم أسرد إلا مشاهداتي الشخصية. في الفصل التالي يجب أن أشرح بأحسن ما أستطيع الموضوع الأشمل - ماحدث فعلاً وأية نتائج نجمت عنه، الخطأ والصواب في الحادثة، ومن المسؤول إن كان ثمة. لقد حدث الكثير من الاستغلال السياسي لأحداث برشلونة بحيث أصبح ضرورياً محاولة تحصيل نظرة متزنة إليها. لقد كتب عنها كميات هائلة، تكفي لملء مجلدات، ولاأظنني مبالغاً إذا قلت أن تسعة أعشارها كذب بكذب. وكل أخبار الصحافة عنها كانت تصطنع اصطناعاً من بعيد، فهي لم تكن فقط غير صحيحة في وقائعها، بل كانت أيضاً مضلّلة عن عمد. وكالعادة لم يسمح إلا لجانب واحد من المسألة أن ينال التغطية اللازمة. وأنا، شأنَ كل من كانوا في برشلونة تلك الأيام، لم أشهد إلا ماكان يجري في محيطي المباشر، لكنني شاهدت وسمعت مافيه الكفاية لأن أنقض كثيراً من الأكاذيب التي سرت قيد التداول. وهنا، كما في السابق، إذا كنت لاتهتم بالنزاعات السياسية، وبالغوغائية الحزبية، وما يتفرع عن الحزبية من فصائل بتسمياتها الغامضة المختلطة (مثل أسماء الجنرالات في الحروب الصينية!) فأرجوك أن تتجاوزها في القراءة. فالغوص في تفاصيل المجادلات والمناوشات الحزبية أمر مهول؛ بل هم مثل الغطس في المجارير. لكن من الضروري إحقاق الحق، إذا كان هذا بالإمكان. وهذا اللغط القذر في مدينة قصيّة أكثر أهمية مما يبدو للوهلة الأولى.

بين الثراء والفقر، والشعور العام الغامض بأن الثورة قد تخربت من الداخل. حتى أن الكثير من الناس فوجئوا بأن الاضطرابات لم تبدأ في الأول من مايو. وفي

الثالث من مايو قررت الحكومة استعادة سنترال الهاتف المركزي، الذي كانت تديره منذ بداية الحرب نقابات العمال المنضمة إلى اتحاد الـc.n.t ؛ وقد زُعم أن إدارته سيئة، وأن المخابرات الرسمية كان تراقب. أرسل سالاس، مدير البوليس (الذي قد يكون، وقد لايكون، تجاوز الأوامَر المعطاة) حمولة ثلاث شاحنات من الحرس الوطني المسلحين لاحتلال البناء، بينما كان يجري إخلاء الشوارع المجاورة من قبل رجال بوليس بألبسة مدنية. وفي الوقت ذاته احتل الحرس الوطني أبنية مختلفة في النقاط الحساسة استراتيجيّاً. مهما تكن النوايا وراء هذه الأعمال فإن الاعتقاد الشائع كان أنه ليس إلا إشارة بالهجوم الشامل على الـc.n.t من قبل الحرس الوطني واتحاد الـp.s.u.c (وهم شيوعيون واشتراكيون). انتشرت الأخبار في جميع أنحاء المدينة بأن أبنية العمال كانت تتعرض للهجوم، فظهر الأناركيون المسلحون في الشوارع، وتوقفت الأعمال، واندلع القتال فوراً. في تلك الليلة وصباح اليوم التالي أقيمت المتاريس في كافة أنحاء المدينة، ولم ينقطع إطلاق النيران حتى صبيحة ٦ مايو. لكن القتال كان معظمه دفاعيّاً من الطرفين. الأبنية حوصرت حصاراً، لكنها، على حدّ علمي، لم تهاجم أو تقتحم، ولم يجر استخدام المدفعية. إجمالاً كانت قوات منظمتي (c.n.t.-f.a.i.) و (p.o.u.m.) [أناركيون وماركسيون منشقون] تسيطر كطرف واحد على الضواحي التي تقطنها الطبقة العاملة، وكانت قوى البوليس المسلحة مع أعضاء اتحاد الـp.s.u.c [شيوعيون واشتراكيون] تسيطر على مركز المدينة والجانب الرسمي الحكومي فيها. في ٦ مايو أعلن وقف إطلاق النار، لكن القتال سريعاً ما اندلع ثانية بسبب محاولة الحرس الوطني المتسرعة لنزع سلاح عمال الـc.n.t . لكن في اليوم التالي بدأ الناس يفارقون المتاريس من عندهم. وقد كان حتى مساء ٥ مايو لاتحاد الـc.n.t الغلبة واليد الطولى واستسلم لهم عدد كبير من رجال الحرس الوطني. لكن لم يكن لهم قيادة موحدة ولا خطة واضحة ثابتة – والحق أنه بحسب تقديري، لم يكن لديهم خطة على الإطلاق إلا التصميم على

مقاومة الحرس الوطني. بل انضم قادة اتحادي نقابات الـc.n.t و الـu.g.t [المتخاصمتين] في حث الجميع على العودة إلى أعمالهم؛ فالمواد الغذائية أصبحت مفقودة. وفي مثل هذه الظروف لايبقى أحد متمسكاً بالقضية التي تجعله يتابع القتال. وبحلول العصر في ٧ مايو أصبحت الظروف شبه طبيعية. وفي المساء انتشر ستة آلاف رجل من حرس المداهمة، أُرسلوا بحراً من فالنسيا في أنحاء المدينة وسيطروا عليها. وأصدرت الحكومة أمراً بتسليم كل الأسلحة إلا التي تحملها القوات النظامية، وطوال الأيام التالية صودرت كميات كبيرة من الأسلحة. كانت خسائر القتال كما أعطتها المصادر الرسمية أربعمئة قتيل وحوالي ألف جريح. ربما كان في عدد القتلى مبالغة، ولكن نظراً لعدم وجود مصادر أخرى فليس من طريقة للتأكد منه، ويجب قبوله.

ثانياً، مايتعلق بعواقب القتال. الواضح أن من المستحيل القول بالتأكيد ماهي هذه العواقب بالضبط. ليس من دليل ملموس على أثر هذه الاضطرابات على مجرى الحرب، بالرغم من أنه لاشك أنها كانت ستؤثر لو استمرت لبضعة أيام أُخر. وقد اتُّخذت ذريعة لوضع كاتالونيا تحت الحكم المباشر لفالنسيا، وللإسراع في تفتيت الميليشيات. وحظر اتحاد نقابات الـp.o.u.m ، وليس من شك في أنها كان لها دور في الإسراع بسقوط حكومة كابابيرو. لكن لنا أن نقول بأن هذه الأشياء كانت ستحصل على كل حال. السؤال الحقيقي هو ما إذا كان نزول العمال المنضوين تحت الـc.n.t إلى الشوارع أدى إلى ربحهم أم خسارتهم بالقتال في هذه المناسبة. الأمر كله موضع تخمين، لكن رأيي الخاص أنهم ربحوا أكثر مما خسروا. أما استخلاص سنترال الهاتف المركزي فقد كان ببساطة حادثة واحدة من سلسلة من عمليات طويلة. فمنذ السنة السابقة كانت السلطة المباشرة تستنزف بالتدريج من أيدي النقابات. والاتجاه العام كان الابتعاد عن سيطرة الطبقة العاملة والاتجاه نحو الحكم المركز. مما أدى إلى ضرب من رأسمالية الدولة وربما نحو إعادة فرض الرأسمالية

الفردية. فواقعة أنه جرى في هذه المرحلة بعض المقاومة ربما أخّرت أو أبطأت من هذه العملية. وبعد سنة من بدء الحرب الحالية فقد العمال الكاتالانيون كثيراً من سلطاتهم. لكن ماتزال كفتهم هي الأرجح. وربما كان وضعهم يصبح أصعب لو استكانوا تحت ضغط الاستفزازات. إن في هذه الحياة أوضاعاً يكون فيها القتال والخسارة أحسن من عدم القتال على الإطلاق.

ثالثاً، ما الغاية، إن كان ثمة، من وراء هذه الانتفاضة؟ هل كانت ضرباً من الانقلاب على النظام coup d'état أم محاولة ثورة؟ هل كانت تهدف بالتحديد إلى الخلاص من الحكومة؟ هل كان مخططاً لها بالأساس؟

رأيي الخاص أن القتال كان مخططاً له فقط بمعنى أنه كان متوقعاً عند الجميع. ولم تصدر أية دلائل على وجود مخططات مسبقة لدى أي من الأطراف. من الجانب الأناركي من المؤكد أنه كان تلقائيّاً عفو الساعة؛ من القواعد الحزبية الدنيا. نزل الناس إلى الشوارع فتبعهم قادتهم مضطرين، أو لم يتبعوهم قطعاً. الفئة الوحيدة التي تحدثت، مجرد كلام، عن الثورة كانوا «أصدقاء دورّوتي» وهي زمرة متطرفة صغيرة ضمن الـf.a.i الأناركية، والماركسيين المنشقين في الـp.o.u.m . لكن حتى هؤلاء كانوا منساقين، لاسبّاقين مبادرين. «أصدقاء دورّوتي» وزعوا بعض الوريقات، لكنها لم تظهر إلا في ٥ مايو فلا يقال إنها حرضت على القتال الذي انطلق من ذاته قبل يومين. أما قادة الـc.n.t فقد تبرؤوا من «الطائر alTair» منذ البداية. وقد كان لهذا عدد من الأسباب. أولها إن كون الـc.n.t مازالت ممثلة في الحكومة وفي الجنراليتا (المحلية) تؤكد بأن الزعماء أكثر محافظة وتحفّظاً من أتباعهم. ثانيها، أن المقصد الرئيس لقادة الـc.n.t [نقابيّين] كان التحالف مع الـu.g.t، وقد كان القتال مدعاة لزيادة الشقة بين المنظمتين، للوقت الحاضر على الأقل. وثالثها؛ – وهذا مما لم يكن معلوماً حينئذ – خشي قادة الأناركيين أن تصل الأمور إلى نقطة

أبعد من حدٍ معين فيحتل العمال المدينة بكاملها، وهذا كان باستطاعتهم على الأغلب في ٥ مايو، وأن يؤدي هذا إلى التدخل الأجنبي الخارجي. فقد اقترب طراد بريطاني ومدمرتان من الميناء، ولاشك أن ثمة سفن حربية أخرى غير بعيدة. وقد أذاعت الصحف البريطانية أن هذه القطع تتقدم نحو برشلونة «لحماية المصالح البريطانية»، لكنها في الواقع لم تقم بأية خطوة أخرى في هذا الاتجاه؛ أي أنها لم تُنزل أي رجال ولم تأخذ أي لاجئين. لايمكن التأكد من هذا، لكن كان على الأقل يحتمل ضمنيّاً أن الحكومة البريطانية التي لم تحرك إصبعاً للدفاع عن الحكومة ضد فرانكو، يحتمل أن تتدخل بسرعة لإنقاذ الحكومة من عمالها.

قادة اتحاد الـp.o.u.m لم يتملصوا من الأحداث، والواقع أنهم شجعوا قواعدهم على البقاء وراء المتاريس، بل وأبدوا موافقتهم (في صحيفتهم La Bataiia ، ٦ مايو) على ماجاء في منشورات «أصدقاء دورّوتي». (هذه المنشورات هي محل شك كبير، ويبدو أنه ليس من أحد الآن يستطيع أن يبرز نسخة منها!) في بعض الصحف الأجنبية وصفت بأنها «إعلان تحريضي» أُلصق على جدران المدينة كلها. والمؤكد أنه لم يوجد مثل هذا الإعلان. ومن مراجعة التقارير المختلفة عنه أرى أن الإعلان دعا: (I) تشكيل مجلس ثوري (جونتا junta). (II) إعدام المسؤولين عن مهاجمة السنترال المركزي للهاتف. (III) نزع سلاح الحرس الوطني. ثمة أيضاً خلاف حول المدى الذي وصلت إليه جريدة لاباتايّا La Bataiia في تأييدها لتلك المناشير. أما أنا بالذات فلم أشاهد المناشير ولا اطلعت على العدد من المقصود من تلك الجريدة؟. الإعلان اليدوي الوحيد الذي تناولته أثناء القتال في تلك الفترة كان منشوراً أصدرته جماعة قليلة العدد من التروتسكيين («اللينينيين البولشفيك») في الرابع من مايو. وهو لم يقل إلا: «جميعاً إلى المتاريس - والإضراب العام لكل الصناعات فيما عدا الحربية». (وبعبارة أخرى لم تطالب إلا بما كان يحدث فعلاً.) في الواقع كان موقف قادة اتحاد الـp.o.u.m مهزوزاً متردداً. وهم لم يكونوا أبداً

مؤيدين للعصيان إلا بعد الانتصار في الحرب ضد فرانكو؛ لكن من الناحية الأخرى كان العمال قد نزلوا إلى الشوارع، فاضطر قادة اتحاد الـp.o.u.m إلى الأخذ بالتعليمة الماركسية المتحذلقة القائلة بأنه حين يكون العمال في الشوارع فمن واجب الأحزاب الثورية أن تكون عندهم. هكذا، بالرغم من التلفظ بالشعارات الثورية عن «إيقاظ روح التاسع عشر من يوليو»، وما إلى ذلك، فإنهم بذلوا كل مابوسعهم لقصر عمليات العمال على الدفاع فقط. فهم مثلاً لم يأمروا بالهجوم ولا على بناية واحدة؛ أمروا أتباعهم فقط بالحراسة، وكما ذكرت في الفصل السابق، ألا يطلقوا النار إن كان هذا بالإمكان. وقد صدرت جريدتهم «لاباتايّا» La BataIIa بتعليمات ألا يغادر الجبهة أي جنود* وبقدر مايستطيع المرء أن يقدّر تقديراً، يمكنني أن أقول إن مسؤولية اتحاد الـp.o.u.m لم تصل إلا إلى حثّهم الجميع على البقاء ملازمين للمتاريس، وربما في إقناعهم عدداً منهم بالبقاء هناك إلى أطول مما كانوا ليفعلوا لو تُركوا وشأنهم. وقد أخبرني الذين كانوا شخصيّاً على اتصال مباشر بقادة اتحاد الـ p.o.u.m.حينئذٍ (وأنا لم أكن منهم) بأنهم كانوا عمليّاً ممتعضين من الحوادث كلها، لكنهم شعروا باضطرارهم للارتباط بها. وطبعاً جرى بعد انتهائها حصاد المحصول السياسي بالطريقة المعتادة. بل إن جوركين أحد أولئك القادة، وصل إلى الخطابة عن «أيام مايو المجيدة». فمن الناحية الدعائية المحض قد يكون هذا ماجرى؛ أكيد أن اتحاد الـp.o.u.m ازداد عدداً خلال تلك المدة القصيرة قبل قمعه نهائياً. أما من الناحية التكتيكية فربما أخطأوا بتأييد منشور أصدقاء دورّوتي، الذين لم يكونوا إلا منظمة ضئيلة معادية لاتحاد الـp.o.u.m . وإذا لم ننس الاستثارة العامة وما كان يقال فعلاً ويجري، لم يكن لذلك المنشور من خلاصة إلا «لازموا المتاريس»، لكن ظهور قادة اتحاد الـp.o.u.m بمظهر المؤيد له، في حين أن

---

* يذكر أحد أعداد جريدة الـ*Inpector* عكس هذا - لأن أوامر *La Bataiia* كانت أن يغادر جنود اتحاد الـp.o.u.m. الجبهة ! وهذه النقطة يمكن التحقق منها بمراجعة عدد الجريدة بالتاريخ المذكور.

الجريدة الأناركية الرسمية Solidaridad Obrera أدانته، سهّلوا على الإعلام الشيوعي الزعم فيما بعد بأن العصيان خطط له اتحاد الـp.o.u.m وحدهم. لكنها كانت ستقول بهذا الزعم في كل الأحوال. وهذا ليس شيئاً إذا قورن بالاتهامات التي سيقت قبل الأحداث وبعدها، وبناء على دلائل أقل. كما أن قادة الـc.n.t من ناحية أخرى لم ينالوا خيراً من موقفهم المهادن؛ لقد أُثني عليهم لولائهم ثم أُزيلوا من كلتا الحكومتين المركزية والمحلية (الجنراليتّا) في أول فرصة سنحت.

فبقدر ما يحكم المرء مما سمع من الناس تلك الأيام، لم يكن من انقلاب أحمر في ذهن أحد. الذين كانوا وراء المتاريس عمالاً نقابيين عاديين من أعضاء الـc.n.t بينهم عدد من أعضاء الاتحاد الآخر، الـu.g.t . وما كانوا يفعلونه لا قلب الحكومة بل مقاومة ما اعتبروه، خطأً أو صواباً، هجوماً من البوليس. وهذا العمل في جوهره دفاعي. فأنا لا أعتقد حتى بصحة وصفه، كما أجمعت الصحافة الأجنبية «بالانتفاضة». الانتفاضة تعني الأعمال العدائية والتخطيط المحدد. الأصوب نعته بالشغب – لكنه الشغب الدموي لأن الأطراف كانت مسلحة وكانت مستعدة لاستخدام مابيدها من سلاح.

وماذا عن مقاصد الطرف الآخر؟ فإذا لم يكن الأمر انقلاباً أناركيّاً، فهل كان انقلاباً شيوعيّاً؟ محاولة مخططة لتحطيم القوى الأناركية لاتحاد الـc.n.t بضربة واحدة؟

لا أعتقد هذا، بالرغم من أن بعض الدلائل قد يقود المرء إلى الظن به. ومما يلفت النظر أن أحداثاً مماثلة (استيلاء الشرطة على السنترال المركزي بأوامر صادرة من برشلونة) حدثت في تارّاجونا بعد يومين. وفي برشلونة ذاتها لم تكن الغارة على السنترال المركزي حادثة مفردة معزولة. ففي مناطق مختلفة من المدينة انطلقت زمر من الحرس الوطني ومن المنتمين إلى اتحاد الـp.s.u.c واحتلت أبنية في المناطق

الاستراتيجية، إن لم يكن قبل اندلاع القتال، فبتوقيت وتنسيق عجيبين. لكن يجب ألا يغيب عن الذهن أن هذه الأشياء كانت تحدث في إسبانيا لا في إنجلترا. وبرشلونة هي مدينة عريقة في قتال الشوارع. وفي تلك الأماكن تتطور الأمور بسرعة، والفرقاء جاهزون، والجميع يعرف دقائق الجغرافيا المحلية، وحين يبدأ إطلاق النار يتخذ الناس أماكنهم وكأنهم في تدريب قتالي. والمفروض أن يكون المسؤولون عن احتلال السنترال المركزي قد توقعوا حصول متاعب - ربما لا بالحجم الكبير الذي كان عليه الرد - واتخذوا الاحتياطات لمجابهته. لكن هذا لايستتبع أنهم كانوا يخططون لهجوم عام على الـc.n.t .

ثمة سببان لعدم اعتقادي بأنه لم يكن لدى أيٍّ من الطرفين خطط لقتال واسع المدى:

١- لم يحشد أي من الطرفين جنوداً إضافيين مقدماً في برشلونة. والقتال نشب بين من كانوا مستقرين في برشلونة قبلاً، وهم المدنيون والبوليس.

٢- قلّ الغذاء فوراً تقريباً. والذين خدموا في إسبانيا يعرفون أن الجانب الأول من العمليات الحربية الذي يتقنه الإسبان تماماً هو إطعام جنودهم. فيبعد جدّاً أن أحد الطرفين قد بيّت قبل أسبوع أو أسبوعين إثارة حرب شوارع وإضرابٍ عام ولم يخزن من الطعام مايكفيه.

أخيراً مايتعلق بالحق والباطل في تلك الأحداث.

لقد أثير كثير من الغبار حول تلك الأحداث في الصحافة الأجنبية المعادية للفاشية، لكن، وكما هي العادة، لم يجر الاستماع إلا إلى جانب من الجانبين. ونتيجة لهذا جاءت صورة القتال في برشلونة أنها عصيان قام به الأناركيون والتروتسكيون وكانوا بهذا «يطعنون الحكومة الإسبانية من الخلف»، وما إلى ذلك. والموضوع لم يكن بهذه البساطة. لاشك أنكم حين تكونون في حرب مع عدو لدود

فالأحسن ألا تعمدوا إلى مقاتلة بعضكم بعضاً، ولكن يجب ألا ننسى أن القتال يحتاج إلى استعداد الطرفين معاً لذلك، وأن الناس لايبدأون بإقامة المتاريس إلا إذا استُفزّوا.

والاضطرابات بدأت طبيعية نتيجة لأوامر الحكومة للأناركيين بتسليم أسلحتهم. في الصحافة الإنجليزية ترجموا هذا إلى المفردات التي يفهمها الشعب البريطاني فاتخذت الشكل التالي: الأسلحة ضرورية جدّاً لجبهة الأراغون ولايمكن إرسالها إلى هناك لأن الأناركيين فاقدي الإحساس بالوطنية يحتجزونها. والتعبير بهذا الشكل فيه تجاهل للأوضاع الحقيقية في إسبانيا. الكل كان يعرف أن كلا الطرفين، الأناركيين واتحاد الـp.s.u.c الشيوعي كانا يخزنان السلاح، وحين اندلع القتال في برشلونة اتضح هذا أكثر؛ ظهر السلاح بغزارة عند الجانبين. كان الأناركيون مدركين تمام الإدراك أنهم حتى إذا سلموا أسلحتهم، فإن الشيوعيين، والـp.s.u.c التي يسيطرون عليها وهي المنظمة السياسية الأقوى في كاتالونيا، سوف يحتفظون بما عندهم. وهذا ماحدث بالفعل بعد انتهاء القتال. وصحيح أن ما ظهر في الشوارع من الأسلحة كان بكميات ترحب بها جبهة الأراغون، لكنها كانت مرصودة على القوى البوليسية «غير السياسية» في المؤخرة. وتحت هذا كان الخلاف الذي لايقبل الحل بين الشيوعيين والأناركيين، والذي كان لابد سيؤدي إلى شيء من الصراع عاجلاً أو آجلاً. فمنذ بداية الحرب كان الحزب الشيوعي الإسباني في نمو مطّرد واستولى على معظم السلطة السياسية. وجاء إلى إسبانيا آلاف الشيوعيين الأجانب، كثير منهم كانوا يفصحون على المكشوف عن نواياهم «بتصفية» الأناركيين فور الانتصار في الحرب على فرانكو. في هذه الظروف يصعب على المرء أن ينتظر من الأناركيين أن يتخلوا عن الأسلحة التي بحوزنهم والتي كسبوها منذ قتالهم سنة ١٩٣٦.

فاحتلال سنترال الهاتف المركزي لم يكن إلاّ عود الثقاب الذي أشعل الفتيل على القنبلة التي كانت مهيأة قبله. المعقول هو فقط أن المسؤولين عنه ظنوا خطأً بأنه لن يكون له عواقب. ويقال بأن كومبانيس، رئيس جمهورية الكاتالان صرح متبجحاً

قبل الحادث بعدة أيام بأن الأناركيين يتقبلون بخنوع أي شيء*. وعلى كل حال لم يكن هذا العمل صائباً. وقد جرت خلال الشهور الماضية سلسلة طويلة من الاشتباكات بين الشيوعيين والأناركيين في مختلف أنحاء إسبانيا. وكانت كاتالونيا، وعلى الأخص برشلونة، في حالة شديدة من الاحتقان أدت إلى معارك كثيرة في الشوارع، واغتيالات وما إلى ذلك. وفجأة سرت الأخبار بأن المسلحين يهاجمون الأبنية التي كان العمال احتلوها في قتال يوليو وكان لها مكان عاطفي في نفوسهم. ولا ننسى أن الحرس الوطني لم يكن محبوباً عند أفراد الطبقة العاملة. لأنه مرّ عليه أجيال وهو ببساطة تابع للأسياد والحكام، فهذا معنى «الحرس 'la guardia' وكان مكروهاً ضعف هذا لأنه كان يُشتبه بولائه ضد الفاشية.** ويحتمل أن تكون الغضبة التي حملت الناس إلى الاندفاع إلى الشوارع في الساعات الأولى هي ذاتها التي حملتهم على مقاومة الجنرالات المتمردين في بداية الحرب. طبعاً يمكن الاحتجاج بأن عمال اتحاد الـc.n.t كان يجب عليهم تسليم السنترال المركزي بدون اعتراض. لكن موقف المرء هنا محكوم بموقفه من مسألة تفضيله الحكم المركزي أم الحكم المباشر للعاملين. ويمكن أيضاً أن يقال: «حسناً، يحتمل أن يكون عمال الـc.n.t على حق. لكن وفوق كل شيء كان ثمة حرب قائمة، وهم لايحق لهم إثارة القلاقل وراء الخطوط». وأنا أوافق على هذا تماماً. فأي اضطراب داخلي كان سيفيد فرانكو. ولكن ما الذي أثار القلاقل بالفعل؟ فالحكومة يمكن، ويمكن ألا يكون لها الحق بأخذ السنترال المركزي؛ المهم أنه في تلك الظروف بالذات كان سيؤدي حتماً إلى القلاقل. وهو عمل استفزازي، إيماءة قالت بالفعل، وربما كان المقصود منها أن تقول: 'لقد انتهت صلاحياتكم – جئنا لنتسلم كل شيء. فليس من المعقول أن يُتوقع إلا المقاومة من هذا. فإذا أبقيت الأمور ضمن حجمها الطبيعي، يجب التأكد من أن الغلط لم يكن – ولا يمكن أن يكون، في مثل هذه الأمور – من جانب واحد تماماً.

---

* جريدة .*New Statesman (14* May) ١٤ مايو.

** عند ابتداء الحرب وقف الحرس الوطني مع الأقوى في جميع الأنحاء. وفي عدة مناسبات مع مضي الحرب قدماً، مثلاً في سانتاندير، انضم الحرس الوطني إلى الفاشيين كمجموعة.

والسبب في قبول الرواية المتحيزة إلى جانب واحد هو ببساطة أن الأحزاب الثورية الإسبانية ليس لها موطئ قدم في الصحافة الأجنبية. وفي الصحافة الإنجليزية على وجه الخصوص، وستبحث طويلاً إذا أردت أن تعثر على إشارة إيجابية عن الأناركيين الإسبان، في كل مراحل الحرب. لقد كانوا يشوهون عن عمد مخطط له، وأنا أعرف بخبرتي العملية، أنك يستحيل أن تجد أحداً يقبل بأن ينشر شيئاً دفاعاً عنهم.

لقد حاولت الكتابة بموضوعية عن القتال في برشلونة، بالرغم من أنه يستحيل، كما هو واضح، أن يكون المرء موضوعيّاً تماماً في مثل هذه المسألة. فهو مضطر إلى اتخاذ موقف، ولابد أنه اتضح الآن الجانب الذي أقف معه. وأعيد، بأنني لاشك قد ارتكبت أغلاطاً في الوقائع، هنا وفي أماكن أخرى من هذا العرض. إذ يصعب كثيراً الكتابة الصحيحة عن الحرب الإسبانية بسبب انعدام الوثائق غير الدعائية. أحذر الجميع من انحيازي وأحذرهم من أخطائي. ومع هذا فقد بذلت قصارى جهدي لأكون صادقاً منصفاً. لكن يمكن لأول وهلة رؤية أن روايتي للأحداث تختلف تماماً عما ظهر في الصحافة الأجنبية، وخصوصاً الشيوعية منها. فمن الضروري الرجوع إلى الرواية الشيوعية لأنها نشرت في جميع أنحاء العالم، وقد ذيّلت وأضيف إليها مرات كثيرة منذ ذلك الحين، وهي الآن قد تكون أكثر الروايات قبولاً على العموم.

في الصحافة الشيوعية والمؤيدة لمنهجها يلقى اللوم كله في أحداث برشلونة على اتحاد الـp.o.u.m. لم يجر هناك تصوير الحوادث أنها اندلعت تلقائيّاً، بل أنها عصيان مقصود مخطط له ضد الحكومة، والمهندس الأول له هو الـp.o.u.m. يساعدهم في هذا بعض المغرّر بهم غير المنضبطين. بل وفوق هذا، كانت المؤامرة فاشية بالتحديد، نفذت بناء على أوامر الفاشيّين يهدف إلى اندلاع حرب أهلية وراء الخطوط تشلّ الحكومة. فالـp.o.u.m هي «الطابور الخامس» الذي عناه فرانكو - إنها منظمة «تروتسكية» تعمل بالتنسيق مع الفاشيين. وقد جاء في الديلي ووركر Daily Worker (١١ مايو):

لقد كان للعملاء الألمان والطليان الذين تدفقوا على برشلونة ظاهرياً للتحضير للسيّئ الذكر «مؤتمر الدولية (الأممية) الرابعة» مهمة كبرى واحدة، وهي:

كان عليهم - بالتعاون مع التروتسكيين المحليين - تهيئة الأوضاع للفوضى وسفك الدماء، بحيث يمكن للألمان والطليان أن يعلنوا عجزهم عن ضبط الشواطئ البحرية لساحل كاتالونيا بسبب الفوضى السائدة في برشلونة واضطرارهم، لهذا، لإنزال قواتهم في برشلونة.

وبعبارة أخرى، ماكان يجري تهيئته هو وضعٌ يمكن فيه للحكومتين الألمانية والطليانية أن تُنزل قواتها الحربية والبحرية على المكشوف على السواحل الكاتالانية، معلنين بأنهم إنما فعلوا هذا في سبيل حفظ النظام، ...

والأداة لهذا جاهزة بين يدي الألمان والطليان بصورة المنظمة التروتسكية المعروفة باتحاد الــp.o.u.m.

فالــp.o.u.m ، عاملة مع عناصر إجرامية معروفة جيداً، ومع أشخاص معينين مضللين في المنظمة الأناركية، نظموا وقادوا الهجوم في المؤخرة المقرر أن يتفق في التوقيت مع الهجوم على الجبهة في بيلباو، الخ، الخ.

في موضع تالٍ من تلك المقالة يصبح القتال في برشلونة اسمه «هجوم الـ p.o.u.m.». وفي مقالة أخرى في العدد نفسه نصٌّ على أنه «ليس من شك في أنه على أبواب الـ p.o.u.m. تقع مسؤولية الدماء التي سفكت في كاتالونيا». أما جريدة الإنبريكور Inprecor (٢٩ مايو) فنصّت على أن أولئك الذين أقاموا المتاريس في برشلونة «لم يكونوا إلا أعضاء في منظمة الــp.o.u.m أرسلوا خصيصاً لهذا الغرض».

أستطيع اقتطاف المزيد بسهولة، ولكن ما اقتطفته واضح بما فيه الكفاية. اتحاد الــp.o.u.m هو المسؤول وكان يعمل بأوامر فاشيّة. بعد قليل سأقدم المزيد من

المقتطفات من الروايات التي صدرت في الصحف الشيوعية، وسيتبين منها أنها متناقضة بحيث تصبح لاقيمة لها البتة. قبل هذا لابد من الإشارة إلى عدة أسباب مبدئية قبْلية تبرر اعتبارنا هذه الرواية عن القتال في مايو بأنه من تخطيط الـ p.o.u.m. هو أقرب إلى المستحيل.

(i) ليس لدى هذا الاتحاد من العدد بحيث يؤثر أو يمكنه وحده أن يثير اضطرابات بهذا الحجم. وأقل من هذا قدرته على المناداة بإضراب عام. لقد كان منظمة سياسية لم ترسخ قدمها بين النقابات، وهي لم تكن لتستطيع القيام بإضراب في برشلونة كلها بأكثر مما يستطيع الحزب الشيوعي البريطاني التحريض على إضراب عام في جلاسكو، مثلاً. وكما قلت قبلاً، قد يكون موقف قادة الـp.o.u.m قد أطال أمد القتال إلى حدٍ ما؛ لكنهم لم يكونوا ليستطيعوا إثارته حتى لو أرادوا ذلك.

(ii) المؤامرة الفاشية المزعومة قائمة على مجرد الزعم، وكل الدلائل تشير إلى الطرف الآخر. قيل إن ذلك المخطط كان يهدف إلى جعل الحكومتين الألمانية والإيطالية تُنزل جنودها في كاتالونيا؛ لكن لم تظهر أية سفن ألمانية أو إيطالية على الساحل. وأما عن «مؤتمر الدولية الرابعة» وأولئك «العملاء الألمان والطليان» فهم ليسوا إلا خرافة. وبحسب ما أعرف لم يكن ثمة حتى حديث عن مؤتمر الدولية الرابعة. كان هناك أفكار غامضة عن مؤتمرٍ للـp.o.u.m والأحزاب الشقيقة الأخرى (الحركة العمالية .I.L.P البريطانية، والحزب الاشتراكي .S.A.P الألماني الخ، الخ.)، وكان هذا مخططاً له أن يقام في يوليو، – أي بعد شهرين – ولم يكن وصل البلاد مندوب واحد من المشاركين. أما «العملاء الألمان والطليان» فلم يكن لهم من وجود خارج صفحات جريدة الديلي ووركر [الشيوعية البريطانية]. وكل من اجتاز الحدود في تلك الأيام يعرف أنه ليس من السهل أن «يتدفق» الناس على إسبانيا، دخولاً أو حتى خروجاً.

(iii) لم يحدث شيء لافي لاريدا، قلعة الـp.o.u.m المنيعة، ولا على الجبهة. وواضح أنه لو أراد قادة المنظمة مساعدة الفاشيين لأمروا ميليشياتهم بمغادرة الخطوط الأمامية وتخليتها للفاشيين. لكن لم يحدث شيء من هذا ولم يطلبه أحد. ولم يحدث أن نقل رجال إضافيون من الجبهة سلفاً، بالرغم من أنه لم يكن أسهل من تسريب ألف أو ألفين من الرجال رجوعاً إلى برشلونة بمختلف الحجج. ولم يكن من محاولة، حتى غير مباشرة، للتخريب في الجبهة. ونقل الأغذية والذخائر إليها استمر كالمعتاد؛ وقد تأكدت من هذا بالتحقيق فيما بعد. ففوق كل شيء لابد أن انتفاضة كبرى بهذا الحجم المزعوم كانت تحتاج إلى شهور من التحضير، والدعاية الهدامة داخل صفوف الميليشيات، وما إلى ذلك. لكن لم يكن أيَّة دلائل أو شائعات عن مثل هذا. وواقعة أن ميليشيات الحدود لم تلعب أي دور في تلك "الانتفاضة" يجب أن تعتبر حاسمة لكل جدل. ولو كانت الـp.o.u.m تخطط فعلاً لقلب النظام coup d'état فمن المعقول أنها لم تكن لتكتفي باستخدام عشرة آلاف رجل تقريباً من المسلحين الذين كانوا كل القوة الضاربة التي يملكونها.

يتبين من هذا أن دعوى الشيوعيين بوجود مؤامرة من الـ «p.o.u.m.» بناء على أوامر فاشيّة لا تقوم على أساس. وسأضيف بضعة مقتطفات من الصحافة الشيوعية. فالروايات الشيوعية عن الحادثة الافتتاحية، وهي الإغارة على السنترال المركزي للهاتف، تلقي الضوء على شيء واحد، وهي أنها لاتتفق على شيء من التفاصيل إلا على إلقاء اللوم على الطرف الآخر. والملاحظ أن الصحف الشيوعية الإنجليزية تلقي اللوم أولاً على الأناركيين، ثم تحوله بعدئذ إلى الـp.o.u.m. ولهذا أسباب لاتَخفى. فليس الكل في إنجلترا سمعوا بالـ «تروتسكية»، بينما كل الناطقين بالإنكليزية يرتعدون عند ذكر «الأناركية». فليُورّط الأناركيون في هذا الأمر، ليتهيّأ الجو للتحيّز: بعد هذا يمكن بسهولة نقل اللوم إلى «التروتسكيين». تبدأ الديلي ووركر (٦ مايو) هكذا:

في يومي الاثنين والثلاثاء تسلطت عصابة قليلة من الأناركيين وحاولت الاستيلاء على أبنية الهاتف والبرق، وبدأت إطلاق النار في الشارع.

هذا شيء يشبه البدء بقلب الأدوار. يهاجم الحرس الوطني بناء تحتله منظمة الـc.n.t، فيجري تصوير الـc.n.t بأنها تهاجم بناءها ذاته - بل تهاجم عناصرها! من الناحية الأخرى تقول الديلي ووركر في عدد ١١ مايو:

وزير الأمن العام الكاتالاني اليساري، إبجوادي، وقوميسار النظام العام في الحكومة المحلية [الجنراليتّا]، رودريجي سالاس، أرسلا البوليس الجمهوري المسلح إلى بناء الهاتف لنزع سلاح العاملين هناك، ومعظمهم أعضاء في اتحاد نقابات الـc.n.t .

وهذه لايبدو أنها تتفق مع الرواية الأولى! وبالرغم من هذا لاتتضمن الديلي ووركر أي تصحيح أو إقرار بأن الرواية الأولى كانت مغلوطة. وتتضمن الديلي ووركر في ١١ مايو خبراً بأن منشورات أصدقاء دورّوتي التي أنكرها اتحاد الـc.n.t ، ظهرت في ٤ و٥ مايو، أي أثناء القتال. بينما جريدة إنبريكور (٢٢ مايو) تقول إنها ظهرت في ٣ مايو، أي قبل القتال، وتضيف أنه 'بالنظر إلى هذه الوقائع' (ظهور منشورات مختلفة):

احتل البوليس، يقوده المفوض العام بشخصه، السنترال المركزي للهاتف عصرَ الثالث من مايو. وقد أُطلقت النار على البوليس أثناء قيامهم بواجبهم. وكانت هذه هي الإشارة للمحرضين بأن يبدأوا إطلاق النار والشغب في كافة أنحاء المدينة.

وهذا ماذكرته الإنبريكور في ٢٩ مايو:

في الثالثة بعد الظهر ذهب قوميسار الأمن العام، الرفيق سالاس، إلى السنترال المركزي، الذي كان في الليلة السابقة احتله خمسون من أعضاء الـp.o.u.m وغيرهم من مختلف العناصر المارقين.

يبدو هذا غريباً. فاحتلال السنترال المركزي من قبل خمسين من أعضاء الـ p.o.u.m. هو مايمكن تسميته بالظروف المشهودة، ويُتوقع أن يلاحظه أحدهم في ذلك الوقت. وبالرغم من هذا فلم يلاحظوه إلا بعد ثلاثة أو أربعة أسابيع. ثم جاء في عدد آخر من الإنبريكو أن الخمسين رجلاً أضحوا خمسين من رجال الميليسشيا.

ومن الصعب الجمع بين التناقضات بالقدر المتضمن في هذه المقاطع. مرةً تهاجم الـc.n.t السنترال المركزي، وفي اليوم التالي تكون هي التي هوجمت هناك؛ تظهر منشورات قبل احتلال السنترال فتكون هي السبب في احتلاله، أو، بالمقابل، تظهر بعده، فتكون نتيجةً له. أما عناصر السنترال فهم مرة من عناصر الـc.n.t ومرة من الـ p.o.u.m. بالتبادل - وهكذا دواليك. ثم وفي عدد تالٍ يطلّ علينا في الديلي ووركر (٣ يونيو) المستر (ج.ر. كامبل) ليخبرنا بأن الحكومة ما احتلت سنترال الهاتف إلا لأن المتاريس أقيمت أمامه!

بسبب المساحة لم أقتطف إلا المقاطع المتعلقة بحادثة واحدة، لكن التخبطات ذاتها تمتلئ بها روايات الصحف الشيوعية. يضاف إليها تصريحات مختلفة ليست إلا اختلاقاً. خذوا مثلاً ما اقتطفته الديلي ووركر (٧ مايو) ونسبته إلى أنه أعلنته السفارة الإسبانية في باريس:

كان من الدلائل المهمة في الانتفاضة أن العلم الملكي القديم ارتفع من كثير من شرفات المنازل في برشلونة، ولاشك أن هذا يعود لاعتقاد الناس بأن الذين اشتركوا في الاضطرابات أصبحوا أسياد الموقف.

ربما تكون الديلي ووركر رددت هذا التصريح بحسن نية، لكن المسؤولين عنه في السفارة الإسبانية لاشك كانوا يكذبون عامدين. فأي إسباني يفهم الوضع الداخلي

بأحسن مما يقال. علم ملكي في برشلونة! إنه الشيء الوحيد الذي كان يوحد الطوائف المتناحرة في لحظة. حتى الشيوعيون الذين هناك كانوا يضحكون من هذا لو قرؤوه. ونفس الشيء ينطبق على التقارير التي ظهرت في الصحافة الشيوعية عن الأسلحة التي زُعم أنها استخدمها أعضاء الـp.o.u.m أثناء «الانتفاضة». لايصدقها إلا من كان يجهل الوقائع تماماً. ففي الديلي ووركر عدد ١٧ مايو يقول المستر فرانك بيتكيرن:

لقد استخدموا كل أنواع الأسلحة في عدوانهم. كان منها تلك الأسلحة التي دأبوا على سرقتها شهوراً عديدة وخبؤوها، وكان هناك أسلحة مثل الدبابات التي سرقوها من الثكنات عند ابتداء الحوادث. والواضح أنه لايزال بحوزتهم عشرات الرشاشات وآلاف البنادق.

أما الإنبريكور (٢٩ مايو) فتقول:

في الثالث من مايو كان لدى اتحاد الـp.o.u.m عشرات الرشاشات وعدة آلاف من البنادق ... وفي بلازا إسبانيا حشد التروتسكيون بطاريات من مدافع ٧٥مم كان مقرراً إرسالها إلى الجبهة في الأراغون وقد خبأتها الميليشيات بعناية في مقارّهم.

لايخبرنا المستر بيتكيرن كيف ومتى اتضح له أن الـp.o.u.m امتلكوا عشرات الرشاشات وعدة آلاف من البنادق. ولقد أعطيت تقديري للأسلحة الموجودة في ثلاثة من الأبنية الرئيسة التابعة للـp.o.u.m – وهي حوالي ثمانين بندقية، وبضع رمانات، ولا رشاشات، أي مايكفي للحرس المسلح الذي وضعته في ذلك الوقت كل المنظمات السياسية على أبنيتها. ويبدو غريباً كيف أنه في وقت تال، بعد أن ألغيت الـp.o.u.m وصودرت أبنيتها وأسلحتها لم تظهر هذه الآلاف المؤلفة من الأسلحة! خصوصاً الدبابات والمدافع الميدانية، وهي ليست من الأشياء التي يمكن

تخبئتها في المدخنة. لكن اللافت في المقطعين أعلاه هو الجهل المطبق بالظروف المحلية. فبحسب زعم المستر بيتكيرن سرقت الـp.o.u.m الدبابات "من الثكنات". ولا يخبرنا من أية ثكنات. ورجال الـp.o.u.m الذين كانوا في برشلونة (وهم الآن قلّة نسبيًا، نتيجة لتوقف التطويع المباشر في الميليشيات الحزبية) جاوروا عدداً أكبر منهم بكثير من أفراد الجيش الشعبي في ثكنات لينين. فالمستر بيكيرن يريد منا أن نصدق بأن الـp.o.u.m سرقت الدبابات مع تستّر الجيش الشعبي عليهم. والأمر ذاته ينطبق على "العقارات" التي خبّئت فيها مدافع الـ٧٥مم. ليس من ذكر لعناوين هذه العقارات. وبطاريات المدفعية هذه التي كانت تطلق نيرانها على بلازا إسبانيا أوردت أخبارها كثير من التقارير الصحفية، لكنني أقول بالتأكيد بأنها لم توجد أصلاً. وكما ذكرت سابقاً، لم أسمع إطلاق قنابل مدفعية أثناء القتال، بالرغم من أن بلازا دي إسبانيا لم تكن تبعد عني إلا حوالي الميل. وبعد بضعة أيام تفقدتُ الساحة فلم أجد أية أبنية عليها آثار قصف المدفعية. وأخبرني شهود عيان كانوا في الجوار طوال القتال أنه لم تشاهد مدفعية هناك أبداً. (بالمناسبة، قصة المدافع المسروقة قد يكون مصدرها أنتونوف - أوفسّينكو، القنصل العام الروسي هناك. فهو الذي أبلغها إلى صحافي إنجليزي معروف جداً، أبلغها بدوره، عن حسن نية، إلى مجلة أسبوعية. لكن أنتونوف - أوفسّينكو قد جرى بعد ذلك الحين"تطهيره". ولست أدري كم سيؤثر هذا على مصداقيته.) والحقيقة هي، طبعاً أن هذه الأقاصيص عن الدبابات ومدفعية الميدان وما إلى ذلك اختلقت اختلاقاً لأنه بغير هذا لايمكن الملاءمة بين حجم القتال في برشلونة مع عدد أفراد الـp.o.u.m القليل. وكان من الضروري الزعم بأن الـp.o.u.m مسؤولة بالكلية عن القتال؛ كما كان من الضروري أيضاً الزعم بأنهم كانوا منظمة ضئيلة الحجم والأثر، لاأتباع لها إلا "عدداً لايزيد على بضعة آلاف"، بحسب الإنبيكور. والأمل الوحيد في جعل

الادعاءين مقبولين هو الزعم بأن الـp.o.u.m كان لديها كل الأسلحة التي يتمتع بها جيش حديث آلي.

يستحيل متابعة القراءة في التقارير التي تنشرها الصحافة الشيوعية بدون ملاحظة أنها موجهة إلى جمهور يجهل تماماً الوقائع، وليس لها من قصد إلا زرع الأحكام المسبقة والتحيز. ومن هنا مثلاً قول المستر بيكيرن في الديلي ووركر (١١ مايو) أن "الانتفاضة" قمعها الجيش الشعبي. والمقصود هنا إعطاء البرّانيين الانطباع بأن كاتالونيا كانت مجمعة على الوقوف بوجه "التروتسكيين". لكن الجيش الشعبي ظل محايداً طوال القتال؛ والجميع في برشلونة يعرفون هذا، ومن الصعب بأن المستر بيكيرن لايعرفه بدوره. أو خذوا أيضاً تلاعب الصحافة الشيوعية بأرقام القتلى والجرحى، بهدف المبالغة بحجم الاضطرابات. أعطى دلاز، الأمين العام للحزب الشيوعي الإسباني، والمرجع المتكرر للصحافة الشيوعية، ٩٠٠ قتيل و٢٥٠٠ جريح. أما وزير الدعاية الكتالاني، الذي يصعب القول بأنه يميل إلى التقليل من عدد الإصابات، الأعداد بأنها ٤٠٠ قتيل و١٠٠٠ جريح. فالحزب الشيوعي يضاعف الرهان ويضيف بضع مئات جلباً للحظ.

أما الصحف الرأسمالية الأجنبية فقد ألقت اللوم في القتال عموماً على الأناركيين، لكن بعضها تبع خط الإخبار الشيوعي. إحداها هي النيوز كرونيكل الإنجليزية، التي كان مراسلها المستر جون لانجدون-دافيس في برشلونة في ذلك الوقت. وأقتطف مقطعاً من مقالته هنا:

عصيان أناركي:

... وقد كان هذا عصياناً أناركياً. إنها فتنة باطلة للـp.o.u.m "التروتسكية"، تعمل من خلال المنظمات التي تسيطر عليها، كـ"أصدقاء دورّوتي" و"شباب التحرير" ... وقد بدأت المأساة عصر الاثنين حين أرسلت الحكومة البوليس المسلح إلى بناء الهاتف، لنزع سلاح العاملين هناك، وهم من رجال الـc.n.t . وقد

كان الاضطراب السائد في الخدمة الهاتفية يدعو للأسى منذ بعض الوقت. وقد تجمع جمهور كبير في ساحة بلازا دي كاتالونيا خارج البناء، بينما كان رجال الـc.n.t يقاومون، ويتراجعون من طابق إلى طابق إلى سطح البناء ... كانت الحادثة يلفها الغموض، وانتشرت الأقاويل بأن الحكومة "تلاحق" الأناركيين. فامتلأت الشوارع بالرجال ... وبحلول الظلام كان كل مركز عمالي أو بناء حكومي مدعماً بالمتاريس، وفي العاشرة [مساء] اندلعت النيران وسمعت أجراس سيارات الإسعاف في الشوارع. وفي الفجر كانت برشلونة بأجمعها تحت النار ... ومع تقدم النهار وتراكم القتلى إلى مافوق المئة، أصبح يمكن للمرء أن يخمن ما كان يحدث. فمنظمتا الـ c.n.t. الأناركية والـu.g.t الاشتراكية لم تكونا، تكتيكياً «خرجتا، إلى الشارع». بل ظلّتا وراء المتاريس، متخذتين دور المراقب والمترقّب، وهو موقف يتضمن الحق بإطلاق النار على كل مسلّح في الشارع المفتوح ... وهذا الوابل العام كان يؤججه «الباكوس pacos »– وهم أفراد منعزلون، من الفاشيّين عادةً، يطلقون النار من أسطحة المنازل لاعلى شيء بالتحديد، لكن يبذلون جهدهم لمضاعفة الذعر الشامل ... وبحلول مساء الأربعاء، بدأ يتضح مَن كان وراء العصيان. فالحيطان جميعاً تغطت بمنشور تحريضي يدعو إلى الثورة الفورية وإعدام الزعماء الجمهوريين والاشتراكيين، موقّعاً من "أصدقاء دورّوتي". وفي صباح الخميس أنكرت جريدة الأناركيين اليومية أية معرفة لها به أو تعاطف معه، لكن La Batalla, جريدة اتحاد الـp.o.u.m أعادت طبع الوثيقة مع أعلى التأييد. وهكذا غرقت برشلونة، أولى مدن إسبانيا، في الدماء بفعل عملاء التخريب، agents provocateurs وأداتهم تلك المنظمة الهدامة.

لايتفق هذا تماماً مع الرواية الشيوعية التي اقتطفت أعلاه، لكن يشاهد أنها حتى بشكلها الحالي مليئة بالمتناقضات. أولاً توصف الحادثة بأنها "عصيان تروتسكيّ"، ثم يتبين أنها نتجت عن الإغارة على بناء الهاتف، وعن الاعتقاد العام بأن الحكومة 'تلاحق' الأناركيين. المدينة مليئة بالمتاريس وكلتا منظمتي الـc.n.t والـu.g.t قابعتان وراء المتاريس؛ وبعد يومين يظهر المنشور التحريضي (وقد كان في الواقع وريقة)، ويُعلن بالتضمين أن هذا هو الذي أثار الاضطرابات كلها – فالنتيجة تسبق السبب! . لكن ثمة قطعة هنا تتضمن سوء تفسير شنيع. المستر لانجدن–ديفيس يصف أصدقاء دورّوتي وشباب التحرير بأنهما "منظمتان منقادتان" للـp.o.u.m . بينما شباب التحرير هم في الواقع عصبة شباب الأناركيين، يناظرون شباب الـi.s.u التابعين للـ .p.s.u.c التي تضم الشيوعيين. وأصدقاء دورّوتي كانوا تنظيماً ضئيلاً داخل اتحاد الـf.a.i وكان عموماً شديد العداء للـp.o.u.m. وبقدر علمي لم أجد أحداً كان عضواً في كلتا المنظمتين. فكأنه يصح، قياساً، القول بأن اتحاد الاشتراكيين [الإنكليزي] هو منظمة تابعة لحزب الأحرار الإنكليزي. فهل كان المستر لانجدن–ديفيس يجهل هذا؟ لو كان كذلك لوجب أن يكتب بتحفّظ أكثر عن مثل هذا الموضوعات الشائكة.

أنا لا أتعرض لحسن نوايا المستر لانجدن–ديفيس؛ لكنه يقر بأنه غادر برشلونة فور انتهاء القتال، أي في اللحظة التي كان يستطيع فيها أن يبدأ الاستفهام الجدي، وطوال تقريره ثمة دلائل واضحة على أنه قبل ونقَل الرواية الرسمية عن "العصيان التروتسكيّ" بدون تدقيق كافٍ. وهذا واضح حتى من المقطع الذي اقتطفته. "بحلول الظلام" أقيمت المتاريس، و"في العاشرة مساء" بدأ إطلاق النار للمرة الأولى. من هذا قد تفهم بأن العادة جرت أن تنتظر إلى أن ينتهي عدوك من بناء متاريسه قبل أن تبدأ بإطلاق النار عليه. والانطباع المأخوذ هو أنه انقضت بضع ساعات بين بناء المتاريس وإطلاق أوائل الطلقات؛ بينما الوضع الطبيعي أن يجري الأمر بالعكس.

أنا وكثيرون غيري شهدنا أوائل الطلقات تطلق منذ عصر ذلك اليوم. وهنا أيضاً يأتي ذكر الرجال الأفراد الذين هم "في العادة من الفاشيين"، يطلقون النيران من أسطح المنازل. لايخبرنا المستر لانجدن-ديفيس كيف عرف أن هؤلاء الرجال فاشيّون. ولاشك أنه لم يتسوّر أسطحة المنازل ويسأل عن هوياتهم. فهو ببساطة يعيد ماتلقّنه، وبما أنه لايبعد عن الرواية الرسمية، لايكلف نفسه عناء التحقق منه. والواقع أنه يشير إلى مصدر محتمل لمعظم معلوماته بالإحالة غير المقصودة إلى وزير الدعاية في بداية مقاله. ولقد كان الصحفيون الأجانب بصورة ميؤوس منها تحت رحمة وزارة الدعاية، بالرغم من أن المرء يظن بأن مجرد تسمية هذه الوزارة يعتبر تحذيراً كافياً. إن احتمال أن يكون مايصدر عن وزير الدعاية تقييماً موضوعياً لاضطرابات برشلونة، يعادل احتمال أن يصدر (مثلاً) عن المرحوم اللورد كارسون تقييم موضوعي عن أحداث دبلن سنة ١٩١٦.

لقد شرحت الأسباب التي تمنع من أخذ الرواية الشيوعية للقتال في برشلونة مأخذ الجد. فيجب أن أضيف شيئاً عن التهمة العامة للـp.o.u.m بأنها منظمة فاشية سرية لحساب فرانكو أو هتلر.

هذه التهمة أعيدت مراراً وتكراراً في الصحافة الشيوعية، وخصوصاً بعد بداية ١٩٣٧. وكانت جزءاً من الحملة الشيوعية في العالم كله ضد "التروتسكية"، التي كان يفترض أن الـp.o.u.m تمثلها في إسبانيا. فبحسب Frente Rojo (جريدة الشيوعيين في فالنسيا): "التروتسكية ليست عقيدة سياسية. التروتسكية هي منظمة رأسمالية رسمية، وهي عصابة فاشية شغلها الشاغل الإجرام والتخريب ضد الشعوب". والـp.o.u.m كانت منظمة تروتسكية على نسق مع الفاشيين وجزء من "طابور فرانكو الخامس". والملاحظ منذ البداية أنه لم يؤيد هذا الزعم بأي دليل؛ فقط جرى تأكيده بلهجة سلطة الأمر المقطوع. كما صاحب الهجوم تهجمات شخصية

وبدون إحساس بالمسؤولية التي يمكن أن يخلفها هذا على مجريات الحرب. فيبدو أنه ليس عند الشيوعيين من أهمية لإفشاء الأسرار الحربية تعادل ضرورة تلويث قادة الـp.o.u.m . مثلاً، في أحد أعداد فبراير من الديلي ووركر سُمح لإحدى الكاتبات (وينفريد بيتس) أن تقول بأنه ليس للـp.o.u.m من الجنود في قطاعها من الجبهة إلا نصف العدد الذي تزعم. وهذا لم يكن صحيحاً، لكن يفترض أن الكاتبة كانت تعتقد بصحته. فهي، والديلي ووركر معها كانتا مستعدتين لإفشاء أهم قدر من الأسرار يمكن تقديمه على صفحات الجرائد. وعلى صفحات النيو ريببلك كتب المستر رالف بيتس أن جنود الـp.o.u.m كانوا 'يلعبون كرة القدم مع الفاشيين في المنطقة الفاصلة' في الوقت الذي كان فيه جنود الـp.o.u.m يُمنون بإصابات كثيرة، وقد وقع كثير من أصدقائي الشخصيين قتلى وجرحى هناك. ثم كانت تلك اللوحة الكاريكاتيرية المشينة التي كانت واسعة التداول، أولاً في مدريد، وتالياً في برشلونة، وتمثل الـp.o.u.m ينزع قناعاً عليه المنجل والمطرقة كاشفاً عن وجهٍ عليه الصليب المعقوف. ولو لم تكن الحكومة عمليّاً محكومة بالشيوعيين لما سمحت لمثل هذا الشيء بالتداول وقت الحرب. وقد كان هذا ضربة للروح المعنوية لالميليشيات الـp.o.u.m. وحدها، بل لكل من كان قريباً منهم؛ إذ ليس من السهل أو المشجع أن يتهم الجندي المرابط إلى جانبك في الخندق بأنه خائن. والحق أنني لا أعتقد أن التهجمات التي انصبَّت عليهم قد أثرت في معنوياتهم. لكن المؤكد أن هذا كان المقصود منها، والمسؤولون عنها يجب أن يحاسبوا على تقديمهم الخلاف السياسي على العداء المشترك للفاشية.

إن الاتهامات التي سيقت ضد الـp.o.u.m لاتعني إلا مايلي: أن الجمهرة المؤلفة من آلاف الناس، وكلهم تقريباً من الطبقة العاملة، وإلى جانبهم مالا يحصى من المتطوعين والمتعاطفين الأجانب، ومعظمهم من اللاجئين من الأقطار الفاشيّة، وآلاف رجال الميليشيا، كان هؤلاء جميعاً منظمة تجسسية في خدمة الفاشيين.

والشيء كله يخالف أي إحساس أو منطق، فالتاريخ الماضي لنضال الـp.o.u.m كاف لجعل الاتهامات لاتقبل التصديق. أما القادة فقد كانوا جميعاً لهم تاريخهم الثوري طوال حياتهم. بعضهم كان ممن شهدوا حوادث انتفاضة سنة ١٩٣٤، ومعظمهم كان ممن ذاقوا السجن لنشاطاتهم الثورية ضد حكومة ليرّوكس أو النظام الملكي. وفي سنة ١٩٣٦ كان جواكيم مورين، قائدها حينذاك، هو الذي وقف في مجلس الكورتيس محذراً من تمرد فرانكو الوشيك. وبعد اندلاع التمرد الفعلي بقليل ساقه الفاشيون إلى السجن لمحاولته تنظيم المقاومة في مؤخرة جيوش فرانكو. وبعد قيام التمرد لعبت الـp.o.u.m دوراً بارزاً في مقاومته، وفي مدريد على وجه الخصوص سقط الكثير من أعضائها قتلى في حروب الشوارع. وكانت من أوائل المنظمات التي سلَّحَتْ طوابير من الميليشيا في كاتالونيا ومدريد. فيبدو من شبه المستحيل تفسير هذه الأفعال بأنها من عمل عصبة تحت السيطرة والتمويل الفاشيّين. فالحزب الذي بهذه المواصفات كان الأسهل عليه أن ينضم إلى الجانب الآخر.

ولم يكن هناك حتى تصرفات تخدم الفاشية أثناء الحرب. طبعاً يمكن الاحتجاج - بالرغم من أنني لاأتفق مع هذا في النهاية - بأن الـp.o.u.m بمطالبتها بسياسة أشدّ ثورية فتّتتْ من عضد القوى الحكومية وبهذا قوّت الفاشيين؛ وأظن أن أية حكومة من النوع الإصلاحي لاشك تعتبر الأحزاب التي من شاكلة الـ p.o.u.m. هي من المنغّصات. لكن هذا شيء آخر يختلف تماماً عن الخيانة المباشرة. ولاضرورة للإفاضة في شرح الأسباب، وحتى لو كانت الـp.o.u.m كذلك، فإن أعضاءها ظلوا موالين. إنهم ثمانية أو عشرة آلاف رجل سدّوا قطاعاً مهماً من الجبهة خلال الظروف التي لايمكن تحمّلها من شتاء ١٩٣٦-٣٧. والكثير منهم يقضون في الخنادق أربعة أو خمسة شهور دون انقطاع. فمن الصعب رؤية السبب الذي منعهم من أن يقطعوا ببساطة خط الجبهة وينضمّوا إلى العدو. لقد كان بإمكانهم

دائماً أن يفعلوا هذا، ومرت أوقات كان مثل هذا العمل يؤدي إلى نتيجة للحرب حاسمة. وبالرغم من هذا تابعوا القتال، وقد حدث بعد قليل من قمع الـp.o.u.m وحلّها كحزب سياسي، وقبل أن تغرُب الحادثة عن الأذهان، وقبل أن توزع ميليشياتها على وحدات الجيش الشعبي، أن اشتركت تلك الوحدات في الهجوم الدامي على شرقي هويسكا، الذي راح ضحيته آلاف الرجال في يوم واحد أو يومين. كان المرء يتوقع على الأقل بعض التآخي مع العدو وتسرب مستمر من المنقلبين إلى صفوفه لو كان الأمر على مايقولون. لكن، كما أسلفت قبل قليل، كان عدد الفارين لايكاد يذكر. كما كان يفترض وجود ولو القليل من الدعاية المتعاطفة مع الفاشيّة، أو 'الانهزامية'، أو ما إلى ذلك.لكن لم يحدث أيُّ شيء من هذا، ولا ما يشير إليه. واضح أنه لايخلو الأمر من وجود بعض الجواسيس الفاشيين ، وبعض مثيري الفتن agents provocateurs ضمن صفوف الـp.o.u.m ؛ وهم لايخلو منهم حزب يساري، لكن ليس ثمة دليل على أنه كان منهم هناك أكثر مما هو في الأطراف الأخرى.

صحيح أن الصحافة الشيوعية ذكرت أن الأمر يقتصر على كون القادة في الـ p.o.u.m. يعملون لحساب الفاشية، أما القواعد فلا. لكن هذا لم يكن إلا لضرب إسفين بين القواعد والقيادة. أما طبيعة الاتهام فتعني ضمناً أن الأعضاء العاديين، ورجال الميليشيا وسائر الجماعة كانوا جميعاً في المؤامرة معاً؛ لأن الواضح أنه إذا كان نين، وجوركين، والباقون أُجراء للفاشية، فالأقرب أن يكون هذا معلوماً عند الآخرين وعند أتباعهم الذين هم على احتكاك بهم، أكثر من الصحفيين في لندن، وباريس، ونيويورك. وعلى كل حال، فعند حلّ الـp.o.u.m فإن البوليس السري الذي يسيطر عليه الشيوعيون تصرّف على أساس أن الجميع كانوا مدانين على السواء، وبادروا إلى اعتقال كل من كانت له علاقة بالـp.o.u.m استطاعوا وضع

اليد عليهم، ومن ضمنهم الجرحى، والمرضين في المستشفيات، والزوجات، وفي بعض الأحوال لم يوفروا الأطفال.

وأخيراً، وفي ١٥-١٦ يونيو حُلّت الـp.o.u.m وأعلنت منظمة محظورة غير شرعية. وكان هذا من أوائل المراسيم التي أصدرتها حكومة نيجرين التي تسلمت الحكم في مايو. وحين أُلقيت اللجنة التنفيذية للـp.o.u.m في السجن طلعت الصحافة الشيوعية بما يوهم باكتشاف مؤامرة فاشية كبرى. وظلت تلك الصحافة في العالم كله تتوقد بأمثال مايلي (الديلي ووركر، ٢١ يونيو، تلخص مختلف الصحف الشيوعية الإسبانية):

التروتسكيون الإسبان يتآمرون مع فرانكو

بعد اعتقال عدد كبير من التروتسكيين في برشلونة وأنحاء أخرى ... تكشفت، خلال نهاية الأسبوع تفاصيل واحدة من أرهب قصص الجاسوسية التي عرفت وقت الحرب، مع أعمق مدى للخيانة التروتسكية حتى اليوم ... فالوثائق التي أصبحت بحوزة البوليس، مع الاعترافات الكاملة لما لايقل عن مئتين ممن هم قيد الاعتقال، تثبت، كذا، وكذا...

ما "أثبتته" هذه الكشوف هي أن قادة اتحاد الـp.o.u.m كان إرسال الأسرار العسكرية إلى الجنرال فرانكو بالراديو، وأنهم كانوا على اتصال ببرلين، وكانوا يعملون بالتنسيق مع المنظمة الفاشيّة السرّية في مدريد. يضاف إلى هذا تفاصيل مثيرة عن الرسائل السرية بالحبر المخفي، ووثيقة غامضة موقعة بالحرف N (وبقصدون نين [زعيم المنظمة])، وهكذا دواليك.

لكن النتيجة النهائية هي هذه: الآن، وأنا أكتب هذا بعد ستة شهور من الحوادث، مازال معظم قادة الـp.o.u.m في السجن، لكنهم لم يقدّموا إلى

المحاكمة، واتهاماتهم بالاتصال بفرانكو بالراديو، الخ، لم يجر حتى تسجيلها وتقديمها. ولو كانوا متهمين حقّاً بالتجسس لجرت محاكمتهم وأعدموا في ظرف أسبوع، كما حصل في حالة كثير من الجواسيس للفاشيست قبلهم. لكن لم يعثر على أي قصاصة أو دليل إلا مانشر في الصحافة الشيوعية. أما عن المئتي "اعتراف"، والتي لو كانت صحيحة لكانت كافية لإدانة أي إنسان، فلم يسمع بها أحد بعدئذ. ولم تكن إلا مئتي شطحة من خيال أحدهم.

والأكثر من هذا، أن معظم أعضاء الحكومة الإسبانية عبروا عن عدم قناعتهم بالاتهامات ضد الـp.o.u.m . وقد صوت مجلس الوزراء مؤخراً بنتيجة خمسة مقابل ثلاثة لصالح إطلاق سراح كل المسجونين من المعارضين للفاشية؛ وكان الاثنان المعترضان هما الوزيران الشيوعيان. وفي أغسطس ذهب إلى إسبانيا وفد دولي يرئسه عضو البرلمان البريطاني جيمس ماكستون للبحث في التهم الموجهة إلى منظمة الـ p.o.u.m. والسؤال عن مصير الزعيم المختفي أندريز نين. وقد عبّر برييتو وزير الدفاع الوطني، وإيروجو وزير العدل، وزوجازاجويتيا وزير الداخلية، وأورتيجا إ. جاسيت النائب العام، وبرات جارسيا وغيرهم عن عدم قناعتهم بأن زعماء الـ p.o.u.m. يمكن إدانتهم بالتجسس. بل أضاف إيروجو أنه تفحّص إضبارة القضية، فلم يجد أي شيء مما زعم بأنه أدلة يصمد أمام الفحص، وأن الوثيقة التي يفترض أنها وقعها "لاقيمة لها". أي مزورة. وقد رأى برييتو أن قادة منظمة الـ p.o.u.m. مسؤولون عن قتال مايو في برشلونة، لكنه رفض فكرة أن يكونوا جواسيس للفاشيّة. وأضاف "إن من المؤسف أن اعتقال قادة منظمة الـ p.o.u.m. لم يتقرر من قبل الحكومة، وقد قام البوليس بهذه الاعتقالات على عهدتهم. والمسؤولون ليسوا قادة البوليس الكبار بل حواشيهم. الذين "اندس بينهم الشيوعيون كعادتهم المألوفة". وقد ذكر حوادث مماثلة من اعتقالات غير قانونية قام بها البوليس. ومثله إروجو أعلن

أن البوليس أصبحوا "شبه مستقلين"، وأنهم في الحقيقة أداة بيد العناصر الشيوعية. وقد لَمّح بريتو للوفد على التعميم بأن الحكومة لاتستطيع أن تجازف بإغضاب الحزب الشيوعي في حين أن الروس يزودون الحكومة بالسلاح. وحين ذهب وفد آخر برئاسة عضو البرلمان جون مك جفرن إلى إسبانيا في ديسمبر تلقوا نفس الأجوبة التي عاد بها الوفد الأول، وأعاد زوجازاجويتيا، وزير الداخلية، تلميح بريتو بعبارات أوضح؛ "لقد تلقينا المساعدات من روسيا وعلينا أن نتحمل بعض التصرفات التي لانرضى عنها". ولكي نرى مدى استقلال البوليس، من المثير للاهتمام أن نعرف أنه بالرغم من أن مك جفرن وجماعته حصلوا على أمر موقع من مدير السجون ومن وزير العدل، فإنهم لم يستطيعوا الدخول إلى أحد 'السجون السرية' الواقعة تحت سيطرة الحزب الشيوعي في برشلونة. *

أظن أن هذا يكفي لإيضاح الأمور. والاتهامات بالتجسس ضد الـp.o.u.m لاتقوم إلا على مقالات في الصحف الشيوعية وعلى نشاطات البوليس السري الذي يتحكم به الشيوعيون. قادة الـp.o.u.m ومئات الألوف من أتباعهم مازالوا في السجون، وخلال ستة الشهور الماضية مازالت الصحافة الشيوعية تجأر مطالبة بإعدام "الخونة". لكن نيجرين والآخرين ما زالوا صامدين ويرفضون إقامة مذبحة جماعية تطال "التروتسكيين". وبالنظر إلى الضغط الكبير الذي يرزحون تحته يُعدّ لصالحهم أنهم رفضوا هذا. مع هذا، وبالنظر إلى ما اقتطفته أعلاه، يصعب التصديق بأن الـp.o.u.m كانت منظمة فاشية، إلا بمقدار التصديق بأن ماكستون، ومك

---

* من أجل التقارير عن الوفدين انظر: *La Flèche (18* September), أما *Le Populaire* *(7* September), فتتضمن تقريراً عند وفد ماكستون نشرته *Independent News* *(219)* Rue SaintDenis, Paris), and McGovern's pamphlet *Terror in Spain*.

جفرن، وبرييتو، وإيروجون وزوجازاجويتيا وسائر الباقين كانوا يعملون لحساب الفاشية أيضاً.

وأخيراً ما اتهمت به الـp.o.u.m بأنها "تروتسكية". هذه الكلمة أصبحت تلقى اليوم جزافاً، وبحرية واسعة، وبطريقة مضللة تماماً بل يقصد بها التضليل. فيحسن أن نتوقف لتعريفها. كلمة تروتسكيّ تستعمل لتعني ثلاثة أشياء متميزة:

(i) الرجل الذي يتبع تروتسكي في المناداة بـ"الثورة العالمية" مقابل "الاشتراكية في دولة واحدة". وبأوسع من هذا تعني الثوريّ المتطرف.

(ii) عضو المنظمة التي يرئسها تروتسكي ذاته.

(iii) فاشيٌّ متخفٍّ، يتظاهر بأنه ثوري ويعمل للتخريب في الاتحاد السوفييتي، لكنه عموماً يعمل على إحداث التفرقة والانقسام وتلغيم قوى الجناح اليساري.

فبالمعنى الأول، يمكن عدُّ الـp.o.u.m منظمة تروتسكية. ومثلها في هذا الـ i.l.p. (حزب العمال) البريطاني، والـs.a.p (الاشتراكيين) الألمان، والاشتراكيين اليساريِّين في فرنسا، وما إليهم. لكن ليس للـp.o.u.m أية علاقة بالـ"تروتسكيور" المنظمة التروتسكية الـ("بولشفية لينينية") بالذات. وحين اندلعت الحرب عمل التروتسكيون الأجانب الذين قدِموا إسبانيا لدى الـp.o.u.m، بوصفها الحزب الأقرب إلى وجهة نظرهم، لكن دون أن يصبحوا من الأعضاء؛ وفي وقت لاحق أمر تروتسكي أتباعه بمهاجمة سياسة الـp.o.u.m، فأُبعد التروتسكيون من الوظائف الحزبية، وبالرغم من هذا ظل بعضهم في الميليشيا. ولقد كان نين، قاد الـ p.o.u.m. بعد القبض على مورين من قبل الفاشيين، سكرتيرَ تروتسكي في وقت ما، لكنه فارقه قبل عدة سنوات وشكّل منظمة الـp.o.u.m. بتجميعه المعارضة

الشيوعية على اختلاف فئاتها مع حزب أقدم، وهو تكتّل العمال والفلاحين. وقد كانت علاقة نين السابقة مع تروتسكي ذريعة لدى الشيوعيين لاتهام الـp.o.u.m بأنها تروتسكية بالفعل. وبما يشبه خط التفكير هذا يمكن اتهام الحزب الشيوعي الإنجليزي بأنه منظمة فاشية لأن المستر جون ستراشي كان على علاقة سابقة بالسير أوزوالد موزلي.

لكن بالمعنى الثاني، وهو التعريف المحدد الوحيد، فإن الـp.o.u.m ليست تروتسكية قطعاً. وهذا التمييز مهم جداً. لأن من المسلّم عند غالبية الشيوعيين أن التروتسكية بالمعنى الثاني هي أيضاً كذلك بالمعنى الثالث - أي أن التنظيم التروتسكي بكامله هو ماكينة تجسس فاشيّة. ولم تلفت التروتسكية نظر الجماهير وتدرج على الألسن إلا مع محاكمات التخريب الروسية، فأصبح اتهامك المرء بالتروتسكية يعني أن تتهمه بأنه مجرم، ومثير للفتن agent provocateur. لكن في الوقت ذاته، كل من ينتقد السياسة الشيوعية من وجهة النظر اليسارية يجعل من نفسه عرضة للوصم بالتروتسكية. ثم هل ثبت تماماً أن كل من يبشر بالتطرف الثوري يكون يعمل لحساب الفاشيين؟

الواقع أنه كذلك وليس كذلك، حسبما هو ملائم محلياً. فحين حضر ماكستون إلى إسبانيا مع الوفد الذي ذكرته سابقاً، أدانته جريدة فيرداد فرنتي روجو، وغيرها من الجرائد الإسبانية الشيوعية فوراً بأنه "تروتسكيّ فاشيّ"، جاسوس للجستابو، وغير ذلك. ورغم هذا حرصت الصحافة الشيوعية الإنجليزية ألاّ تكرر كل تلك الاتهامات. ففي الصحافة الشيوعية الإنجليزية ليس ماكستون إلا "رجعياً معادياً للطبقة العاملة"، وهذا غامض بما يحقق المطلوب منه. والسبب هو طبعاً أن بعض الدروس القاسية علّمت الصحافة الشيوعية الإنجليزية أن تراعي بكل دقة قوانين القدح والذم. وواقعة أن الاتهامات لم تتكرر في بلد قد تتطلب المحاكم براهين عليها يكفي لبيان بطلانها.

قد يبدو أنني بحثت الاتهامات ضد الـp.o.u.m بتفصيل أوسع من اللازم. وإذا قورن هذا بالمآسي العظمى للحرب الأهلية، فهذا الضربً من الخصومات الداخلية في الأحزاب، مع مايترتب عليه من افتراءات واتهامات زائفة، قد يبدو لايستحق الذكر. لكنه ليس كذلك. أعتقد أن الطعن والحملات الصحفية من هذا النوع، وطرق التفكير التي تشير إليها تستطيع تحقيق أكبر قدر من التخريب في القضية المضادة للفاشية.

كل من توقف لإلقاء نظرة ولو خاطفة إلى الموضوع يعرف أن التكتيك الشيوعي في معاملة الخصوم السياسيين باستعمال "البطاقات الجاهزة" ليس جديداً. العبارة الجاهزة الآن هي "فاشيّ-تروتسكي"؛ أمسِ كانت "فاشي-اشتراكي". ولم تمض إلا ست أو سبع سنوات على "إثبات" المحاكمات الروسية أن قادة مؤتمر الدولية الثانية، بما فيهم مثلاً ليون بلوم وبعض كبار أعضاء حزب العمال البريطاني، كانوا يبيّتون خطة واسعة للغزو العسكري للاتحاد السوفييتي. وبالرغم من هذا يسرّ الشيوعيون الفرنسيون أن يقبلوا بليون بلوم رئيساً لهم، والشيوعيون الإنجليز يثيرون الأرض والفضاء للدخول في حزب العمال. لاأظن أن مثل هذه الأعمال ذات نتيجة، حتى من الناحية الحزبية الضيقة. لكنها، أي الاتهامات بالـ "فاشيّة-التروتسكية"، تظل بلا شك سبباً للكثير من الحقد واليأس والاحتقار. إن القواعد الحزبية الشيوعية في كل مكان يجري تشتيتها وتضليلها في مطاردة وهمية وراء "التروتسكيين"، بينما تصبح أحزاب، مثل الـ .p.o.u.m ، محشورة في المؤخرة في موقف عقيم لايميزه إلا عداؤه للشيوعية. وقد ظهر أخيراً واتسع الخرق بين صفوف حركة الطبقة العاملة. وبعد بضعة افتراءات أخرى على من كانوا الاشتراكيين طوال حياتهم، وبضع تلفيقات كمثل الاتهامات الموجهة ضد الـp.o.u.m ويصبح الخرق غير قابل للالتئام. الأمل الوحيد هو في إبقاء النزاع السياسي في مستوى يمكن فيه البحث والمناقشة المستفيضان. إن بين الشيوعيين وبين أولئك الذين يقفون أو يزعمون أنهم يقفون إلى يسارهم فرقاً حقيقياً. الشيوعيون يعتقدون بأن الفاشية يمكن دحرها بالتحالف مع قطاعات الطبقة الرأسمالية (الجبهة الشعبية)؛ وخصومهم يعتقدون

بأن هذه المناورة تعطي الفاشية مجالاً للتفريخ. المسألة لابد من البتّ بها، وإذا تبنينا الحل الخطأ فقد نجد أن علينا قضاء القرون المقبلة في شبه عبودية. لكن طالما أن كل الحجج التي تُقدّم لاتزيد عن "فاشيّ-تروتسكي" فالتقرير لايمكن حتى البدء به. فمن المستحيل عليّ أنا، مثلاً، أن أناقش الصواب والخطأ في القتال في برشلونة مع أحد أعضاء الحزب الشيوعي، لأنه ليس من شيوعي - أي ليس من شيوعي "جيد" - يستطيع أن يُقرّ بأنني قدّمت رواية حقيقية عن الوقائع. وإذا كان يتقيد "بخط" حزبه كما يجب فعليه أن يعلن أنني كاذب، أو، وهذا أضعف الإيمان، أنني مغرر بي نهائياً، وأن أي إنسان يلقي نظرة على العناوين العريضة للديلي ووركر من على بعد ألف ميل عن مسرح الأحداث يعرف عما كان يحدث في برشلونة أكثر مني. وفي مثل هذه الأوضاع لايمكن قيام مناظرة؛ إذ لايمكن الوصول حتى إلى الحد الأدنى من الوفاق الضروري. وما الغرض الذي يتحقّق من القول بأن رجالاً من مثل ماكستون يعملون لحساب الفاشية؟ غرض واحد؛ هو جعل البحث الجاد مستحيلاً. كما لو أن أحد المتبارين في الشطرنج يقف في وسط اللعبة فجأة ويعلن أن منافسه مدان بالحرق العمد أو الخيانة الزوجية. أما الموضوع المهم في تلك اللحظة فلا يتطرق إليه أحد. الطعن لا يوصل إلى البت بشيء.

١٢

الإصابة والإسعاف

بعد ثلاثة أيام من انتهاء القتال في برشلونة عدنا إلى الجبهة. وقد أصبح يصعب عليّ بعد هذا - على وجه التحديد بعد المهاترات الصحفية التي تلت القتال -التفكير بتلك الحرب بالنفسية المثالية الساذجة التي كنت عليها قبلاً. أعتقد أن كل الذين قضوا في إسبانيا مايزيد على عدة أسابيع شعروا بالخيبة إلى حدٍ ما. عدت بأفكاري إلى المراسل الصحفي الذي قابلته أولَ أيام وصولي إلى برشلونة وقال لي: "هذه الحرب أُحبولة، شأنَ كل الحروب". وقد أثرت فيّ ملاحظته كثيراً، ففي ذلك الوقت (ديسمبر) لم أكن أعتقد بصحتها في مايو؛ وكذلك هي الآن في رأيي، غير صحيحة؛ لكنها تصبح أصحّ فأصح. الواقع أن كل حرب تتعرض إلى انحطاط مستمر مع الأيام التي تمر عليها، لأن الأشياء التي هي من مثل الحرية الفردية والصحافة الموضوعية لاتتفق مع الكفاءة الحربية.

يستطيع المرء الآن أن يخرج بشيء من التخمين عما ستؤول إليه الأمور وما سيحدث. كان من السهل رؤية أن حكومة كابالليرو سوف تسقط لتستبدل بحكومة يمينية الطابع يكون النفوذ الشيوعي فيها أقوى (وقد حدث هذا بعد أسبوع أو أسبوعين)، تكرس نفسها لكسر نفوذ النقابات العمالية نهائياً. وبعدها، بعد هزيمة فرانكو - والخلاص من المشكلات الناجمة عن الاعتراف بالحكم الإسباني - لم يكن المستقبل وردياً زاهياً. أما عن كلام الجرائد عن هذه الحرب بأنها "من أجل

الديموقراطية"، فهذا ليس إلا هراء. وليس من إنسان بكامل قواه العقلية يعتقد بوجود أمل في الديموقراطية، حتى من النوع الذي نعانيه في إنجلترا أو فرنسا، في بلد مقسم أنهكته الحرب كما ستكون عليه إسبانيا بعد انتهاء الحرب. لابد أنها ستكون ديكتاتورية، وقد اتضح أن ديكتاتورية الطبقة العاملة قد مضت. وهذا يعني أن الاتجاه العام سوف يكون باتجاه نوعٍ من الفاشية. فاشية مسمّاة لاشك باسم أكثر تهذيباً، ثم، ولأننا في إسبانيا، ستكون أكثر إنسانية وأقلّ كفاءة من تلك الألمانية والإيطالية. والبديل الوحيد هو ديكتاتورية أشد سوءاً على يد فرانكو، أو (وهذا احتمال قائم على الدوام) أن تنتهي الحرب بتقسيم إسبانيا، إما بحدود فعلية، وإما بمناطق اقتصادية.

من أي ناحية نظرتَ كان المنظر حالكاً كئيباً. لكن هذا لايستتبع أن الحكومة لاتستأهل الدفاع عنها ضد الفاشيّة الأكثر انكشافاً وتطوراً مثل فاشيّة فرانكو أو هتلر. ومهما كانت نواقص حكومة مابعد الحرب، فنظام فرانكو سيكون أشدّ سوءاً. فأما العمال – البروليتاريا المدينية – فقد لايكون هناك في النهاية من فارق كبير عندهم في من فاز، لكن إسبانيا هي بالأساس بلد زراعي ولاشك في استفادة العمال من انتصار الحكومة. البعض على الأقل من الأراضي التي صودرت سوف يظل في أيديهم، وفي تلك الحالة قد يحدث بعض التوزيع أيضاً في الأراضي التي كان يسيطر عليها فرانكو، والرق الواقعي الذي كان سائداً في بعض أجزاء إسبانيا قد لايعود. كما أن الحكومة التي ستكون بعد الحرب ستكون معادية للكنيسة على أية حال، كما هي معادية للإقطاع. فستُلزم الكنيسةَ حدودَها، على الأقل موقتاً، وستجعل البلاد حديثة بمعنى شق الطرقات مثلاً وتقوية التعليم والصحة العمومية؛ وقد حدث شيء من هذا حتى أثناء الحرب. بينما فرانكو من الناحية الأخرى يظل بالإضافة لكونه ألعوبة في أيدي إيطاليا وألمانيا، مرتبطاً بالأسياد الإقطاعيين ويؤيد رجعية كهنوتية– عسكرية.

قد تكون الجبهة الوطنية أحبولة، لكن فرانكو مصيبة تاريخية، ولايتمنى انتصارَه إلا الحالمون وأصحاب الأموال.

وفوق هذا هناك مسألة المكانة الدولية للفاشية، التي ظلت تؤرقني طوال السنة أو السنتين الماضيتين مثل الكابوس. فمنذ ١٩٣٠ حتى الآن نال الفاشيّون كل الانتصارات، إذن آن أوان أن يخسروا، مهما كان المنتصر. وإذا استطعنا إلقاء فرانكو ومرتزقته الأجانب في البحر فقد يكون لهذا أثر طيب في وضع العالم أجمع. حتى ولو خرجت إسبانيا منها بدكتاتورية خانقة وكل الطيبين من رجالها في السجون. لهذا وحده تستحق هذه الحرب أن يتحقق لنا فيها النصر.

على هذا الشكل كانت تبدو لي الأمور في ذلك الحين. ويمكن القول أنني الآن أقدّر حكومة نيجرين أكثر مما كنت وقت تسلمها الحكم. فلقد تحملت القتال الصعب بشجاعة ملحوظة، وأبقته ضمن حدوده وأبدت تسامحاً سياسياً أوسع مما كان متوقعاً. لكنني لاأزال على اعتقادي بأن حكومة مابعد الحرب في إسبانيا ستكون بالتأكيد فاشيّة – إلا إذا تقسمت إسبانيا، حينئذ تكون النتائج لايمكن التنبؤ بها–. وهنا أيضاً أدع رأيي معلقاً وأغامر بترك الزمن يعاملني كما عامل معظم المتنبئين.

لم نكد نصل إلى الجبهة إلا وسمعنا بأن بوب سميلّي، وفي طريقه للعودة إلى إنجلترا، اعتقل على الحدود، وسيق إلى فالنسيا، وأودع السجن. كان سميلّي في إسبانيا منذ أكتوبر الماضي. وقد عمل عدة شهور في مكاتب الـp.o.u.m ثم انضم إلى الميليشيا حين حضر [من إنجلترا] أعضاء الـi.l.p [النقابات البريطانية]، بناء على اتفاق يفهم منه أن يقضي ثلاثة شهور في الجبهة ثم يعود إلى إنجلترا ليشارك في جولة دعائية. وقد قضينا مدة طويلة قبل أن نعرف سبب اعتقاله. إذ وضع في حرز الانفراد ومنع الاتصال به حتى من المحامين. وليس في إسبانيا – عملياً على الأقل – مدة محددة للاعتقال الاحترازي habeas corpus ، فيمكن أن تظل في السجن

شهوراً ممتدة دون حتى أن توجه إليك تهمة، ناهيك أن تقدم إلى المحاكمة. وأخيراً علمنا من أحد الذين أُطلق سراحهم بأن سميلّي اعتقل بتهمة «حيازة سلاح». و «السلاح» الذي كان يحمله، بحسب معرفتي كان قنبلتين يدويتين من النوع البدائي الذي استخدم في بداية الحرب، وكان يأخذهما إلى الوطن لعرضهما في محاضراته، مع بعض شظايا القنابل وغيرها من التذكارات. وقد أزيلت الحشوات المتفجرة والصواعق منها – فلم يتبقّ إلا الإسطوانات الفولاذية التي لاتؤذي أحداً. الواضح أنها كانت ذريعة وأنه اعتقل لما هو معروف من ارتباطه بالـp.o.u.m . كان قتال برشلونة قد انتهى قبل قليل، وكانت السلطات حريصة على منع مغادرة إسبانيا لأي شخص يستطيع مناقضة روايتها للأحداث. ونتيجة لهذا كان الناس عرضة للاعتقال على الحدود بأية تهمة. وأكبر الاحتمالات أن المقصود في البداية لم يكن إلا توقيف سميلّي لبضعة أيام. والمشكلة هي أنك في إسبانيا ما إن تدخل السجن حتى تظل على الأغلب هناك، بمحاكمة أو بدونها.

ظللنا على مشارف هويسكا، لكنهم أنزلونا في محل جديد إلى اليمين فأصبحنا مقابلين بالضبط للحصن الفاشي الذي احتللناه قبل عدة أسابيع. وقد أصبحتُ الآن بصلاحيات leniente ، أظن أنها تعادل رتبة الملازم الثاني في الجيش البريطاني، وبأمرتي ثلاثون رجلاً من الإنجليز والإسبان. وقد رفعوا اسمي من أجل التثبيت، ولا أدري هل ستعود بالموافقة أم لا.

كان ضباط الميليشيا يرفضون التثبيت المعتاد [في الجيش الشعبي] لأنه يعني الزيادة في رواتبهم مما يتعارض مع أفكار المساواة التي يعتنقونها، لكنهم الآن أصبحوا ملزَمين بالقبول. وعلى هذا فقد ثبت اسم بنيامين في اللائحة برتبة كابتن. أما كوب فهم بصدد تثبيته برتبة ماجور. كانت الحكومة لاتستطيع طبعاً الاستغناء عن ضباط الميليشيات، ولكنها كانت ترفض تثبيت أي منهم برتبة أعلى من ماجور،

والمعتقد أن هذا لإبقاء القيادة العليا لضباط الجيش النظامي وللضباط الجدد من خريجي المدرسة الحربية. ونتيجة لهذا أصبحت تجد في فرقتنا، الفرقة ٢٩، وفي غيرها من الفرق بلا شك، الوضع الغريب الشاذ من أن قائد الفرقة، وقائد اللواء [بريجادير] وقائد الكتيبة، جميعاً برتبة ماجور.

لم يكن ثمة الكثير يحدث على الجبهة. وقد خفتت المعارك حول طريق جاكا ولم تبدأ ثانية إلا في منتصف يونيو. في موقعنا كان الخطر الأكبر هو القناصة. كانت الخنادق الفاشية تبعد أكثر من مئة وخمسين ياردة، لكنهم كانوا على مرتفع من الأرض، وعلى جانبين منا، بينما كانت خطوطنا تشكل زاوية قائمة نافذة بينهم. فكان رأس تلك الزاوية أخطر نقطة عندنا؛ وقد سقط منا كثير من الإصابات برصاص القنص هناك. وبين الحين والحين كان الفاشيون يرشقوننا بقنبلة بندقية أو مايماثلها من الأسلحة. كانت تصدر صوتاً مريعاً - وهو شيء مثير للأعصاب لأنك لاتسمعها في الوقت المناسب وهي قادمة كي تتوارى - لكنها لم تكن شديدة الخطر في الحقيقة؛ والحفرة التي تحدثها في الأرض لاتزيد في الحجم عن المغسلة. الليالي دافئة عليلة، وأوقات النهار شديدة الحرارة، والبعوض أصبح من المنغصات، وبالرغم من أننا جلبنا ملابسنا نظيفة من برشلونة إلا أن القمل سرى فيها فوراً. وفي البساتين والكروم كان الكرز يذوي على أشجاره. وقد أمطرت السماء يومين متتاليين. فغرقت الكهوف والخنادق، وغرز المتراس الأمامي في الأرض قدماً؛ وبعد هذا قضينا مزيداً من الأيام في جرف الطين اللزج بالرفوش الإسبانية الشقية التي هي بدون عصي وتلتوي كأنها الملاعق.

كانوا وعَدونا بمدفع هاون للخنادق، وكنت أترقب وصوله بفارغ الصبر. في الليالي كنا نخرج في الدوريات كالعادة - وقد أصبحت أخطر مما اعتدنا، لأن الخنادق الفاشية قد دعمت بالرجال، وأصبحوا أشد تيقظاً؛ فنثروا العلب المعدنية

الفارغة خارج خطوط أسلاكهم الشائكة، واعتادوا أن يفتحوا وابلاً من نيران الرشاشات عند سماعهم أي صليل. وفي النهار كنا نقتنصهم من المنطقة الفاصلة. فإذا زحفت مئة ياردة وصلت إلى حفرة، تغطيها الحشائش الطويلة وتشرف على ثغرة في المتاريس الفاشيّة. وقد أقمنا فيها مسنداً للبندقية. وإذا صبرت وقتاً كافياً فقد تجد شخصاً بالخاكي يمرق بسرعة متجاوزاً الثغرة. وقد أطلقت هناك عدة طلقات، ولا أدري إن كنت أصبت أحداً. لكنه احتمال بعيد جداً، فأنا لست ذلك الرامي الجيد بالبندقية. لكنه كان تسلية لابأس بها، والفاشيون لم يتمكنوا من معرفة مصدر الطلقات، فأصبحت متأكداً من أنني سأنال واحداً منهم إن عاجلاً أو آجلاً. لكن الواقع أن الكلب مات قبل الطريدة - وتمكن قنّاص فاشيٌّ من إصابتي.

كنت قد قضيت عشرة أيام في الجبهة حين وقعت الحادثة. وتجربة الإصابة بطلقة مثيرة على ما أظن بحيث تستحق الرواية بالتفصيل.

كنا على الزاوية عند مدخل المتاريس، والساعة الخامسة صباحاً. وهي من الساعات الخطرة على الدوام، لأن الفجر يكون إلى الخلف منا، فإذا أطللت برأسك من فوق جدار المتراس يصبح ظاهراً تماماً مقابل الأفق الساطع. كنت أتمشى في طريقي إلى المحارس تحضيراً لتبديل الحرس، وفي منتصف جملة كنت أقولها، أحسست - يصعب التعبير عما أحسست به، بالرغم من أنني أذكره بأتم مايمكن من الجلاء.

إجمالاً أقول أنه إحساس بكوني في مركز انفجار. يبدو أنه انطلق من كل الأنحاء حولي صوت عال جداً يصم الآذان وبريق ومضة تعمي الأبصار، وأحسست بصدمة أعنف مايكون - لا ألم، صدمة عنيفة فقط، كما ينتابك من صدمة سلك كهربائي؛ ومعها إحساس بالوهن الشديد، شعور بالصعق والذبول حتى التلاشي. تراجعت أكياس الرمل من أمامي إلى أن وصلت إلى بُعد سحيق. أتخيل أنك تشعر نفس الشعور إذا ضربتك صاعقة. عرفت فوراً بأنني أُصبت، لكن بسبب الانفجار

والبريق ظننت أن بندقية قريبة انطلقت من ذاتها وأصابتني. كل هذا حدث في زمن لايتجاوز الثانية. وفي اللحظة التالية تهاوت ركبتاي وسقطت، فارتطم رأسي بالأرض ارتطاماً عنيفاً، لكنه لم يؤذني. ثم انتابني شعور بالخدر والدوار، وإدراك عميق بأنني أُصبت إصابة بالغة. ، لكن بدون ألم بالمعنى المألوف.

انحنى الحرس الأمريكي الذي كنت أحادثه قائلاً: "جاش، هل أصبت؟" وتجمع الناس حولي. وبدأ اللغط المعتاد - "ارفعوه! أين أصيب؟ مزقوا قميصه! " الخ، الخ. ونادى الأمريكي طالباً سكّيناً يقطع بها القميص. كنت أعرف أنني أحمل واحدة في جيبي، وحاولت إخراجها، فاكتشفت بأن يدي اليمنى لاتطاوعني، لقد انشلّت. ولأنني لم أكن أشعر بأي ألم، فكأنني شعرت ببعض الرضا. وخطر لي أن زوجتي يجب أن تسرّ لهذا، لقد كانت تتمنى لي دوماً أن أجرح، الأمر الذي ينقذني من القتل عند دنوّ المعركة الكبرى. وفي هذه اللحظة فقط بدأت أتساءل ترى أين أصبت، ومدى سوء الإصابة. لم أكن أشعر بشيء، لكنني كنت واعياً بأن الرصاصة ضربتني في مكان ما في مقدمة الجسم. وحين حاولت الكلام وجدت أنني لاأستطيع أن أصدر صوتاً، بعض الفحيح فقط، لكن في المحاولة الثانية تمكنت من السؤال أين أصبت. قالوا: في الحلق. وكان هاري ويب، رجل المحفة عندنا قد أخرج بعض الضمادات وقنينارورة صغيرة من الكحول كانوا يعطوننا إياها للتضميد في الميدان. وحين رفعوني نزف كثير من الدم من فمي، وسمعت أحد الإسبان من ورائي يقول إن الرصاصة نفذت من خلال عنقي. وشعرت بالكحول الذي يلسع في الأحوال العادية كالنار، ينصب في جرحي برداً وسلاماً.

وضعوني على الأرض ثانية إلى أن يحضر بعضهم المحفة. وما إن علمت أن الرصاصة قد نفذت من عنقي حتى سلّمت بأنه قضي عليّ. لم أسمع بإنسان أو حيوان تصيبه الرصاصة في منتصف عنقه ويعيش بعدها. كان الدم يتقاطر من فمي.

فقلت في نفسي «انقطع الشريان». وتساءلت ترى كم يبقى الواحد حياً بعد قطع الشريان في عنقه؟؛ دقائق ليست بالطويلة. كل شيء كان ملفوفاً بالضباب. أظن أنه مرت دقيقتان اقتنعت فيهما أنني قتلت وانتهيت. وهذا بالذات مثير للاهتمام - أعني أن من المهم أن تعرف ماذا يخطر لك في مثل ذلك الوقت. أول ماخطر ببالي، كما هو المتوقع، زوجتي. والثاني كان الأسى على مغادرة هذا العالم، الذي مهما قلنا عنه وفعلنا، كان يناسبني تماماً. لقد كان عندي من الوقت ما أفكر فيه بهذا بوضوح وتروٍ. كما أن تلك المصادفة المنحوسة أثارت حنقي الشديد. كانت لامعنى لها! أن تُضحَّ بعيداً، وبدون معركة محتدمة، بل في هذه الزاوية الراكدة من الخنادق، والفضل للحظةٍ من الإهمال! وخطر لي أيضاً الرجل الذي أطلق النار عليّ - وتساءلت ماشكلُه، هل كان إسبانياً أم أجنبياً، وما إذا كان عرف بأنه أصابني أم لا. وما إلى ذلك. لم أشعر بأي حقد عليه. كان شعوري أنه، كفاشيّ، كان عرضة بدوره أن أقتله أنا لو استطعت، وأنه لو أُخِذ أسيراً وأُحضِر إليّ الآن لهنأته على دقة تصويبه. مهما يكن الأمر، يحتمل أن تكون الأفكار إذا كنت ستموت فعلاً مختلفة عن هذه تماماً.

ما إن وضعوني على المحفة حتى عادت الحياة إلى ذراعي المشلولة، وبدأت تؤلمني آلاماً مبرحة. حينئذ ظننت أنها كسرت أثناء سقوطي. لكن الألم أعاد الطمأنينة إلى نفسي، فقد كنت أعلم أن المرء في حالة النزع يفقد إحساسه بالألم. فبدأت أعود إلى طبيعتي، وأرثي لحال الشياطين الأربعة الذين كانوا ينضحون عرقاً وهم يحملون المحفة على أكتافهم. كانت المسافة ميلاً ونصف الميل إلى عربة الإسعاف في طريق وعِر زلق. كنت أعلم كم هي شاقة، فقد ساعدتُ في حمل جريح قبل عدة أيام. واحتكّت بوجهي أوراق أشجار الحور الفضية التي تحفّ بخنادقنا؛ فسررت في نفسي لبقائي حياً في عالم تنبت فيه أشجار الحور الفضية. لكن الألم

المريع في ذراعي لم يفارقني. مما جعلني أتأوّه وأشتُم ثم أحاول ألاّ أشتُم لأنني كلما أخذت نفَساً عميقاً خرجت الدماء من فمي.

أعاد الطبيب تضميد الجرح، وأعطاني حقنة مخدرة، وأرسلني إلى سييتامو. كانت مستشفيات سييتامو أكواخاً خشبية أقيمت على عجل، إذ لايبقى المرضى في العادة أكثر من عدة ساعات قبل أنْ يُخلوا إلى بارباسترو أو ليريدا. كنت مخدراً بالمورفيا لكنني مع هذا أحس بالألم الشديد، والعجز عن القيام بأية حركة، ابتلع الدماء باستمرار. وأنا في هذه الحال، وتمشياً مع طرائق المستشفيات الإسبانية المتبعة، حاولت ممرضة تحت التمرين أن تحشو جوفي بالوجبة التي تنص عليها أنظمة المستشفى - وهي وجبة كبيرة من الحساء، والبيض، واليخنة الدسمة، وماشابه ذلك - تحشرها في حلقي وتبدو عليها الدهشة حين كنت أقاوم وأرفض تناولها. طلبت سيجارة، لكنها كانت من اللحظات التي عزّ فيها التبغ فلم يكن في المكان كله سيجارة. ثم حضر رفيقان أخذا إذناً بمغادرة الخطوط لعدة ساعات ووقفا إلى جانب سريري:

"مرحباً، أنت حي، ألست كذلك؟ طيّب. نريد ساعتك ومسدسك والضوء النقال. وسكينك أيضاً، إذا كان لديك واحدة".

وذهبا بكل أغراضي المحمولة. كان هذا يحدث دائماً حين يصاب أحدهم - يجري اقتسام ما لديه من حوائج، وهو الواجب، لأن الساعات والمسدسات، وما شابه كانت أغراضاً عزيزة على الجبهة فإذا نزلت من الخطوط في جيوب الجرحى فلا شك في أنها ستسرق في مكان ما على الطريق.

وبحلول المساء كان قد وصل من الجرحى والمرضى مايكفي لوسْق عدة عربات إسعاف. فأرسلونا إلى بارباسترو. ويالها من رحلة! كان يقال إنه في هذه الحرب قد تنجو إذا جرحت في الأطراف، وتموت لامحالة إذا كان جرحك في البطن. وقد

عرفت السبب الآن. محالٌ أن ينجو الشخص المعرَّض للنزيف الداخلي من تلك الأميال من الهزّ والخضخضة على تلك الطرقات الوعرة التي حفّرتها الشاحنات الثقيلة ولم يجر إصلاحها منذ بداية الحرب. بانج، بمب، الميَلان والاهتزاز والقذف والإلقاء والدفع! أعادتني إلى عهد الطفولة، إلى الشيء الرهيب الذي كان أحد القلاّبات المخصوصة للألعاب في المعرض في المدينة. لقد نسي المسعفون تربيطنا في محفّاتنا. فأما أنا فكان لديّ من القوة الباقية في ذراعي اليسرى تكفي للاستناد والتشبث، لكن أحد الأشقياء الذين كانوا منقولين معي تدحرج إلى الأرض وعانى ماشاء الله أن يعاني من الآلام. وآخر لايزيد عن صندوق سيار كان يجلس في زاوية العربة ملأ المكان بقيْئه.

كان المشفى في بارباسترو يغص بالجرحى، والأسرَّة من القرب بحيث تبدو متلاصقة. وفي الصباح التالي شحنوا عدداً منا في القطار الذاهب نزولاً إلى ليريدا.

قضيت خمسة أو ستة أيام في ليريدا. كان المستشفى كبيراً، حيث المرضى والجرحى، والمدنيون محشورون معاً. كان بعض الرجال في مهجعي مصابين بجروح مريعة. ففي السرير المحاذي إلى يميني كان فتى في مقتبل العمر بشعر فاحم مصاب بداء لست أدري ماهو، ويعطى من الأدوية ماجعل بوْله يخرج أخضر بلون الزمرّد. كانت قارورة بوله إحدى معالم المهجع. وقد سمع أحد الشيوعين الهولنديين الذين يعرفون الإنجليزية بوجودي في المستشفى فكان يزودني بالجرائد الإنجليزية. لقد جُرح جرحاً بليغاً في قتال أكتوبر، ثم تمكن بطريقة ما من الاستقرار في مستشفى ليريدا وتزوج بإحدى المرضات. وقد انكمشت إحدى رجليه فأصبحت بغلظ ذراعي.

وجاء في إجازة اثنان من رجال الميليشيا كنت عرفتهما في الأسبوع الأول من قُدومي إلى الجبهة، يعودان صديقاً جريحاً فعرفاني. كانا فتيين في حوالي الثامنة عشرة. وقفا مطرِقين إلى جانب سريري، محاولَين الخروج بشيء يقولانه، وفجأة قاما

بعمل يعبران به عن أسفهما لمصابي، فأخرجا كل مافي جيوبهما من التبغ، وأعطوني إياه، وغادرا قبل أن أرفضه وأعيده. إنه تصرف إسباني نموذجي، فقد علمت بعدئذ أنك لاتستطيع الحصول على التبغ مهما حاولت في المدينة، وأن ما أعطياني إياه كان حصتهما لأسبوع!

بعد بضعة أيام أصبحت قادراً على النهوض والتمشّي وذراعي في قلادة. فلسبب ما كانت تؤلمني أشد وهي مدلاةٌ مُرخاة. كما كنت في ذلك الحين أعاني آلاماً داخلية من الأذى الذي سبّبه سقوطي عند إصابتي؛ وصوتي قد اختفى بالكلية تقريباً. لكنني لم أحس بالألم ولو للحظة من الجرح بالذات! ويبدو أن هذا هو الطبيعي المألوف. فالصدمة الهائلة للطلقة تلغي الإحساس في الموضع؛ أما شظايا القنابل والرمانات، فلأنها مشظّاة وشائكة، وتضربك بسرعة وقوة أقل من الرصاصة، فربما آلمتك في الموضع كالشيطان. وكان حول المستشفى حديقة يانعة، فيها بركة ماء تحتوي على السمك الذهبي وسمك صغير لونه رمادي غامق – أو أسود على ما أظن. وقد اعتدت أن أجلس أراقبها لساعات.

مجريات الأمور في مشفى ليريدا أعطتني فكرة عن نظام المستشفيات في جبهة الأرّاجون – ولا أعلم إن كان هذا ينطبق على غيرها من الجبهات. المستشفيات جيدة جداً في كثير من النواحي. والأطباء كانوا مهرة قادرين، ولم يكن ثمة نقص في الأدوية ولا في التجهيزات. لكن اثنين من نواحي التقصير، كانا سببا في موت الآلاف الذين كان يمكن إنقاذهم. أولهما أن كل المستشفيات القريبة من الجبهة كانت تستعمل كمحطات لإخلاء الإصابات. والنتيجة أنه لاينال أحد علاجاً هناك إلا البالغي الجراح الذين لاتسمح حالتهم بنقلهم. نظرياً كان يُرسل معظم الجرحى إلى برشلونة أو تارّاجونا، لكن بالنظر للنقص في وسائل النقل كانوا يقضون من الأسبوع إلى العشرة أيام على الطريق. كان يُلقى بهم في سييتامو، أو بارباسترو، أو مونزون، أو ليريدا؛ أو غيرها من الأماكن، حيث لاينالون أي معالجة إلا التغيير على الجروح أحياناً بضمادات نظيفة، وأحياناً لاينالون حتى هذا. والرجال المصابون بجروح بالغة من القنابل، بعظام مهشمة، وما إلى ذلك كانوا يلفّون بعصابات مصنوعة من الضمادات

المغطاة بالجبصين الباريسي، يكتب وصف الجرح بأقلام الرصاص على وجهها الخارجي، والقاعدة أن هذه الجبيرة لاتُزال إلا عند وصول الرجل إلى برشلونة أو تارّاجونا بعد عشرة أيام. ومن شبه المستحيل أن يحصل المرء على معاينة جرحه في الطريق. فالأطباء القلّة هناك ينوؤون تحت ضغط العمل، فيمرّون مسرعين من جانب سريرك، قائلين: 'نعم، نعم، سوف تنال الرعاية الكاملة في برشلونة'. وكانت الإشاعات دائماً على أن قطاراً للجرحى سوف يغادر إلى برشلونة في المانيانا mañana [غداً!]. أما التقصير الثاني فكان النقص في المرضات المؤهلات. والظاهر أنه لم يكن هناك من تزويد مستمر بخريجات التمريض المدربات. وربما لأن هذا العمل كان يقوم به قبل الحرب الراهبات. ليس لديّ من شكوى ضد المرضات الإسبانيات، فقد عاملنني دائماً بمنتهى اللطف والرعاية. لكن لاشك أنهن كنّ في منتهى الجهل. نعم كان الكل يعرفن كيف يأخذن درجة الحرارة، وبعضهن كان يعرف كيف يُربط الضماد، لكن هذا تقريباً هو كل شيء. والنتيجة هي أن الرجال الذين بلغوا من المرض حداً يمنعهم من صيانة أنفسهم بأنفسهم، كانوا يهملون إلى درجة مخجلة. كانت المرضات يتركن الرجل مصاباً بالإمساك لأكثر من أسبوع، وهن نادراً ماساعدن في غسيل الذين يعجزون عن الاغتسال بأنفسهم. أذكر أن أحد الأشقياء بذراع مهشمة أخبرني أنه ظل أسبوعاً لايستطيع غسل وجهه. وحتى الأسرّة كانت تظل بلا ترتيب عدة أيام. أما الطعام فكان في المستشفيات كلها جيداً – بل أجود مما يجب. إنه في إسبانيا أجود مما هو في غيرها، ويبدو أن التقاليد تقضي بحشو الناس بالطعام الفخم الثقيل. ففي ليريدا كان الطعام رائعاً. الفطور في حوالي السادسة صباحاً. كان يتألف من الحساء والعجّة، واليخنة، والخبز، والنبيذ الأبيض، والقهوة. أما الغداء فكان أعظم – وهذا في عهدٍ كان الأهالي المدنيون يعانون من قلة الغذاء. يبدو أن الإسبان لم يسمعوا بشيء اسمه الوجبة الخفيفة. فهم يقدمون الطعام ذاته للمرضى وللأصحاء – دائماً الطبيخ الغني الدسم، وكل شيء مغرق في زيت الزيتون.

ذات صباح أُعلن أن الرجال في مهجعي سيجري إرسالهم اليوم إلى برشلونة. وتمكنت من إرسال برقية لزوجتي أُعلمها فيه بأنني قادم. وفوراً وضعونا في الباصات ونزلوا بنا إلى المحطة. ولم يحدث إلا قبيل تحرك القطار من المحطة أن ذكر مندوب المستشفى المرافق لنا، عرضاً، بأن برشلونة ليست مقصدنا أخيراً، بل هي تارّاجونا. وأظن أن سائق القطار هو الذي غيّر رأيه. فقلت في نفسي: "إنها إسبانيا!". وكان إسبانيٌّ الطابَع أيضاً أنهم وافقوا على إيقاف القطار كي أتمكن من إرسال برقية أخرى، والأكثر إسبانيةً أن تلك البرقية لم تصل إطلاقاً.

وضعونا في عربات عادية من عربات الدرجة الثالثة بمقاعد خشبية، كان الكثير من الرجال بجروح بليغة وقد غادروا السرير للمرة الأولى ذلك الصباح. وقبل مضي وقت طويل من الرجرجة والاهتزاز انهاروا وتقيأ عدد منهم على الأرضية. وكان مندوب المستشفى يشق طريقه بين تلك الأجساد الملقاة كالجثث في كل مكان، حاملاً قربة ماء من جلد الماعز، كان يعتصر الماء منها في هذا الفم أو ذاك؛ كان ماء رديئاً مازال طعمه في فمي حتى الآن.

ودخلنا تارّاجونا قبيل مغيب الشمس. كان الخط يساير الشاطئ على مرمى حجر من البحر. ومع اقتراب قطارنا من المحطة كان قطار عسكري آخر مليء بالرجال من الفيلق الدولي يغادر المحطة، وجمهرة من الناس على الجسر تلوِّح لهم. كان قطاراً طويلاً، مليئاً لأقصى سعته بالجنود، ومدافع الميدان مربوطة على شاحناتها المكشوفة، والمزيد من الرجال متحلقين حول المدافع. أذكر بوضوح عجيب صورة ذلك القطار يمر في ضوء الغسق الشاحب؛ نافذة تتلو نافذة، كلها مليئة بالوجوه السمراء الضاحكة، ومواسير البنادق الطويلة المدلاة، ولفحات الرقبة القرمزية المرفرفة – كل هذا ينزلق ببطء ويمر من أمامي على خلفية البحر الأزرق اللازوردي.

قال أحدهم: " Extranjeros – أي أجانب؛ إنهم طليان".

واضح تماماً أنهم كانوا إيطاليين. فليس من شعب آخر يستطيع تجميع أفراده على مثل هذه الصورة البهيّة، أو يرد على تحيات الجماهير بهذه الرشاقة واللطف – لطف من بعض أسبابه أن نصف عدد الشباب على القطار كان يعب الشراب من قوارير النبيذ المقلوبة. ولقد علمنا بعدئذ أنهم كانوا من الجيوش التي حققت النصر العظيم في جوادا لاخارا في مارس الماضي، فنالوا إجازة وهم الآن ينقلون إلى جبهة الأرّاجون. أخشى أن يكون معظمهم قد قتل على مشارف هويسكا بعد بضعة أسابيع فقط. في عربتنا تجمع الرجال القادرون على الحركة على نوافذ العربة لتحية الطليان وهم يمرون من أمامهم. العكاكيز تلوّح من النوافذ، والأذرع بضماداتها تؤدي "التحية الحمراء". لقد كان المنظر كأنه منظر رمزي مصطنع لتصوير الحرب؛ قطار مليء بالرجال الأصحاء يغادرون فخورين إلى الجبهة، وقطار المعطوبين العجزة ينزلق ببطء قادماً بحمولته، وطوال الوقت تمر المدافع على عرباتها المكشوفة فيجعل مرآها القلوب تخفق بين الأضلاع كما هو شأنها دائماً، ويوقظ في النفس ذلك الشعور الذي يدفع إلى الهلاك، وهو أن الحروب، رغم كل شيء، مَجيدة.

كان المستشفى في تارّاجونا كبيراً جداً ومليئاً بالجرحى من جميع الجبهات. وياللجراح التي يشاهدها المرء هناك!. لقد كانوا يتبعون في المعالجة طريقة لا أشك في أنها تتمشى مع أحدث فنون الجراحة. لكنها كانت رهيبة عند النظر إليها. وهي أنهم يدعون الجرح مكشوفاً تماماً وغير مضمد، ويحمونه من الذباب بشبكة من الشاش الموسلين الشفاف الممدود على هيكل سلكي. وتحت الشاش ترى الجيلاتين المحمر للجرح نصف الملتئم. كان هناك رجل مجروح في الوجه والحلق ورأسه موضوع

في خوذة كروية من الموسلين الشفاف، وقد كمموا فمه وجعلوه يتنفس من خلال أنبوب محشور بين شفتيه. ياللشيطان البائس، كان يبدو وحيداً، يذرع المستشفى جيئة وذهاباً، ينظر إليك من خلال قفصه القماشي ولا يتمكن من التلفظ بكلمة.

مضى عليّ ثلاثة أو أربعة أيام في تارّاجونا. كانت قواي تعود شيئاً فشيئاً، بحيث أنني تمكنت ذات يوم، بالمشي البطيء المتمهل، أن أصل إلى الشاطئ. وكان من العجيب رؤية الحياة على طرف البحر تسير كالمعتاد تقريباً؛ المقاهي الأنيقة على طول الممشى، والبورجوازية المحلية المليئة تستحم وتتشمّس على الكراسي القماشية كأن لم يكن حرب قائمة ولا على بعد ألف ميل. وبالرغم من هذا شهدت واحداً يشارف الغرق بالرغم من أن المرء يظن أن هذا من المستحيل في مثل هذا البحر الضحل الهادئ.

أخيراً، وبعد ثمانية أو تسعة أيام من مغادرتي الجبهة، بدأ فحص جرحي. وفي العيادة الجراحية التي يجري فيها فحص القادمين حديثاً من المصابين، كان الأطباء بمقصاتهم الضخمة يقطعون الألواح الجصية من على صدور المصابين بكسور في الأضلاع أو في عظام الترقوة، وغيرها مما يشبه الصناديق عبأتهم بها محطات التضميد وراء الخطوط؛ وفيها مايشبه الثغرة من فوق، تطِلّ منها رقاب عليها وجوه شاحبة قلقة مترقبة تعلوها القذارة ولحية عمرها أسبوع. الطبيب النشيط الوسيم، في حوالي الثلاثين، جلس على كرسي مقابل وأمسك بلساني بواسطة منديل من الشاش الخشن، وشَدّه بقدر مايستطيع، وأدخل مرآة طبيب الأسنان في حلقي، وطلب مني أن أقول "آه"، وبعد أن فعلت هذا إلى أن أخذ لساني بالنزيف، وعيناي بالتدميع، أخبرني بأن أحد الحبال الصوتية مشلول.

قلت له: "ومتى يعود إليّ صوتي؟"

فأجاب بمرح: "صوتك؟ آ، لن يعود صوتك أبداً".

لكنه كان مخطئاً، كما تبين فيما بعد. ظللت أسبوعين تقريباً لاأستطيع التكلم إلا بما يشبه الهمس، ثم بعد هذا أصبح صوتي طبيعياً فجأة، وقد "عوّض" عنه الحبل الصوتي الآخر. أما الألم في ذراعي فقد كان يعود إلى أن الرصاصة ضربت حزمة أعصاب في مؤخرة العنق. كان الألم صاعقاً مثل النقز، ودام حوالي الشهر، خصوصاً في الليل بحيث لم أنم إلا قليلاً. وكانت أصابع يدي اليمنى شبه مشلولة. وحتى الآن، بعد خمسة أشهر من الحادثة، مازال الخدر في أصابعي - وهي نتيجة غريبة لجرح في العنق.

كان جرحي طرفة صغيرة عجيبة، وقد فحصه أطباء مختلفون، بكثير من الفرقعة باللسان مع قولهم: 'Que suerte! 'Que suerte!. وقد أخبرني أحدهم بلهجة السلطة العارفة أن الرصاصة قد مرت قريبة من الشريان بما لايزيد عن ميليمتر واحد.ولست أدري كيف قاسها. كما أن كل من قابلت في المستشفى، الأطباء والممرضات والفنيون، وحتى الزملاء المرضى - أكدوا لي أن الرجل الذي يصاب في العنق ثم ينجو لاشك في أنه أكبر محظوظ على قيد الحياة. ولاأستطيع إلا الظن بأنه كان يبدو صاحب حظ أكبر لو لم يُصب بالأساس.

١٣
الاستشفاء في برشلونة

في برشلونة، وطوال تلك الأسابيع الأخيرة التي قضيت هناك، ساد شعور بأن هناك شيئاً مَقيتاً غريباً في الجو - جو من الشك والخوف والتردد والكراهية المغطاة. لقد خلّف قتال مايو وراءه عواقب يصعب محوها. ومع سقوط حكومة كاباييرو أصبح الحكم بيد الشيوعيين على المكشوف، وتسلم الوزراء الشيوعيون مهمة ضبط الأمور في الداخل، ولم يخالج أحداً شيء من الريبة بأنهم سيقضون على خصومهم السياسيين حالما تسنح لهم ولو ربع فرصة. لم يكن يحدث شيء حتى ذلك الوقت، وأنا بالذات لم يكن في ذهني حتى صورة خيالية لما كان مقدّراً أن يحدث؛ لكن ظل مخيّماً ذلك الجو من الإحساس بالخطر، الإدراك الواضح بأن شيئاً سيئاً وشيك الحدوث. ومهما كنت بعيداً عن الكيد والتآمر، أجبرك الجو على الشعور بأنك متآمر. تشعر بأنك تقضي الوقت كله في المحادثات الهامسة، في زوايا المقاهي، متسائلاً عما إذا كان ذلك الجالس إلى الطاولة المجاورة من جواسيس البوليس.

الشائعات المضللة من جميع الأنواع كانت تسري بسهولة والفضل للرقابة على الصحف. إحداها كانت أن حكومة نيجرين-بربيتو تخطط لتعطيل الحرب. حينئذ كنت أميل إلى التصديق لأن الفاشيين كانوا يُحكمون الطوق على بيلباو، ولم تكن الحكومة تقوم بأية إجراءات ملموسة لإنقاذها. وقد رفعت أعلام الباسك في جميع أنحاء المدينة، والبنات تهز صناديق التبرعات في المقاهي، وأذيعت البيانات المعتادة عن "المقاومين الأبطال"، لكن أهالي الباسك لم تصلهم أية معونة حقيقية. كل هذا يغري المرء بتصديق أن الحكومة تلعب لعبة مزدوجة. وقد أثبتت الأحداث اللاحقة

أنني كنت على خطأٍ هنا. لكن كان يبدو أن بيلباو كان يمكن إنقاذها لو بذل المزيد من الجهد. فهجوم على جبهة الأراغون، حتى ولو كان فاشلاً، كان يجبر فرانكو على تحويل قسم من جيشه؛ الذي حدث أن الحكومة لم تبدأ أي هجوم إلا بعد فوات الأوان - بل بعد سقوط بيلباو. وكانت اتحاد نقابات الـc.n.t [الأناركي] يوزع مناشير بأعداد كبيرة يعلن فيها "كونوا على حذر"، ويلمح فيها بأن "حزباً معيناً" (ويعني الشيوعيين) كان يخطط لقلب النظام. كما انتشر أيضاً خوف شديد من أن كاتالونيا كانت عرضة للغزو. وقد كنت لاحظت في وقت سابق، في طريق عودتنا إلى الجبهة، دفاعات قوية يجري إنشاؤها على بعد عشرات الأميال وراء الخطوط الأمامية. وكانت تُحفر ملاجئ منيعة ضد القنابل في كل أنحاء برشلونة. وكانت تصدر إنذارات متكررة بالغارات الجوية والبحرية، وكان أكثرها زائفاً، لكن في كل مرة انطلقت فيها الصافرات أطفئت الأنوار في جميع أنحاء المدينة لساعات، وهرع المذعورون من الناس إلى الأقبية. جواسيس البوليس كانوا في كل مكان، والسجون لازالت تغص بنزلائها الباقين من معارك مايو، يضاف إليهم غيرهم - وهم دائماً طبعاً أناركيون أو أعضاء في الـp.o.u.m - كانوا يختفون في السجون فرادى وأزواجاً. وبقدر مايستطيع المرء التقصّي لم يجر محاكمة أي منهم، بل ولا توجيه اتهام له. حتى ولا (بالتروتسكية)؛ فأنت تؤخذ ببساطة، ويُلقى بك هناك، وتظل هناك. مع منع الاتصال بالخارج عادة. كان بوب سميلّي مايزال في السجن في فالنسيا. ولم نستطع أن نعرف عنه شيئاً آخر إلا أن ممثل الحركة العمالية البريطانية .i.l.p في المنطقة . ومعه المحامي الذي وكّل في القضية عجزا عن رؤيته. وكان الأجانب من الفيلق الدولي وغيره من الميليشيات يعتقلون بأعداد متزايدة. والذريعة المعتادة هي الفرار من الخدمة. فالوضع العام لم يدع أحداً يقرر بالتأكيد أن رجل الميليشيا يْعد متطوعاً أم جندياً نظامياً. قبل عدة شهور كان كل من يسجل في الميليشيا يْبلغ بأنه متطوع. وأنه يستطيع إذا أراد أن يأخذ أوراق تسريحه متى يشاء

لرحيله. ويبدو أن الحكومة قد غيرت رأيها. وأصبحت تعد رجل الميليشيا جندياً نظامياً، وتعده فرارياً إذا حاول العودة إلى وطنه. لكن حتى هذا لم يكن أحد متأكداً منه. ففي بعض أنحاء الجبهة ماتزال السلطات تُمضي التسريحات. وعند الحدود يعترفون بهذا أحياناً، وأحياناً يرفضون؛ وعند الرفض تجد نفسك ملقى في السجن فوراً. وبعد قليل نما عدد "الفِراريين" الأجانب في السجون إلى المئات، لكن الكثير منهم رحّلوا إلى بلادهم عند صدور الاحتجاجات عنها .

كانت دوريات حرس المداهمة تغطي كل الشوارع، والحرس الوطني مازال يسيطر على المقاهي وغيرها من المباني في المناطق الاستراتيجية. وكثير من مباني الـ p.s.u.c [شيوعية] مازالت محمية بأكياس الرمل والمتاريس. وفي نقاط مختلفة من المدينة كان الحرس الوطني أو رجال الدرك يوقفون المارة ويطلبون أوراقهم. حذرني الجميع من إظهار بطاقة الانتساب إلى ميليشيات الـp.o.u.m بل إظهار جواز سفري فقط، وبطاقة المستشفى. فحتى معرفة كونك خدمت في ميليشيات الـ p.o.u.m. كان في حد ذاته خطراً غامضاً. وقد عوقب رجال ميليشيات الـ p.o.u.m. الذين كانوا جرحى أو في إجازة بطرق تافهة مثل تصعيب حصولهم على رواتبهم. جريدتهم La Batalla ظلت تصدر لكنها كانت تخضع للمراقبة بحيث كادت تتوقف، وكذلك Solidaridad وغيرها من جرائد الأناركيين. وقد صدرت تعليمات جديدة تقضي بأن لاتترُك الجرائد مساحات بيضاء بدلاً مما حذفته الرقابة بل تملؤه بمواد أخرى، ونتيجة لهذا أصبح يصعب معرفة ماإذا كان ثمة ماقطع من الجريدة.

النقص في الأغذية، الذي كان يتذبذب طوال الحرب، كان في إحدى أسوأ مراحله. الخبز كان نادراً، والأنواع الرخيصة منه كانت تُشاب بالأرز؛ وماكان يوزع على الجنود في الثكنات كان رديئاً ومعجّناً. كذلك كان الحليب والسكر. أما التبغ

فكان شبه مفقود تماماً، لولا الأنواع الباهظة الثمن المهربة من السجائر الأجنبية. حتى زيت الزيتون كان فيه نقص فادح مع أن الإسبان يستعملونه في أغراض كثيرة. وصفوف الدور التي كانت تقف فيها النساء الإسبانيات كان يحفظ فيها النظام الحرس الوطني الخيّال على مطاياهم، وكانوا أحياناً يتسلون بإرجاع خيولهم حتى تتخلل الصفوف وتدهس أصابع أقدام النساء. أصغر المصائب في ذلك الوقت كان النقص في النقود الصغيرة الفكة. فقد سُحبت النقود الفضية من التداول ولم تستبدل بمصكوكات جديدة، فلم يكن هناك عملة بين قطعة السنتيمين وبين ورقة البيزيتين ونصف، والأوراق التي تقل قيمتها عن عشر بيزيتات كانت قليلة.* وعند الأفقر من الأهالي كان هذا يزيد من أزمة الطعام. فالمرأة التي لاتحمل إلا ورقة بعشر بيزيتات قد تقف في الصف ساعات خارج البقالية ثم لاتستطيع شراء شيء لأن البقال ليس عنده نقود صغيرة وهي لاتستطيع الشراء بكل مامعها.

ليس من السهل التعبير عن الجو الكابوسي لتلك الأيام – والقلق الذي تسببه الإشاعات السارية الدائبة التغير والتناقض، والمراقبة على الصحافة، والوجود الدائم للمسلحين في كل مكان. ليس من السهل التعبير عنه لأن الشيء الأساسي لمثل هذا الجو ليس موجوداً حالياً في إنجلترا. في إنجلترا ليس التعصب السياسي سائداً، حتى الآن. وثمة بعض الاضطهاد السياسي المحدود، ولو كنتُ عامل منجم فلا أبالي إذا عرف معلمي بأنني شيوعي؛ و"الحزبي الجيد" البوق المتعصب للسياسة الواردة من وراء الحدود في القارة مايزال نادراً، وفكرة "تصفية" كل من يخالفك أو "حذفه" ماتزال تعتبر غير طبيعية. وقد كانت تبدو طبيعية تماماً في برشلونة. كان الستالينيون يمسكون بمقاليد الأمور، وعلى هذا كان من الطبيعي تماماً أن كل "تروتسكي" كان في خطر. لكن الشيء الذي كان يخشاه الجميع هو الشيء الذي لم يحصل – وهو اندلاع

---

* كانت القيمة الشرائية للبيزيتا حوالي أربع بنسات المؤلف

جديد للقتال في الشوارع، والذي لو حصل لأُلقي اللوم فيه على الـp.o.u.m وعلى الأناركيين. لقد مرت أوقات أخذت فيه أذناي تترقبان سماع أوائل الطلقات. كأن عقلاً مدبراً شريراً يخيم على المدينة. والعجيب أن الجميع كانوا يعبرون عنه بنفس الكلمات تقريباً: "الجو في هذا المكان رهيب. كالوجود في مستشفى المجانين". لكن ربما لم يكن عليّ التعميم بقولي "الجميع". بعض الزوار الإنجليز الذين تجولوا في إسبانيا جولات قصيرة من فندق إلى فندق، يبدو أنهم فاتهم ملاحظة أي شيء غير عادي في الجو العام. فقد لاحظت أن دوقة آتول تكتب في السندي إكسبريس، ١٧، أكتوبر ١٩٣٧:

لقد زرت فالنسيا ومدريد وبرشلونة ... النظام والأمن مستتبان في المدن الثلاث، وليس من إظهار للقوة. وكل الفنادق التي حللت فيها لم تكن فقط "طبيعية" و"محترمة" بل ومريحة أيضاً. بالرغم من النقص في الزبدة والقهوة.

العجيب في الرحالة الإنجليز أنهم لايعتقدون بوجود شيء يختلف في الخارج عما هو عليه داخل فنادقهم الفخمة. أرجو أن يكونوا تدبّروا بعض الزبدة لدوقة آتول.

كنت في مصحة مورين، إحدى المصحات التابعة لمنظمة الـp.o.u.m . وكانت في إحدى الضواحي بالقرب من جبل تيبيدابو، وهو الجبل ذو الشكل الغريب الذي يرتفع رأسياً فوق برشلونة، والذي يفترض أنه كان الموقع الذي عرض فيه الشيطان على السيد المسيح كل أقطار الأرض (ومن هنا تسميته). كانت الدار سابقاً ملكاً لأحد الأغنياء البورجوازيين صودرتْ بعد الثورة. وكان معظم النزلاء هناك رجالاً مقعدين من خطوط القتال، أو من الجرحى الذين يعتبر جرحهم إعاقة دائمة - أطراف مبتورة، وما إلى ذلك. وكان هناك عدة أفراد من الإنجليز: ويليامز بساق معطوبة، وستافّورد كوتمان، وهو فتى في الثامنة عشرة، أعيد من الخنادق للاشتباه

بإصابته بالسل، وآرثر كلينتون، الذي مازالت ذراعه اليسرى المحطمة مربوطة بتلك التركيبة السلكية الضخمة من اختراع المستشفيات الإسبانية، التي أعطته لقب الطيارة. مازالت زوجتي تقيم في فندق الكونتيننتال، وكنت في العادة أقضي النهار في برشلونة. في الصباح أحضر إلى المستشفى العمومي لأخذ العلاج الكهربائي لذراعي. وكان عملاً غريباً - سلسلة من الصدمات الكهربائية الواخزة التي تجعل كل العضلات تهتز صعوداً وهبوطاً - لكن يبدو أنها كان لها أثرها الشافي؛ عادت قدرتي على استعمال أصابع يدي، وخفّت الآلام شيئاً ما. وقد قررنا أن خير مانقوم به أن نعود إلى إنجلترا بأسرع مانستطيع. كنت في أقصى حالات الضعف، وقد اختفى صوتي، وفي ظننا أنه لن يعود، وقد أخبرني الأطباء أنني في أحسن الأحوال لن أكون قادراً على العودة إلى القتال قبل عدة شهور. كان عليّ أن أبحث عن عمل أرتزق منه عاجلاً أم آجلاً، ولم يكن ثمة مبرر للبقاء في إسبانيا واستهلاك بعض الطعام الذي يحتاجه الآخرون. لكن معظم دوافعي كانت أنانية أصلاً. لقد أصبح لديّ رغبة قوية بالخروج من هذا الأمر بالكلية؛ بعيداً عن الجو الرهيب من الارتياب والحقد السياسيين ومن الشوارع يذرعها المسلحون، ومن الغارات الجوية ، والخنادق، وحافلات الترام وصريرها، والشاي بدون الحليب، والطبخ بالزيت، والافتقار إلى السجائر -من كل شيء اعتدت على ربطه بإسبانيا.

شهد أطباء المستشفى العمومي على أنني غير لائق طبياً، لكن تسريحي كان يتطلب أن أمثل أمام لجنة طبية في أحد المستشفيات القريبة من الجبهة، ثم أذهب إلى سييتامو لتوقيع أوراقي وختمها في مقر قيادة ميليشيات الـp.o.u.m . وقد عاد كوب من الجبهة، مبتهجاً سعيداً. لقد حضر بعض العمليات الحربية الجادة، وقال إن هويسكا على وشك السقوط أخيراً. وقد أحضرت الحكومة بعض جيوشها من جبهة مدريد وركزت ثلاثين ألف جندي ، مع الطائرات بأعداد كبيرة. وقد هاجم الإيطاليون الذين رأيتهم في القطار الصاعد من تارّاجونا طريق جاكا لكنهم تكبدوا

إصابات ثقيلة وخسروا دبابتين. لكن المدينة لن تصمد طويلاً، هذا ماقاله كوب. (والحق أنها، مع الأسف، لم تسقط. وكان الهجوم فاشلاً ولم ينتج عنه إلا حفلة من الأكاذَيب في الصحافة.) كان على كوب أن ينزل إلى فالنسيا لإجراء مقابلة في وزارة الحربية. وكان يحمل رسالة من الجنرال بوزاس، قائد جيش الشرق حينئذ. تصف كوب بأنه "شخص موثوق" وتوصي بتعيينه خاصة في قسم الهندسة (كان كوب مهندساً في الحياة المدنية). وقد غادر إلى فالنسيا في نفس اليوم الذي غادرت فيه إلى سييتامو – ١٥ يونيو.

قضيت خارج برشلونة خمسة أيام. وصلت حمولة شاحنة منا إلى سييتامو عند منتصف الليل، وما إن نزلنا في مقر قيادة الـp.o.u.m حتى رتّبونا في الصف وبدأوا يناولوننا البنادق والذخيرة، حتى قبل أن يأخذوا أسماءنا. يبدو أن الهجوم كان ابتدأ وأن طلب الاحتياطي قد يأتي في أية لحظة. كانت بطاقة المستشفى في جيبي، لكنني لم أجد من المناسب رفض الذهاب مع الآخرين. اضطجعت على الأرض جاعلاً مخدتي صندوق ذخيرة، ومزاجي في أعمق حالات البؤس. فكوني جريحاً قد أثر على أعصابي– وأظن أن هذا يحدث كثيراً – وتوقع وجودي تحت النار أثار فيّ الخوف الذي ماعليه من مزيد. مهما يكن الأمر فقد جاء التأجيل إلى المانيانا mañana [غداً]، كالعادة . ولم يطلبنا أحد بعد كل الاستعدادات، وفي الصباح التالي أبرزتُ بطاقة المستشفى وبدأت ألاحق تسريحي. وهذا اقتضى سلسلة من الرحلات المتعبة المحيِّرة، فهم يرسلون الواحد من مستشفى إلى مستشفى – سييتامو. بارباسترو. مونزون، ثم رجوعاً إلى سييتامو لوضع الخاتم على ورقة التسريح، ثم نزولاً إلى الجبهة عن طريق بارباسترو وليريدا مرة ثانية – مع أن تجمع الجنود حول هويسكا قد استهلك كل وسائل النقل وخلّف الفوضى في كل شيء. أذكر النوم في أمكنة غريبة – مرة في سرير في المستشفى، وأخرى في الخندق، ومرة على مقعد ضيق سقطت من عليه في منتصف الليل، وأخرى في نوع من المنازل البلدية في بارباسترو. كنتَ إذا

ابتعدت عن السكة الحديد لاتجد واسطة للنقل إلا إذا أقلّتك إحدى الشاحنات العابرة. وقد تضطر إلى الانتظار على قارعة الطريق ساعات متتالية، مع زمر من الفلاحين المتذمرين يحملون صرراً مليئة بالبط والأرانب، ملوّحاً لشاحنة بعد شاحنة. وحين يتفق لك أخيراً شاحنة ليست ملأى بالرجال، أو بأرغفة الخبز، أو بصناديق الذخيرة فإن الخضخضة على الطرق الوعرة تعجنك عجيناً. لم يستطع أي حصان ركبته بحياتي أن يرميني في الهواء كما كانت تتقاذفني تلك الشاحنات. فكانت الطريقة الوحيدة لقضاء الطريق هي تشبث الجميع بعضهم ببعض بحيث يصبحون كتلة واحدة. وكان الهوان الأكبر الذي لقيته أنني لم أكن أستطيع تسلق الشاحنة بدون مساعدة.

قضيت ليلة في مستشفى مونزون حيث ذهبت لمقابلة اللجنة الطبية. وعلى السرير المجاور كان أحد حرس المداهمة، مصاباً بجروح فوق العين اليسرى. كان مجاملاً تجاهي وأهداني بعض السجائر. قلت له: ‹لوكنا في برشلونة لكان يجب أن نكون نطلق النار واحدنا على الآخر!› وضحكنا معاً. كان عجيباً التغير في النفسية يحدث لك حين تقترب من خطوط النار الأمامية. كل الكراهية، أو معظمها، التي خلفها العداء لسياسي يتبخر. وطوال الوقت الذي قضيت في الجبهة لم أشاهد فرداً واحداً من اتحاد الـp.s.u.c الشيوعي أبدى نحوي مظاهر العداء لأنني من أعضاء الـ p.o.u.m. . هذا الشيء ينتمي إلى برشلونة أو إلى الأماكن الأبعد منها عن الجبهة. كان في سييتامو الكثير من أعضاء حرس المداهمة. وقد أرسلوا من برشلونة للاشتراك في الهجوم على هويسكا. وحرس المداهمة هذا لم يكن المقصود الأول منه الحرب على الجبهة، والكثير من أفراده لم يكونوا تحت النار من قبل. هناك، تحت، في برشلونة، كانوا سادة الشوارع، أما هنا، فوق، فقد عادوا quintos (فراخاً) وعقدوا الصداقات مع الفتيان أبناء الخامسة عشرة الذين قضوا على خطوط النار شهوراً.

في مستشفى مونزون عدنا مع الطبيب إلى الانشغال في شد اللسان وحشر المرآة في الحلق، وأكد لي هذا بدوره، بنفس اللهجة المرحة ذاتها، أنني لن أستعيد صوتي ثانية، ووقع لي على أوراق التسريح. وبينما كنت بانتظار الكشف الطبي كانت تُجرى في الداخل عملية جراحية رهيبة، وبدون استعمال المخدر -لم أستطع معرفة سبب عدم استعمال المخدر. وقد طالت وامتدت، والصرخة تتلو الصرخة، وحين دخلت إلى الغرفة كانت فيها الكراسي مقلوبة على الأرض الملطخة بالدماء والبول.

تفاصيل آخر رحلاتي ظلت ماثلة في ذهني بوضوح غريب. كنت في مزاج مختلف، مزاج مهتم بالملاحظة أكثر مما كنت في الشهور السابقة. حصلت على وثائق تسريحي، ممهورة بخاتم الفرقة التاسعة والعشرين، وشهادة الطبيب بأنني "غير صالح للخدمة". كنت حراً في العودة إلى إنجلترا؛ وبالنتيجة شعرت للمرة الأولى بالقدرة على رؤية إسبانيا. كان لديّ يوم أقضيه في بارباسترو، لأنه لم يكن يغادرها إلا قطار واحد في اليوم. كنت قبلاً قد ألقيت على بارباسترو نظرات خاطفة، وبدت لي ببساطة جزءاً من الحرب الجارية - مكان باهت، طيني بارد مليء بالشاحنات الصاخبة والجنود بمظهرهم الرث. وبدت مختلفة تماماً الآن. تجولت فيها فتنبهت إلى الأزقة المتعرجة اللطيفة، والجسور الحجرية القديمة، وحوانيت النبيذ ببراميلها الخشبية العظيمة بطول قامة الرجل، والحوانيت الصغيرة المقبيّة كأنها تحت الأرض، يعمل فيها الناس في صنع العربات اليدوية، والخناجر، والملاعق الخشبية، وزِقاق الخمر من جلد الماعز. وقد وقفت أتفرج على أحد الصناع يعمل في صناعة الزق الصغير واكتشفت بدهشة شديدة مالم أكن أعرفه قبلاً، أنهم يخيطون الجلد مع جعل الشعر إلى الداخل بدون أن يزيلوه، فأنت تشرب في الواقع شعر ماعِز مصفّى. وقد ظللت أشرب منها شهوراً بدون أن أعرف هذا.

وراء المدينة كان يجري جدول لازوردي الخضرة، وترتفع من خلفها صخرة عظيمة عمودية بنيت البيوت فيها على الصخر، بحيث تستطيع من نافذة غرفة نومك أن تبصق في الماء من ارتفاع مئة قدم. وقد عشش من الحمام مالايحصى في جحور الصخرة. وفي ليريدا كان ثمة أبنية قديمة متهاوية على أفاريزها بنت أعشاشها الآلاف من طيور السنونو. بحيث أنك، من مسافة قليلة تجد أن الشكل الخشن الذي يتألف من الأعشاش يبدو كأنه زخارف من عصر الروكوكو. والعجيب أنني قضيت ستة الشهور الماضية بدون أن ألتفت إلى مثل هذه الأشياء. فبوجود أوراق تسريحي في جيبي بدأت أشعر بأنني إنسان ثانية، بل وبشعور السائح. للمرة الأولى شعرت بأنني كنت في إسبانيا فعلاً، في البلد الذي كنت أتوق لزيارته طوال عمري. وفي الشوارع الخلفية الهادئة لمدينتي ليريدا وبارباسترو أظن أنني التقطت لمحات سريعة. ضرب من الروايات المتواترة عن إسبانيا القابعة في مخيلة الجميع؛ جبال بيضاء، قطعان الماعز، أقبية سجون محاكم التفتيش، القصور العربية المراكشية، قوافل البغال السوداء المتلوية، كروم الزيتون الرمادية وبساتين الليمون، الصبايا بمراييلهن السوداء، خمور مالاقا وأليكانتي، الكاردينالات، مصارعة الثيران، الغجر، الأغاني – وبالاختصار: إسبانيا. من أوروبا كلها كانت هي البلد الوحيد الذي سيطر على مخيلتي. ومن المؤسف أنني، حين تمكنت أخيراً من الوصول إليها، لم أشاهد إلاً هذه الزاوية الشمالية الشرقية، في خضم حرب مضطربة، ومعظمها في فصل الشتاء.

كان الوقت متأخراً حين وصلت إلى برشلونة، ولم أجد أية سيارة أجرة. فلم يكن من فائدة لمحاولة الوصول إلى مصح مورين الواقع خارج البلدة، لذا توجهت صوب فندق الكونتيننتال. وتوقفت لتناول العشاء على الطريق. أذكر المحادثة التي جرت بيني وبين خادم المطعم ذي الموقف الأبوي عن الأباريق السنديانية المربطة بالنحاس التي يقدمون فيها النبيذ. قلت أنني أود شراء طاقم منها آخذه معي إلى

إنجلترا. وكان النادل متعاطفاً: "نعم، لقد كانت جميلة، أليس كذلك؟ لكن من المستحيل شراؤها الآن. لم يعد أحد يصنعها هذه الأيام. لم يعد أحد يصنع أي شيء! إنها الحرب - ويا للأسف! ". واتفقنا على أن الحرب أمر مؤسف. وشعرت للمرة الثانية بشعور السائح. سألني النادل بأدب، هل أعجبتني إسبانيا؛ وهل أعود إليها ثانية؟ نعم، لابد من أن أعود إلى إسبانيا. إن الطابع السلمي لهذه المحادثة يجعلها تظل في ذاكرتي، بسبب ماحدث بعدها مباشرة.

حين وصلت إلى الفندق كانت زوجتي جالسة في الردهة. فنهضت فوراً واتجهت نحوي بما صدمني بأنه شيء من اللامبالاة؛ ثم وضعت ذراعها حول عنقي، بابتسامة حلوة لمصلحة الجمهور في الردهة، وهمست في أذني:

"أخرج من هنا! "

"ماذا؟"

"أخرج من هنا حالاً! "

"لماذا؟"

"لاتقف هكذا هنا! عليك الخروج بسرعة! "

"ماذا؟ ولماذا؟ وماذا تقصدين؟"

تناولت ذراعي وأخذت تقودني قيادة نحو السلّم. وفي منتصف طريقنا نزولاً صادفنا أحد الفرنسيين - ولن أبوح باسمه، لأنه، وإن لم يكن منتمياً إلى الـ p.o.u.m. إلا أنه كان صديقاً عزيزاً مخلصاً لنا طوال الأحداث. نظر إليّ نظرة مهتمّ، وقال:

"اسمع! يجب ألا تأتي إلى هنا. أخرج بسرعة واختبئ قبل أن يهتفوا للبوليس".

وانظر! في أسفل السلّم كان يقف أحد رجال الفندق، وكان عضواً في الـ p.o.u.m. (بدون معرفة الإدارة على ما أظن) تسلل من المصعد تسللاً وقال لي بإنجليزيته الركيكة بأن أخرج. وحتى ذلك الحين لم أفهم ماذا جرى.

قلت لزوجتي فور بلوغنا الرصيف: "لماذا بحق الشيطان كل هذه الجلبة؟"

"ألم تسمع؟"

"لا، أسمع بماذا؟ لم أسمع بشيء".

"لقد جرى حظر منظمة الـ p.o.u.m. واحتلوا كل مكاتبها وأبنيتها. وكل أعضائها هم الآن عملياً في السجون. ويقال بأنه جرت بعض الإعدامات".

إذن فهذه هي المسألة. وكان علينا أن ندبر مكاناً نتحدث فيه. كل المقاهي الكبرى في الرامبلاس كانت تعج برجال البوليس، لكننا وجدنا مقهى هادئاً في شارع جانبي. وشرحت لي زوجتي ماجرى بغيابي.

في الخامس عشر من يونيو اقتحم البوليس فجأة مكتب أندريَس نين واعتقلوه، وفي المساء ذاته هاجموا فندق الفالكون واعتقلوا كل من وجدوه فيه، ومعظمهم من رجال الميليشيا في إجازة. وقد حوّل المكان فوراً إلى سجن، وخلال مدّة قصيرة كان قد امتلأ إلى الحافة بالنزلاء من جميع الألوان. في اليوم التالي أُعلنت الـp.o.u.m منظمة محظورة غير قانونية، وصودرت كل مكاتبها ومكتباتها ومصحاتها ومراكز الإسعاف الأحمر وما إلى ذلك. ومنذ ذلك الحين دأب البوليس على اعتقال كل من استطاعوا وضع اليد عليه ممن لهم أية علاقة بالمنظمة. وخلال يوم أو يومين كان كل الأربعين من أعضاء اللجنة التنفيذية في السجن. ربما نجح في الاختباء منهم واحد أو

اثنان، لكن البوليس كان يستخدم الحيلة (التي استخدمها الطرفان في تلك الحرب) وهي اعتقال زوجة المطلوب كرهينة إذا ما اختفى هو. وقد سمعت زوجتي بأن العدد وصل إلى أربعمئة في برشلونة وحدها. وبعدها علمت أن العدد كان حتى في ذلك الوقت المبكر كان أعلى بكثير. وقد اعتقل أناس لايصدق أن يهتم بهم أحد. ففي بعض الحالات وصل البوليس إلى مدى جرجرة الجرحى من رجال الميليشيا وإخراجهم من المستشفيات.

كان الوضع رهيباً مرعباً. لم كل هذا بحق الشيطان؟ قد أستطيع فهم رغبتهم بالتضييق على الـp.o.u.m أو حظرها، لكن مالداعي إلى اعتقال الناس؟ ليس من داع يخطر على البال في الحال. الظاهر أن لحظر الـp.o.u.m مفعولاً رجعياً؛ فمادامت الآن محظورة فإن الرجل يكون مخالفاً للقانون لانتمائه إليها سابقاً. وكالعادة لم يجر اتهام أحد من المقبوض عليهم. وفي الوقت ذاته كانت صحف فالنسيا الشيوعية تلتهب بالقصص عن (المؤامرة الفاشية) الكبرى؛ اتصالات بالراديو مع العدو، وثائق موقعة بالحبر المخفي، الخ، الخ. وقد عالجت هذه القصة سابقاً. الشيء البارز هو أنها لم تُذكر إلا في صحف فالنسيا؛ وأظن أنني لاأجافي الصواب إذا قلت إنه لم تصدر أية كلمة، حتى عن حظر الـp.o.u.m في صحف برشلونة، الشيوعية أو الأناركية أو الجمهورية. وأول ما عرفناه عن طبيعة التهم المنسوبة إلى قادة الـp.o.u.m لم يكن من الصحف الإسبانية بل من تلك الإنكليزية التي تصل برشلونة بعد يوم أو يومين.ومالم نعلمه في ذلك الوقت أن الحكومة لم تذكر شيئاً عن الاتهام بالخيانة والتجسس، وأن أعضاء الحكومة سوف يتنصلون منها في وقت لاحق. عرفنا بصورة غامضة أن قادة الـp.o.u.m بل وسائر من بقي منا من الأعضاء كنا متهمين بأننا نعمل لحساب الفاشيين. وبدأت الإشاعات تسري بأن الإعدامات بدأت تجري سراً في السجون. وكان في هذا كثير من المبالغة. لكن لاشك أنها حدثت في بعض الحالات، وليس من شك في أنها حصلت في حالة إعدام نين. فبعد اعتقاله

جرى نقله إلى فالنسيا ومن ثم إلى مدريد، وقبل حلول الحادي والعشرين من يونيو وصلت الإشاعات إلى برشلونة بأنه أعدم رمياً بالرصاص. وبعد قليل اتخذت الشائعة شكلاً أكثر تحديداً: أعدم البوليس السري نين في السجن وألقى بجثته في الشارع. وقد وردت هذه القصة من عدة مصادر، بما فيها فيديريكو مونتسينيس، وهو من أعضاء الحكومة السابقين. ومنذ ذلك اليوم حتى الآن لم يسمع أحد بوجود نين حياً. وحين كان يُسأل أعضاء الحكومة بعدئذ من قبل الوفود من عدة أقطار، كانوا يتملصون ولايجيبون إلا بأن نين اختفى وأنهم لايعرفون مكان وجوده. وقد طلعت بعض الصحف بأن نين قد هرب إلى المناطق الفاشيّة. ولم يعط لهذا أي دليل، بل إن إرجو، وزير العدل، صرح بعدئذ بأن وكالة أنباء إسبانيا قد حرّفت أقواله.* وعلى كل حال يبعد كثيراً أن يتمكن سجين سياسي بأهمية نين من الهرب. ومالم يظهر في المستقبل بأنه حي بلحمه ودمه، فأظن أن علينا الآن أن نعده قتل في السجن.

وقد استمرت قصة الاعتقالات وتطاولت شهوراً، إلى أن وصل عدد السجناء السياسيين، باستثناء الفاشيين، إلى الآلاف. وكان الشيء الملاحظ البارز هو استقلال الرتب الصغرى من البوليس. وقد سُلّم بأن الكثير من الاعتقالات كان غير قانوني، لكن كثيراً ممن جرى إطلاق سراحهم بأمر مدير البوليس أعيد اعتقالهم على باب السجن ونقلوا إلى "سجون سرية". والقضية النموذجية هي قضية كورت لانداو وزوجته. فقد اعتقلا حوالي ١٧ يونيو، و"اختفى" لانداو فوراً. وبعد خمسة شهور كانت زوجته ماتزال في السجن، بدون محاكمة ولا أخبار عن مصير زوجها. وقد أعلنت الإضراب عن الطعام، وبعدها أرسل لها وزير العدل كلمة يؤكد لها فيها بأن زوجها كان توفي. وبعد هذا بقليل أطلق سراحها، ليعاد اعتقالها فوراً تقريباً، وتلقى في السجن من جديد. والملاحظ أن البوليس، على الأقل في البداية، كان غير مبال

---

* انظر تارير وفد ماكستون الذي أشرت إليه في الفصل ١١. المؤلف

بأثر تصرفات أفراده على مجريات الحرب. كانوا على استعداد فوري لاعتقال ضباط الجيش ولو كانوا في وظائف مهمة حساسة، بدون حتى أن يأخذوا الإذن بذلك. ففي حوالي نهاية يونيو اعتقل جوزيه روفيرا، القائد العام للفرقة ٢٩، في مكان ما قريب من خطوط النار من قبل جماعة من البوليس أرسلت من برشلونة. وقد أرسل رجاله وفداً للاحتجاج إلى وزارة الحربية. فتبين أن لاوزارة الحربية، ولا أورتيجا، مدير البوليس كانوا على علم باعتقال روفيرا. وطوال هذه الأحداث، وبالرغم من أنه ليس لهذا من كبير أهمية، فإن أخبار مايجري كانت مخفية تماماً عن الجنود على الجبهة. فكما لابد رأيتم، لم أكن أنا، ولا أي واحد غيري في الجبهة قد سمع بحظر منظمة الـp.o.u.m التي ننتمي إليها. وكانت كل مقار قيادات الـp.o.u.m ، ومراكز الإسعاف الأحمر التابعة لها، وغيرها من المؤسسات كانت تعمل بطبيعتها كالعادة، وحتى وقت متأخر هو العشرون من يونيو، ونزولاً حتى ليريدا التي لاتبعد أكثر من مئة ميل عن برشلونة، لم يكن أحد قد سمع بما كان يجري. ولم تخرج عنها كلمة في صحف برشلونة (صحف فالنسيا، وكانت تجري على الرواية الجاسوسية، لم تكن تصل إلى جبهة الأراجون)، ولاشك أن أحد الأسباب في اعتقال كل من كان في إجازة من رجال ميليشيات الـ p.o.u.m. كان منعهم من الرجوع إلى رفاقهم بتلك الأنباء. ولابد أن الإرسالية التي خرجت معها إلى الخطوط في ١٥ يونيو كانت آخر من غادر. مازلت حتى الآن تدهشني كيفية بقاء هذا الموضوع سراً، لأن الشاحنات التموينية كانت ماتزال تمر ذهاباً وإياباً، لكن لاشك في أن السر بقي مكتوماً، وأنا، بعدئذ، ومما علمته من الآخرين، أكيد أن الرجال على الجبهة لم يسمعوا بشيء إلا بعد عدة أيام. والدافع لهذا واضح بما فيه الكفاية. كان الهجوم على هويسكا قد بدأ للتو، وكانت ميليشيات الـp.o.u.m ماتزال وحدةً منفصلة، فربما خيف من أن الرجال إذا عرفوا بما يجري فقد يرفضون مواصلة القتال. والحق أن شيئاً من هذا لم يحدث حين تفشت الأنباء. لكن في الأيام الفاصلة لاشك في أن

بعض الرجال قد قتلوا بدون أن يعلموا بأن الصحف في المؤخرة كانت تنعتهم بالفاشيين! . وهذا من الأشياء التي يصعب غفرانها. أعرف تماماً أن السياسة المعتادة هي كفّ الأنباء السيئة عن المقاتلين، وربما يمكن الدفاع عنها كقاعدة عامة. لكنه أمر مختلف أن ترسل الناس إلى المعارك وألا تخبرهم بأن من وراء ظهورهم أصبح حزبهم محظوراً، وأن زعماءهم متهمون بالخيانة، وأن أصدقاءهم وأقرباءهم أصبحوا في السجون.

ثم بدأت زوجتي تخبرني عما جرى لأصدقائنا العديدين. بعض الإنجليز وغيرهم من الأجانب قطعوا الحدود. وويليامز وستافورد كوتمان لم يعتقلا عند الإغارة على مصحة مورين بل مختبئان في مكان ما. وكذلك كان جون مك نير، الذي كان في فرنسا ودخل إسبانيا بعد إعلان الـp.o.u.m منظمة محظورة – وهو تصرف أخرق منه، لكنه آثر ألا يؤثر السلامة ورفاقه في خطر! أما الباقون فلم تكن قصتهم تزيد عن "وقد قبضوا على فلان" و"قد قبضوا على فلان". ويبدو أنهم قبضوا على الجميع. ومع هذا صعقني ماعلمته أنهم قبضوا على جورج.

"ماذا! ؟ لكنني ظننته في فالنسيا".

يبدو أن كوب عاد إلى برشلونة؛ وكان معه رسالة من وزير الحربية إلى الكولونيل قائد العمليات الهندسية في الجبهة الشرقية. وقد كان يعرف طبعاً أن منظمة الـp.o.u.m أصبحت محظورة، لكن يبدو أنه لم يخطر له على بال بأن البوليس قد يكونون من الحماقة بحيث يعتقلونه وهو في طريقه إلى الجبهة في مهمة عسكرية عاجلة. وقد مر على فندق الكونتيننتال لإحضار حوائجه؛ وكانت زوجتي غائبة في ذلك الوقت، وقد تمكن جماعة الفندق من تأخيره بقصة ما بينما هتف أحدهم للبوليس. أقول إنني غضبت حين علمت باعتقال كوب . لقد كان صديقي الشخصي. وخدمت بأمرته عدة شهور، وكنت تحت النار معه، وأعرف تاريخه

بكامله. لقد كان رجلاً ضحّى بكل شيء - بالأسرة، وبجنسية الوطن، وبالمعيشة السهلة - كل هذا ببساطة ليأتي ويحارب الفاشية. وبمغادرته بلجيكا بدون موافقة، وانضمامه إلى جيش أجنبي بينما هو في احتياطي الجيش البلجيكي، وسابقاً بمساعدته على تصنيع الذخائر بصورة غير قانونية للحكومة الإسبانية، كان قد راكم على نفسه سنين من السجن في بلاده إذا عاد. وقد كان مرابطاً على خطوط الجبهة منذ أكتوبر ١٩٣٦، وترقّى من نفرٍ في الميليشيا إلى رتبة «ماجور»، وحضر ما لا أستطيع تعداده من المعارك، وجرح مرة. وأثناء اضطرابات مايو، وشهدت هذا بنفسي. ساهم في منع قتال محلي وربما أنقذ بهذا عشرة أو عشرين من الرجال. وكل ما استطاعوا مكافأته به هو إلقاؤه في السجن. كان من العبث الاكتفاء بالغضب، لكن الخبث في مثل هذه الأشياء يفقد المرء صبره.

لكنهم في هذه الأثناء لم يعتقلوا زوجتي، وبالرغم من بقائها في فندق الكونتيننتال لم يحاول البوليس اعتقالها. والظاهر أنهم جعلوها ضرباً من البطة التي يصطاد بها. لكن قبل ليلتين، وفي ساعات الفجر، اقتحم ستة من رجال البوليس باللباس المدني غرفتنا في الفندق وفتشوها. وصادروا كل قصاصة من الورق في حوزتنا، فيما عدا جوازي السفر ودفتر الشيكات، لحسن حظنا. لكنهم أخذوا مفكرتي، وكل الكتب، وقصاصات الصحف التي قضيت الشهور في جمعها (وأنا أعجب بماذا تفيدهم قصاصات الصحف تلك!)، كما صادروا كل تذكارات الحرب، وكل الرسائل. (بالمناسبة، أخذوا معهم بعض رسائل قرائي، ومنها ما لم أكن قد أجبت عليه، فلم تعد العناوين طبعاً بحوزتي. فإذا كان أي واحد قد كتب لي عن آخر كتبي ولم يتلقَّ جواباً وقرأ هذه الأسطر، فأرجو منه أن يتقبل عذري!). وعلمت بعدئذ أن البوليس صادر كل حوائجي التي تركت في مصحة مورين. بل حملوا معهم كومة من ثيابي المتسخة للغسيل. ترى هل ظنوا أن فيها رسائل بالحبر غير المنظور؟

واضح أنه كان الأسلم لزوجتي أن تظل في الفندق، للوقت الحاضر على الأقل. فلو حاولت الاختباء لتعقبوها على الفور. أما أنا فعليّ فوراً البحث عن مخبأ. وكانت التوقعات تثير الهلع. وبالرغم من كل تلك الاعتقالات التي جرت لم أستطع أن أصدق أنني في خطر. بدا كل شيء عبثاً لامعنى له. لكن هذا الرفض ذاته لهذا العبث الذي لاطائل منه هو الذي أودى بكوب إلى السجن. ظللت أتساءل: لماذا يريد أي إنسان أن يعتقلني؟ ماذا فعلت؟ أنالم أكن حتى عضواً حزبياً في منظمة الـ p.o.u.m. . صحيح أنني حملت السلاح أثناء اضطرابات مايو، لكن فعل هذا مثلي (تخميناً) أربعون أو خمسون ألفاً من الناس. وفوق هذا أنا بحاجة ماسة إلى ليلة كاملة من النوم، وعلى استعداد للمخاطرة بالعودة إلى الفندق. ولم تقبل زوجتي سماع شيء من هذا. وشرحت لي بكل تأنٍ الأحوال السائدة. ليس المهم مافعلتُ ومالم أفعل. إنها جولة المجرمين؛ وهو فعلاً حكم الإرهاب. نعم لم أكن مجرماً بأية جناية محددة، لكنني مُدان بالـ"تروتسكية". ثم إن واقعة أنني كنت متطوعاً في الميليشيات التابعة للـp.o.u.m تكفي لإلقائي في السجن. ولافائدة هنا من التشبث بالمفهوم الإنكليزي القائل بأنك في مأمن مابقيتَ في حدود القانون. القانون هنا ماشاء له البوليس أن يكون. الشيء الوحيد الممكن الآن هو التواري وإخفاء واقعة أن لي أية علاقة بمنظمة الـp.o.u.m . وتفحصنا الأوراق التي في جيوبي، وجعلتني زوجتي أمزق بطاقة العضوية في ميليشيات الـp.o.u.m وكانت تلك الحروف مكتوبة عليها بالبنط العريض، وصورة لي مع بعض الرفاق وعلم المنظمة وراءنا؛ فتلك هي الأشياء التي تؤدي إلى الاعتقال هذه الأيام. وكان عليّ الاحتفاظ بأوراق تسريحي، مع أنه حتى هذه فيها خطر، لأن عليها خاتم الفرقة ٢٩، وربما انتبه رجال البوليس إلى أنها فرقة الـp.o.u.m ؛ لكن بدون تلك الأوراق قد يلقى القبض عليّ بتهمة الفرار من الخدمة.

الشيء الذي كان علينا التفكير به هو مغادرة إسبانيا كلها. فليس من داع للبقاء هنا مع السجن الأكيد عاجلاً أو آجلاً. والحق أننا كلينا كنا نود لو استطعنا البقاء، فقط لرؤية مايجري. لكنني توقعت أن تكون السجون الإسبانية أمكنة مقيتة (والواقع أنها كانت أسوأ مما توقعت بكثير)، فما أن تصير إليها حتى لاتعرف متى تخرج منها، وكنت في صحة سيئة، بالإضافة إلى الوجع في ذراعي. واتفقنا على أن نتقابل في اليوم التالي في القنصلية البريطانية، حيث يأتي أيضاً كوتمان ومك ناير. كنا نحتاج إلى يومين لإنهاء معاملة سفرنا. فقبل مغادرة إسبانيا عليك أن تضع الأختام على جواز سفرك من ثلاثة محلات - من رئاسة البوليس ومن القنصلية الفرنسية ومن سلطات الهجرة الكاتالانية. وكان الخطر في رئاسة البوليس طبعاً. لكن ربما استطاع القنصل البريطاني تدبير الأمور بدون أن يعلم أحد أن لنا أية علاقة باتحاد الـp.o.u.m . الظاهر أن ثمة لائحة بالأجانب المشبوهين بالـ"تروتسكية"، وأكبر الظن أن اسماءنا كانت فيها، لكن مع قليل من الحظ يمكن أن نصل إلى الحدود قبل وصول اللائحة. ولاشك أنه سوف يكون هناك كثير من المانيانات [غداً] قبل إرسالها، فمن حسن الحظ أننا في إسبانيا ولسنا في ألمانيا. صحيح أن في البوليس السري الإسباني بعض "روح" الجستابو، لكن ليس فيهم الكثير من دقتهم وكفاءتهم.

وعلى هذا افترقنا. عادت زوجتي إلى الفندق وغبت أنا في الظلام لإيجاد مكان أبيت فيه. أذكر شعوري بالإحباط والإنهاك. كم أشتاق إلى ليلة نوم في السرير! ليس في ذهني مكان أقصده، ولامنزل ألجأ إليه. لم يكن لدى الـp.o.u.m تنظيمات سرية «تحت الأرض» عملياً. لاشك أن القادة كانوا يتوقعون دائماً أن يُقمع حزبهم، لكنهم لم يكونوا يتوقعون أن يكون الأمر بهذه الصورة الشاملة، بالجملة. بل كانوا غافلين عنها لدرجة أنهم كانوا مشغولين بإجراء الترميمات والتغييرات على المباني التابعة لهم (ومن هذا القبيل أنهم كانوا ينشئون داراً للسينما في بنايتهم التنفيذية، وقد كانت قبلاً بنكاً) حتى اليوم الذي نُكبوا فيه. وبالنتيجة فإن أماكن المقابلات

والاختباء التي لايستغني عنها حزب ثوري في أعماله كانت معدومة لديهم. ولا يعلم أحد كم الناس – الذين أغار البوليس على مساكنهم – كانوا يهيمون على وجوههم في الطرقات وينامون في الشوارع في الليل. وأنا الذي قضى خمسة أيام في السفر المنهك، ينام في الأماكن المستحيلة، ذراعي دائمة الألم الملح، ثم يلاحقني هؤلاء الأغبياء هنا وهناك، وأنا مضطر إلى النوم على الأرض ثانية. لم تتجاوز أفكاري وقتها هذا الحد من التأسِّي. لم أداول شيئاً من التأملات السياسية. وأنا لاأفعل هذا أبداً أثناء مجرى الأحداث. ويبدو أن هذا حالي دائماً حين أتورط في الحرب أو السياسة – لاأعي شيئاً إلا المتاعب الجسدية، والرغبة الشديدة في انتهاء الوضع اللعين. ثم بعد ذلك أستطيع رؤية المغازي والنتائج. أما أثناء حدوثها فلا أشعر إلا بالرغبة من الخروج منها – وتلك من خواصّي الوضيعة على ماأظن.

مشيت طويلاً حتى وصلت إلى الحواري المحيطة بالمستشفى العمومي. كنت أبحث عن محلّ أستطيع الاستلقاء فيه بدون أن يعثر عليّ رجل بوليس متطفل ويطلب أوراقي. جربت ملجأ من الغارات الجوية، لكنه كان محفوراً حديثاً ولايزال رطباً حتى النشيش. ثم اكتشفت أطلال كنيسة خربة، منقوبة ومحروقة أثناء الثورة. لم يبق منها إلا الهيكل الخارجي، أربعة جدران بلا سقف تحيط بأكوام الحطام. تجولت في العتمة التي لايخترقها إلا بعض البصيص إلى أن عثرت على تجويف أستطيع أن أنحشر فيه. إن قطع مواد البناء المكومة ليست فراشاً مريحاً، لكن لحظّي كانت الليلة دافئة فتمكنت من النوم لعدة ساعات.

١٤
التشــــرد

أسوأ من أن تكون مطلوباً للبوليس في مدينة مثل برشلونة هو أن كل شيء فيها يفتتح متأخراً. فحين تنام في العراء تستيقظ دائماً عند الفجر، وليس من مقهى في برشلونة يفتح أبوابه قبل التاسعة في الضحى. فقضيت ساعات قبل أن أنال قدحاً من القهوة أو أدخل دكان الحلاق. وقد استغربت في دكان الحلاق رؤية الإعلان الأناركي مايزال معلقاً على الحائط، وينص على أن البخشيش ممنوع. يقول الإعلان: "لقد كسرت الثورة قيودنا". وشعرت بالرغبة في إعلام الحلاق بأن تلك القيود على وشك الرجوع إذا لم يكونوا على حذر.

سرت رجوعاً إلى مركز المدينة. رأيت على أبنية اتحاد الـp.o.u.m حيث كانت ترفع الراية الحمراء، قد ارتفعت الأعلام الجمهورية بدلاً منها، وزمر من الحرس الوطني كانت تملأ مداخلها . وفي مركز الإسعاف الأحمر على زاوية ساحة بلازا دي كاتالونيا تسلى رجال البوليس بتحطيم زجاج النوافذ. وأما أكشاك كتب منظمة الـp.o.u.m فقد أفرغت من كتبها تماماً، واللافتة الكبيرة أسفل الرامبلاس ألصق عليها الكاريكاتير المعادي للـp.o.u.m - ذلك الذي يصور نزع القناع عن الوجه الفاشيّ تحته. وفي أسفل شارع الرامبلاس، قرب أرصفة الشاطئ، شهدت منظراً غريباً مثيراً؛ صفاً من رجال الميليشيا، مازالوا بملابسهم المهلهلة وأوحالهم التي جلبوها من الجبهة، مستلقين يبدو عليهم الإنهاك على المقاعد الموضوعة لماسحي الأحذية. عرفت من هم، بل تعرفت على واحد منهم. كانوا من ميليشيات الـp.o.u.m وصلوا من الخطوط الأمامية في اليوم السابق ليجدوا أن منظمتهم أصبحت محظورة وملاحقة، فاضطروا إلى قضاء الليلة في الشوارع لأن بيوتهم كانت

معرضة للإغارة. كان أمام كل واحد منهم يعود إلى برشلونة هذه الأيام أحد خيارين: أن يبحث فوراً عن مخبأ، أو أن يساق إلى السجن - وهو ليس استقبالاً حافلاً بعد قضائك ثلاثة شهور أو أربعة على خطوط النار.

كان وضعاً عجيباً، وضعنا ذاك، في الليل يكون واحدنا شريداً مطلوباً، وفي النهار يستطيع المرء أن يعيش حياة طبيعية تماماً. كل بيت معروف بأنه يؤوي، أو يحتمل أن يرتاده، أحد أنصار الـp.o.u.m كان تحت المراقبة، ومن المستحيل الذهاب إلى أي فندق أو نُزل عام، لأنه جرى التعميم على أنه في حال قُدوم أي غريب على المالك أن يخابر البوليس فوراً. وهذا كان يعني عملياً قضاء الليل في الخارج. أما في النهار، على كل حال. وفي مدينة بحجم برشلونة، كان من المأمون أن تتجول أين شئت. كانت الشوارع تعج بالحرس الوطني، وحرس المداهمة، ورجال الدرك الكارابينيروس، والبوليس العادي، وماشاء الله من العسس باللباس المدني؛ وبالرغم من هذا فإنهم لم يكونوا ليستطيعوا إيقاف كل شيء وكل واحد يمر، وإذا ظهرتَ بمظهر طبيعي مألوف، فإنك تستطيع الإفلات من الشبهات. الشيء الذي كان يجب تجنبه هو التجول حول مقارّ الـp.o.u.m وارتياد المقاهي والمطاعم التي يعرفك فيها الخدم. وقد قضيت وقتاً طويلاً في ذلك اليوم وفي الذي تلاه بحجة الاستحمام في أحد الحمّامات العمومية. وقد خطر لي هذا كطريقة جيدة لقضاء الوقت والبقاء بعيداً عن الأنظار. لكن، لسوء الحظ، كانت الفكرة ذاتها قد خطرت لكثير من الناس غيري، وبعد بضعة أيام - وكنت قد غادرت برشلونة نهائياً - سمعت أن البوليس أغار على أحد تلك الحمامات واعتقل عدداً من "التروتسكيين" عراة على الطبيعة.

في منتصف الطريق صعوداً في شارع الرامبلاس قابلتُ أحد الجرحى من مصحة مورين. تبادلنا تلك الإشارة غير الملحوظة التي كان يتبادلها الناس آنذاك، وتمكنّا بطريقة لاتلفت الأنظار أن نتقابل في أحد المقاهي بعيداً في الشارع ذاته. كان قد نجا

من الاعتقال حين الإغارة على المصحة. وكان يرتدي القميص وحده - إذ اضطر إلى الهرب بدون أن يصل إلى الجاكيت - ولم يكن يحمل شيئاً من النقود. ووصف لي كيف مزق أحد رجال الحرس الوطني صورة موران من على الجدار وأخذ يدوسها بقدميه. وموران (أحد مؤسسي الـp.o.u.m)كان سجيناً في أيدي الفاشيين حينئذ، وكان يُعتقد بأنه أعدم بأيديهم.

قابلت زوجتي في القنصلية البريطانية عند الساعة العاشرة. وحضر مك نير وكوتمان بعد قليل. وأول ما أخبروني به أن بوب سميلّي قد مات. مات في السجن في فالنسيا - ولسبب لايعرفه أحد تماماً. وقد جرى دفنه فوراً، ولم يسمح لمثل الـ i.l.p. [حركة عمالية إنجليزية] في الموقع برؤية جثمانه.

طبعاً افترضت فوراً أن سميلّي أعدم بالرصاص. وكان هذا مايعتقده الجميع في ذلك الوقت، لكنني بعدها أظن بإمكان الخطأ. فقد أُعطي السبب في وقت لاحق، بأنه التهاب الزائدة، وسمعنا بعدئذ من سجين آخر أُطلق سراحه بأن سميلّي كان بالفعل مريضاً جداً في السجن. فربما كانت قصة الزائدة صحيحة. ورفض السماح لوري برؤية جثته كان لمجرد النكاية. لكن عليّ قول هذا على كل حال؛ لم يكن سميلّي يتجاوز الثانية والعشرين، وكان من أقوى من عرفت جسدياً، إنجليز أو إسبان، وقضى ثلاثة شهور في الخنادق بدون أن يشكو المرض يوماً. والناس من هذه البنية لايموتون بالزائدة إذا تمت العناية بهم. لكنك لو رأيت ماهي السجون الإسبانية - السجون المرتجلة التي يحشر فيها السجناء السياسيون - لعرفت كم هي ضئيلة فرصة المريض في البقاء حياً، ومقدار العناية به. وعليك العودة في إنجلترا إلى القرن الثامن عشر لتجد فيها مايمكن أخذه للمقارنة. كان الناس يحشرون في غرف ضيقة لايكاد الواحد يجد فسحة للاستلقاء، وغالباً ماوضعوا في الأقبية وغيرها من الأماكن المعتمة. ولم يكن هذا إجراء مؤقتاً - ففي بعض الحالات ظل السجناء أربعة أشهر أو خمسة بدون أن يروا ضوء النهار. ويطعمون طعاماً قذراً وغير كاف لايزيد

عن صحنين من الحساء وقطعتين من الخبز يومياً. (ويبدو أنه بعد بضعة شهور تحسن الطعام قليلاً). وأنا لست أبالغ؛ واسألوا أي مشبوه سياسي حلّ السجن في إسبانيا. لقد سمعت الروايات عن السجون الإسبانية من مصادر متفرقة، وهي متفقة مع بعضها بعضاً بصورة تجعل عدم تصديقها صعباً؛ إلى جانب أنني ألقيت عدة نظرات على أحدها بنفسي. وقد كتب صديق إنجليزي آخر كان دخل السجن في وقت لاحق قائلاً إن تجربته في السجن "تجعل من السهل فهم قضية سميلّي" إن وفاة سميلّي هي شيء لاأستطيع غفرانه بسهولة. هاهو هذا الشاب الشجاع الموهوب الذي تخلّى عن مستقبله اللامع في جامعة جلاسجو ليأتي ويحارب الفاشيّة، والذي شاهدته بنفسي يؤدي واجبه على الجبهة بشجاعة واندفاع ودقة لايعتورها الخطأ؛ وكل مااستطاعوا فعله له هو إلقاؤه في السجن وتركه يموت كالحيوان المنبوذ. أعرف أنه في خضم الحروب الكبيرة الدموية يجب عدم التهويل لموت فرد واحد. فقنبلة واحدة تلقيها طيارة في شارع محتشد تتسبب في معاناة أشد بكثير من الاضطهاد السياسي. لكن مايغيظ المرء في وفاة كهذه هو عبثيتها المطلقة. الموت في المعركة – لامانع، فهو المتوقع؛ أما الإلقاء في السجن، لابتهمة حتى متخيّلة، بل لمجرد الحقد الأعمى، ثم الإهمال حتى الموت في العزلة، فهذا أمر مختلف. وأنا لاأرى كيف تستطيع مثل هذه الأعمال – وقضية سميلّي ليست فريدة – أن تقرّب من النصر.

زرنا أنا وزوجتي كوب عصر ذلك اليوم. فأنت تستطيع زيارة المساجين الذين ليسوا ممنوعي الاتصال incommunicado ، بالرغم من أن النصيحة ألا تفعل هذا أكثر من مرة أو مرتين. كان البوليس يراقب الداخلين والخارجين، فإذا أكثرت من زيارة السجن وصَمت نفسك بصفة الصديق لـ"تروتسكيٍّ" وربما انتهيت سجيناً أنت أيضاً. وقد حدث هذا لعدد من الناس.

لم يكن كوب من ممنوعي الزيارة وحصلنا على الإذن بزيارته بدون صعوبة.

وحين كانوا يقودوننا من الأبواب الفولاذية إلى الداخل، كان أحد رجال الميليشيا الذين عرفتهم في الجبهة يقاد إلى الخارج بين اثنين من رجال الحرس الوطني. والتقت نظراته بنظراتي، وتكررت تلك الإشارة الخفية. وأول من رأينا في الداخل كان أحد رجال الميليشيا الألمان الذي غادر قاصداً وطنه قبل بضعة أيام، وكانت أوراقه كاملة، لكنهم اعتقلوه على الحدود رغم هذا، ربما لأنه كان لايزال يلبس البنطال القصير المضلع فأمكن تمييزه بأنه من رجال الميليشيا. وقد مررنا ببعضنا وكأننا غرباء تماماً. وهو أمر رهيب. لقد عرفته شهوراً، وشاركته أحد الكهوف في الخنادق، وساعد في حملي وإنزالي من الاستحكامات حين أصبت، لكن لم يكن يستطيع المرء غير ذلك. كان الحرس بلباسهم الأزرق في كل مكان. والمبالغة في التعرف على الناس هناك تورد المرء حتفه.

ذلك المدعو بالسجن كان بالأصل أرضية حانوت، يتألف من غرفتين مساحة كل منهما عشرون قدماً مربعة. وفيهما مايقارب المئة سجين. كان للمكان مظهر سجن نيوجيت في القرن الثامن عشر، بقذارته وحشر الأجساد فيه، وانعدام الفرش منه – فقط بلاط الأرضية ومقعد عريض واحد وبضعة بطانيات مهترئة – وإضاءته الخافتة، لأن الأبواب الفولاذية المموجة للنوافذ كانت مسدلة. وعلى الجدران الوسخة خطّت بعض الشعارات – "عاشت الـp.o.u.m ! ، تحيا الثورة!" وما إلى ذلك. وقد كان المكان يستعمل لإلقاء السجناء السياسيين منذ شهور. والضجيج فيه يصمّ الآذان، فقد كانت ساعة الزيارة، والمكان يعج بالناس حتى لتصعب فيه الحركة. وكانوا جميعاً تقريباً من أفقر أهالي الطبقة العاملة. تجد النساء تفك أربطة حزم أبسط المآكل التي جلبنها لرجالهن المساجين. وكان بينهم عدد من الجرحى من مصحة مورين، اثنان منهم بأرجل مبتورة، وقد جيء بأحدهما بدون عكازتيه فكان يقفز على رجل واحدة. وكان هناك صبي لايتجاوز الثانية عشرة، فهم يعتقلون حتى الصبيان، كما يبدو.

وكان فيه طبعاً تلك الرائحة الخبيثة التي تجدها حين تحشر الناس في مكان ضيق ليس فيه ترتيبات صحية.

شق كوب طريقه بين الناس للوصول إلينا. كان وجهه النضر يبدو على حاله، وفي ذلك المكان القذر استطاع أن يحافظ على زيّه النظامي أنيقاً، بل استطاع أن يدبر أمر حلاقة ذقنه. وكان هناك ضابط آخر بلباس الجيش الشعبي بين السجناء، وكان هو وكوب يتبادلان التحية العسكرية كلما مرّ واحدهما قريباً من الآخر؛ إنها لفتة تحرك المشاعر. وقد بدا كوب بمعنويات عالية. قال بمرح: 'حسناً، أظن أننا جميعاً سنرمى بالرصاص!' وقد جعلتني هذه الجملة ارتعش في الباطن. لقد نفذت طلقة في جسدي منذ قريب، ومازال شعوري بها طازجاً في ذاكرتي. وليس من السهل أن تفكر بحدوث هذا لشخص تعرفه جيداً. في ذلك الوقت كنت مسلّماً بأن كل الأشخاص الكبار في الـp.o.u.m ، ومنهم كوب سوف يُعدمون. وقد كانت إشاعة مقتل نين قد تسربت قبل قليل، وعلمنا أن الـp.o.u.m متهمة بالخيانة والتجسس. وكل شيء كان يشير إلى محاكمة صورية تتلوها مجزرة لكل القادة 'التروتسكيين'. إنه شيء رهيب مثبط للعزم أن ترى صديقك سجيناً وليس في يدك شيء لمساعدته؛ ليس من فائدة حتى من مناشدة السلطات البلجيكية، لأن كوب قد خالف قوانين بلده بقدومه إلى هنا. وقد اضطررت إلى ترك معظم الكلام لزوجتي لأن صوتي الخافت لايمكن سماعه في ضجيج المحبس. وكان كوب يحدثنا عن الأصدقاء الجدد الذين تعرف عليهم بين السجناء، وعن الحراس، وبعضهم كان حسن المعاملة، والبعض الآخر كان متوحشاً ويضرب السجناء الضعاف، وعن الطعام، وعن السجائر. ثم بدأ يحدثنا عن الأوراق التي صادروها منه أثناء اعتقاله. وبينها الرسالة التي يحملها من وزارة الحربية، موجهة إلى الكولونيل قائد العمليات الهندسية في جيش الشرق. فقد صادرها البوليس ورفض أن يعيدها إليه؛ وقيل له إنها على مكتب رئيس البوليس. وقد تحدث فرقاً كبيراً إذا أمكن استعادتها.

وانتبهت على الفور إلى مدى أهمية هذا الأمر. فالرسالة الرسمية من هذا النوع، وتحمل توصية وزارة الحربية والجنرال بوزاس، تكفي لإثبات حسن نوايا كوب. لكن المشكلة كانت في إثبات أن الرسالة موجودة؛ وإذا كانت فُتحت في دائرة رئيس البوليس فالمؤكد أن أحد المهووسين قد يتلفها. والآن ليس إلا شخص واحد قد يمكنه استعادتها. وهو الضابط الذي كانت موجهة إليه. وقد كان هذا خطر على بال كوب وكتب رسالة له، فطلب مني تهريبها إلى خارج السجن ووضعها في البريد. لكن الواضح أن الأسرع والأضمن هو أن أسلمها بنفسي. تركت زوجتي عند كوب ، وأسرعت بالخروج، وبعد لأي عثرت على تاكسي. كنت أدرك أن الزمن هو هنا فوق كل شيء. وكانت الساعة حوالي الخامسة والنصف، وقد يغادر الكولونيل مكتبه في السادسة، وغداً لايعرف إلا الله أين ستكون الرسالة - ممزقة أو ضائعة بين أكوام الوثائق المتراكمة بعد اعتقال المشبوه. كان مكتب الكولونيل في مديرية الحربية تحت، عند أرصفة الميناء. وبينما كنت أصعد السلّم قفزاً أشار أحد حرس المداهمة ببندقيته ذات الحربة الطويلة بإغلاق الطريق أمامي وطلب "أوراقي". لوحت له ببطاقة تسريحي؛ والظاهر أنه لم يكن يحسن القراءة فسمح لي بالمرور، وقد تأثر بمجرد سحر "الأوراق". في الداخل كان المكان يعج بالفوضى والضوضاء والحركة مثل عش الأرانب حول ساحة واسعة مركزية، وفيه مئات المكاتب في كل طابق؛ وبما أننا كنا في إسبانيا، فلم يكن لدى أي أحد فكرة عن محل المكتب الذي كنت أقصده. ظللت أكرر جملة: "jefe de ingenieros, "E1 coronel Ejército de Este!" " وكان الناس يبتسمون ويهزون أكتافهم متأسفين. والذين كان لديهم وجهات نظر أرسلوني إلى مختلف الاتجاهات؛ صعوداً هذه الدرجات، ونزولاً في تلك، وعلى طول ممرات متشابكة قد يتبين أنها طرق مسدودة. وكان الوقت يتسرب بالتدريج. شعرت شعوراً غريباً بأنني في كابوس: الاندفاع صعوداً وهبوطاً، الناس الغامضون يروحون ويجيئون، النظرات الخاطفة من الأبواب المفتوحة على المكاتب التي تبدو فوضى تعلوها الأوراق في كل مكان، والآلات الكاتبة تدق، والوقت يتسرب بسرعة، وحياة شخص عزيز ربما كانت في الميزان.

مهما يكن الأمر وصلت إلى مقصدي قبل فوات الأوان. ولدهشتي جاءني الإذن بالمقابلة بسرعة. لم يكن الكولونيل بالذات هو الذي قابلني - لكن ملازمُه أو سكرتيره، ضابط شاب برتبة صغيرة ولباس نظامي بمنتهى الأناقة، وعيون واسعة فيها بعض الحوَل، خرج لمقابلتي واستجوابي في المكتب الملحق. وبدأت بصب قصتي صبّاً. لقد جئت لصلحة الضابط الذي أخدم بإمرته، الماجور جون كوب ، الذي كان في مهمة عاجلة إلى الجبهة واعتقل بالغلط. والرسالة إلى الكولونيل كانت ذات صبغة سرية ويجب استعادتها بدون تأخير. لقد خدمت مع كوب عدة أشهر، وكان ضابطاً على أعلى درجة من الكفاءة والأخلاق. ولاشك أن اعتقاله غلط، والبوليس التبس عليهم الأمر بشخص آخر، الخ، الخ، الخ. ظللت أُلح على أن مهمة كوب في الجبهة على غاية من الأهمية، لعلمي بأنها أقوى النقاط. لكن لاشك أن القصة بدت غريبة، خصوصاً بإسبانيتي الضعيفة التي كانت تنزلق إلى الفرنسية بين الحين والحين. والأسوأ أن صوتي قارب التلاشي، وكنت أبذل الجهد الشديد لإخراج بعض الفحيح. وكنت أخشى أن يختفي بالكلية وأن يمل الضابط الصغير من محاولة متابعة الاستماع إليّ. ولقد تساءلت كثيراً عن ظنه في ما حدث لصوتي - ماإذا كان حسبني مخموراً، أو أعاني من ضمير مثقل.

لكنه تابع الاستماع إليّ بصبر، وأومأ برأسه عدداً كبيراً من المرات، وأعطى موافقة متحفظة على كل ماقلت. نعم، يبدو أن ثمة غلطة ما حدثت. وواضح أن الأمر يجب النظر فيه في المانيانا. واحتججت فوراً: لا، لامانيانا! الأمر بالغ الإلحاح، وكوب مفروض وجوده في الجبهة الآن. وبدا أن الضابط على اتفاق معي هنا أيضاً. ثم جاء السؤال الذي كنت أخشاه:

"هذا الضابط كوب - ماالقوة التي كان يخدم فيها؟"

وصدرت عني الكلمة الرهيبة: "في ميليشيات الـp.o.u.m "

" ؟ p.o.u.m."

كنت أرجو أن أتمكن من أن أنقل إليكم مدى الصدمة التي ظهرت في صوته.

وعليكم أن تذكروا ماذا كانت تعتبر الـp.o.u.m في ذلك الحين. وكان الخوف المَرَضي من الجواسيس على أعلى درجاته. وربما كان كل الجمهوريين حتى الصالحين منهم قد صدّقوا ليوم أو يومين ماقيل عن الـp.o.u.m أنها منظمة جاسوسية تعمل لحساب الألمان. وأن تضطر إلى قول ماقلت على مسامع ضابط في الجيش الشعبي كان كالدخول إلى نادي الفرسان بعد افتضاح أمر الرسالة الحمراء والإعلان بأنك شيوعي. أخذت عيناه السوداوان تتفحصان وجهي مواربةً. وبعد فترة صمت طويلة قال بهدوء:

"وتقول إنك كنت معه في الجبهة! فأنت إذن كنت تخدم في الـp.o.u.m أيضاً، أليس كذلك؟"

"نعم ".

استدار ودخل إلى غرفة الكولونيل. وترامى إلى مسامعي محادثة حامية. وقلت في نفسي: "لقد انتهى كل شيء". لن نستطيع استعادة رسالة كوب . وقد اضطررت إلى الاعتراف بانتمائي إلى الـp.o.u.m بذاتي، ولاشك بأنهم سيهتفون للبوليس لاعتقالي. لالشيء إلا لوضع "تروتسكيّ " آخر في الخرج. لكن الضابط عاد بعد قليل، وهو يحكِم وضع قبعته على رأسه، وأشار إليّ بحزم أن أتبعه. كنا ذاهبين إلى ديوان رئيس البوليس. وكان الطريق طويلاً، عشرين دقيقة على الماشي. كان الضابط الصغير يمشي نظامياً متجمداً بالخطوة العسكرية. ولم نتبادل كلمة طوال الطريق. وحين وصلنا ديوان رئيس البوليس كان عصبة من أسوأ الناس مظهراً يتحلقون على الأبواب، رعاع، يبدو أنهم مخبرون وسعاة وجواسيس من كل نوع. ودخل الضابط الصغير. وحصلت محاورة طويلة ساخنة. فكنت تستطيع سماع الأصوات المحتدة ، وتتخيل الإيماءات والتلويحات، وهز الأكتاف والضرب على الطاولات. والظاهر أن البوليس كان يرفض تسليم الرسالة. لكن الضابط ظهر أخيراً، مكفهر الوجه، لكنه يحمل في يده مظروفاً رسمياً. كان رسالة كوب . لقد حققنا انتصاراً صغيراً – لم ينتج

عنه، كما تبين بعدئذ، أي فارق كبير. لقد وصلت الرسالة إلى المرسل إليه، لكن رؤساء كوب العسكريين عجزوا عن الحصول على إخلاء سبيله من السجن.

وعدني الضابط بتسليم الرسالة. قلت: وماذا عن كوب ؟ ألا نستطيع تدبير أمر إطلاق سراحه؟ هز الضابط أكتافه. كان هذا موضوعاً آخر. فهم لم يكونوا يعرفون سبب اعتقال كوب . لم يقل إلا بأن البحث اللازم سوف يجري؛ ولايمكن القول بأكثر من هذا. وقد حل وقت الافتراق. انحنى كلٌ منا قليلاً تحية للآخر. ثم فجأة حدث الشيء الغريب المؤثر. تردد الضابط الصغير لحظة، ثم تقدم خطوة، وشدّ على يدي مصافحاً.

لاأعرف ماإذا كنت أستطيع أن أعبر لكم كم أثر فيّ هذا العمل. إنه في الظاهر عمل صغير لاقيمة له، لكنه كان على العكس من ذلك. عليكم أن تقدروا الشعور السائد حينئذ - الجو المريع من الشك والكراهية، والأكاذيب والإشاعات التي تدور في كل مكان، حيث الملصقات تصرخ من أطرها بأنني وكل من كان على شاكلتي كان جاسوساً فاشيًّا. وعليكم أن تذكروا أننا كنا واقفين خارج مكتب رئيس البوليس، على مرأى من كل تلك الحثالة من الوشاة والنقَلة والعملاء المخربين agents provocateurs المتجمعة على الأبواب، والتي يمكن أن يلاحظ واحد منها أنني "مطلوب" من البوليس. كان هذا مثل المصافحة على المكشوف لألماني أثناء الحرب الكبرى. أظن أنه قرر في لحظة ما بأنني لم أكن في الواقع جاسوساً فاشيًّا؛ ومع هذا فقد كان حسناً منه أن يعمد إلى المصافحة.

أسجل هذا الذي يبدو أمراً عارضاً، لأنه بطريقة ما، يعبر عن إسبانيا الحقيقية - ومضات الشهامة التي تشاهدها عند الإسبان في أسوأ الظروف. إنني أحمل أسوأ الذكريات عن إسبانيا، وأجملها عن الإسبان. لاأذكر أنني غضبت غضباً جاداً من إسباني أكثر من مرة أو مرتين، وفي المناسبتين، حين أستعيدهما الآن، أعتقد أن الجانب المخطئ كان أنا. إنهم لاشك، أناس كرماء، عرق من النبلاء

لاينتمي في الحق إلى القرن العشرين. وهذا هو الذي يجعل المرء يأمل بأنه حتى الفاشيّة سوف تضطر إلى اتخاذ مظهر متراخ نسبيًا وصورة يمكن تحمّلها.

قليل جدًا من الإسبان يتصف بالصفات الكريهة من الكفاءة والاتساق التي تتطلبها الدولة التوتاليتارية المسيطرة الحديثة. وقد حصل تطبيق غريب لهذه الحقيقة منذ عدة ليال، حين اقتحم البوليس غرفة زوجتي في الفندق لتفتيشها. والواقع أن ذلك التفتيش كان أمراً طريفاً، وكنت أتمنى لو حضرته، بالرغم من أن من حسن حظي أنني لم أكن هناك، لأنني لم أكن لأستطيع كبح جماح أعصابي.

قام البوليس بالتفتيش بالطريقة المعروفة المأخوذة عن رجال الأجبو Ogpu أو الجستابو. في ساعات السحر بدأ الطرق على الباب، واقتحم ستة رجال طريقهم إلى الداخل، وأشعلوا الأضواء، واتخذوا فوراً مراكز لكل منهم في أنحاء الغرفة، والظاهر أنها مراكز محددة سلفاً. ثم فتشوا الغرفتين (كان ملحقاً بالغرفة حمام) بكل دقة. نقروا على الجدران، ورفعوا الأبسطة من الأرض، وتفحصوها، وتلمسوا الستائر، وتطلعوا تحت الحمّام، وداخل مشع التدفئة، وأفرغوا كل الأدراج من محتوياتها وكل الحقائب، وتحسسوا كل قطعة ملابس، ورفعوها إلى الضوء. وحجزوا كل الأوراق، بما فيها محتويات سلة المهملات، وكل الكتب معها. وأحسوا بما يشبه نشوة الانتصار حين وجدوا لدينا ترجمة فرنسية لكتاب هتلر "كفاحي". ولو كان الكتابَ الوحيد الذي وجدوه لكان قضي علينا . فالواضح أن الشخص الذي يقرأ كتاب هتلر لابد أن يكون فاشيًا. لكنهم بعد لحظة وقعوا على نسخة من كتيّب لستالين، هو "وسائل تصفية التروتسكيين وغيرهم من المزدوجي الولاء" فأعاد هذا طمأنتهم بعض الشيء. وفي أحد الأدراج كان هناك بعض المغلفات من ورق السجائر. وقد مزقوا كل مغلف قطعاً وتفحصوا الأوراق ورقة ورقة، لاحتمال وجود رسالة على إحداها. وقد قضوا في هذا العمل قرابة الساعتين. وبالرغم من هذا لم يفتشوا السرير. كانت زوجتي مستلقية على السرير طوال ذلك الوقت؛ والواضح أنه كان يمكن إخفاء

نصف دزينة من البنادق في السرير تحت الفراش، ناهيك عن مكتبة كاملة من الكتابات التروتسكية تحت المخدة. وبالرغم من هذا لم يلمس أولئك التحريّون السرير ولم يبحثوا تحته. ولأصدق أن هذا هو الروتين المعتاد الموصى به من الأوجبو الإيطالية. ويجب أن لاننسى أن البوليس كان تابعاً بالكلية للشيوعيين، وربما كان أولئك الرجال أعضاء عاملين في الحزب الشيوعي. لكنهم كانوا أيضاً من الإسبان، وإخراج المرأة من سريرها لتفتيشه كان كبيراً عليهم! وهكذا أهمل هذا الجانب من مهمتهم على الساكت، مما جعل تفتيشهم كله لامعنى له.

في تلك الليلة نمنا، أنا ومك ناير وكوتمان داخل بعض الحشائش الطويلة على حواف الأبنية في حارة مهدمة. كانت ليلة باردة بالنسبة لذلك الوقت من السنة فلم يتأتّ لنا النوم طويلاً. أذكر الساعات الطويلة المملة في التسكع قبل أن يتمكن المرء من الحصول على فنجان من القهوة. وللمرة الأولى منذ حللتُ برشلونة ذهبت لإلقاء نظرة على الكاتدرائية - المسماة بالحديثة. إحدى أقبح الأبنية في العالم. كان لها أربعة أبراج بشرفات، وبشكل يشبه قناني مشروب الهوك. وهي على خلاف معظم الكنائس في برشلونة نجت من التهديم أثناء الثورة - وكان هذا بحجة "قيمتها الفنية"، كما يقول الناس. وأظن أن الأناركيين دللوا على قلة ذوقهم الفني بعدم نسفها عندما كانت الفرصة سانحة. بالرغم من أنهم علقوا رايتهم الحمراء والسوداء بين برجين من أبراجها. وفي عصر ذلك اليوم عدت وزوجتي لرؤية كوب للمرة الأخيرة. لم يعد باستطاعتنا فعل شيء لأجله، لاشيء بالمرة. إلا القول وداعاً وترك بعض النقود لدى بعض الأصدقاء لتزويده بالطعام وبالسجائر. لكنه بعد وقت قصير من مغادرتنا برشلونة تم وضعه في "عدم الاتصال" ولم يعد يمكن حتى إرسال الطعام له.

وفي المساء، وأثناء مسيرنا في شارع الرامبلاس، مررنا بمقهى موكا، الذي كان الحرس الوطني لايزال يحتله بالقوة. وبدافع ما دخلت إلى المقهى وتحادثت مع

اثنين من أفراده كانا مستندين على منصته وبندقيتاهما معلقتان على كتفيهما. وسألتهما عما إذا كانا يعرفان أحداً من رفاقهما كان في الخدمة هنا أثناء أحداث مايو. ولم يكونا يعرفان أحداً. ولم يكونا يعرفان أيضاً كيف يمكن التوصل إلى من كانوا هنا. قلت لهما إن صديقي يوركي كوب في السجن وقد يحاكم لشيء له علاقة بأحداث مايو؛ وأن الرجال الذين كانوا في الخدمة هنا يعرفون أنه ساهم في وقف الاقتتال وأنقذ بعض أرواحهم؛ وأن عليهم أن يتقدموا ويؤدوا الشهادة بهذا المعنى. كان أحد الحارسين رجلاً كئيباً ثقيل المظهر دأب على هز رأسه لأنه لم يكن يستطيع سماع صوتي البحوح مع ضوضاء الشارع. لكن الآخر كان مختلفاً. قال إنه سمع بما فعله كوب من بعض رفاقه؛ وأن كوب كان buen chico (شاباً طيباً). لكنني حتى في ذلك الوقت كنت أعلم ألا فائدة من كل هذا. إذا كان كوب سيقدم إلى المحاكمة، فسيكون هذا بأدلة مصطنعة زائفة. وإذا أُعدم (وأخشى أن هذا كبير الاحتمال)، فسيكون هذا نعيه: أي الـbuen chico ، الصفة التي أطلقها عليه رجل الحرس الوطني الذي كان جزءاً من نظام قذر، لكن بقيت فيه بقية من الإنسانية بحيث يستطيع أن يميز أعمال الشهامة حين يشهد واحداً منها.

لقد كانت حياتنا غير اعتيادية ، بل لايقبلها العقل في تلك الأيام. في الليل كنا مجرمين مشردين، لكن في النهار كنا من الزوار الإنجليز الموسرين. هكذا كانت واجهتنا، على كل حال. وحتى بعد قضاء ليلة في العراء، فإن حلاقة للذقن، وحمّاماً، وتلميعاً للحذاء يؤدي شبه المعجزة لمظهرك. كان الأسلم في تلك الظروف أن تظهر بمظهر البورجوازي بقدر المستطاع. ارتدنا المناطق السكنية الراقية من المدينة، حيث لم تكن وجوهنا معروفة هناك، ودخلنا أغلى وأرقى المطاعم، وكنا إنجليز بكل معنى الكلمة مع الخدم. وللمرة الأولى في حياتي عمدت إلى الكتابة على الحيطان. فأصبحت ممرات عدة من المطاعم الفخمة تحمل على جدرانها عبارة Visca P.o.u.m.! . مكتوبة بأكبر قدر مستطاع من الحجم. وطوال كل تلك المدة التي كنت

فيها متوارياً، طريد القانون، لم أستطع أن أشعر نفسي بأنني في خطر. كان الأمر كله يبدو لعبة عبثية. مازال في أعماقي الاعتقاد الإنجليزي الذي لم يمكنني محوه من أن "هم" لايستطيعون اعتقالك إلا إذا خالفت القانون. وهو اعتقاد خطر جدًا في أزمان الاضطرابات السياسية. كان ثمة بلاغ باعتقال مك ناير، والاحتمال كبير بأن سائرنا كانت أسماؤهم على اللائحة أيضاً. كانت الاعتقالات والمداهمات، والتفتيش مستمرة دون توقف؛ عمليًا كان كل من نعرف، إلا من كان على الجبهة، صار الآن في السجن. بل إن البوليس كان يصعد إلى السفن الفرنسية التي كانت تنقل اللاجئين بأوقات منتظمة، ويعتقل من عليها كل من يشتبه بـ"تروتسكيّته".

وبفضل لطف القنصل البريطاني، الذي لاشك كان يعاني أسبوعاً صعباً، تمكنّا من إنهاء معاملة جوازات سفرنا بنجاح. والآن كلما أسرعنا بالمغادرة كان خيراً لنا. كان ثمة قطار مغادر إلى ميناء بو في السابعة والنصف، والمتوقع أن يغادر عمليًّا في الثامنة والنصف. واتفقنا على أن تطلب زوجتي سيارة أجرة مقدماً ثم تحزم أمتعتها وتدفع حسابها، وتغادر الفندق في آخر لحظة ممكنة. إذ لو أعطت موظفي الفندق فسحة كافية من الوقت فلاشك بأنهم سيتصلون بالبوليس. نزلت إلى المحطة حوالي السابعة لأجد أن القطار قد سبق وغادر - في السابعة إلا عشر دقائق. لقد غير سائق القطار رأيه، كالعادة. ولحسن الحظ تمكنا من إنذار زوجتي في الوقت المناسب. وكان هناك قطار آخر يغادر مبكراً في الصباح التالي. تناولنا عشاءنا، مك ناير وكوتمان وأنا، في مطعم صغير قرب المحطة. وبالسؤال الحذر عرفنا أن مدير المطعم كان من أعضاء اتحاد نقابات الـc.n.t، فهو صديق. فأجر لنا غرفة بثلاثة أسرة وتناسى أن يخبر البوليس. وكانت الليلة الأولى بعد خمس ليال أستطيع أن أنام وقد خلعت ثيابي. وفي الصباح التالي تسللت زوجتي من الفندق بنجاح. وتأخر القطار حوالي الساعة في المغادرة. شغلت الوقت بكتابة رسالة طويلة إلى وزارة الحربية، أشرح لهم فيها قضية كوب - وأنه من دون شك اعتقل بالخطأ، وأنه كان مطلوباً بسرعة في

الجبهة، وأن مالايحصى من الناس على استعداد للشهادة بأنه كان بريئاً من أي عدوان، الخ، الخ. وأتساءل هلَ قرأ احد الرسالة المكتوبة على ورق منتزع من دفتر ملاحظات بخط ركيك (كانت أصابعي ماتزال مشلولة جزئياً) وبإسبانية أشد ركاكة. وعلى كل حال لم يكن للرسالة ولا لأي شيء فعلناه أي أثر ظاهر. وأنا أكتب هذا، بعد ستة شهور من الأحداث، مايزال كوب في السجن (إلا إذا كان قد أعدم)، ليس متهماً ولا مقدّماً إلى محكمة. في البداية وصلنا رسالتان أو ثلاثة منه، هرّبها إلى الخارج السجناء المطلق سراحهم، ووضعت في البريد في فرنسا. وكلها تعيد القصة ذاتها - السجن في حجرات قذرة معتمة، الطعام السيّئ، المرض الخطير لسوء الأحوال في السجن، ورفض الإحالة إلى العناية الطبية. وقد تأكدت من هذا من عدة مصادر إنجليزية وفرنسية. وأخيراً اختفى في أحد "السجون السرية" التي يبدو أنه لايمكن إجراء أي اتصال بمن فيها. إن قضيته هي قضية العشرات أو المئات من الأجانب وما لايعرف أحد كم من الآلاف من الإسبان.

وأخيراً قطعنا الحدود بدون أية حادثة. كان في القطار درجة أولى وعربة طعام، وهي الأولى أجدها في إسبانيا. فحتى وقت قريب لم يكن في قطارات كاتالونيا إلا درجة واحدة . وقد جاء اثنان من رجال التحرّي إلى القطار يأخذان أسماء الأجانب، لكنهم حين رؤونا في عربة الطعام يبدو أنهما اقتنعا بأننا كنا محترمين. لقد كان عجيباً مقدار التغير الذي حصل. فمنذ مالايزيد على ستة الشهور، حين كان الزمام مايزال في أيدي الأناركيين، كان ذو المظهر البروليتاري هو المحترم. أذكر أنه في طريقي نزولاً من بيربيجنان إلى سيربير نصحني تاجر فرنسي رحال كان في العربة معي بكل رزانة: "يجب ألا تدخل إسبانيا بهذا المظهر. اخلع القبّعة وربطة العنق. وإلا مزقوهما من عليك في برشلونة". كان يبالغ طبعاً، لكن هذا يبين الفكرة عن برشلونة تلك الأيام. وعلى الحدود أعاد الحرس الأناركي رجلاً فرنسيًّا متأنقاً

وزوجته لالسبب إلاً لمظهره البورجوازي. أما الآن فقد انقلب الوضع، وأصبح المظهر البورجوازي طريق الخلاص. في مكتب جوازات السفر ضربوا أسماءنا على صندوق بطاقات المشبوهين، ولكن الفضل لقلة الكفاءة الإسبانية الإدارية والبوليسية فإن أسماءنا لم تكن مدرجة، حتى اسم مك ناير لم يكن وصل. وقد جرى تفتيشنا من الرأس إلى القدم لكن لم يكن في حوزتنا ما يجرمنا، إلا أوراق تسريحي، لكن الكارابينيري الذي فتشني لم يكن يعرف أن الفرقة ٢٩ كانت من الـp.o.u.m . وهكذا نفذنا من الحاجز، وبعد ستة شهور وجدتني على الأرض الفرنسية ثانية. وتذكاراتي الوحيدة من إسبانيا كانت زقّ مياه من جلد الماعز، ومصباح حديدي صغير من الذي يستضيء به الفلاحون في أراغون بحرق زيت الزيتون، مصباح بنفس شكل مصباح التيراكوتا الذي استخدمه الرومان منذ ألفي عام - والتقطته من أحد الأكواخ المهدمة، وعلق بطريقة ما بين حوائجي فلم يغادرها.

وبعد كل شيء يبدو أننا لم نتسرع بالخروج من إسبانيا. فأول جريدة رأيناها كانت تعلن اعتقال مك ناير بتهمة التجسس. وكانت السلطات الإسبانية مخطئة في إعلان هذا، لأن "التروتسكية" ليست من الجرائم التي تشملها معاهدات تبادل المطلوبين.

أتساءل ما أول مايجب أن يقوم به القادم من بلاد الحرب إلى أراضي السلم. أما أنا فكان عندي أن أهرع إلى أول كشك لبيع السجائر وأملأ جيوبي بها. ثم ذهبنا إلى الندوة وتناولنا الشاي، أول قدح من الشاي بالحليب الطازج أتناوله منذ شهور. وقد قضيت عدة أيام قبل أن أتعود على فكرة أن باستطاعتي شراء السجائر كلما أردتها. كنت كل مرة في شبه خشية من رؤية أبواب بائعي التبغ مغلقة وعلى الواجهة عبارة "ليس لدينا تبوغ"، وبالإسبانية!.

مك ناير وكوتمان كانا ذاهبين إلى باريس. أما أنا وزوجتي فقد غادرنا القطار في بانيولس، أول المحطات الفرنسية صعوداً في الخط، لشعورنا بالحاجة إلى الراحة. لم يحسنوا استقبالنا في بانيلوس حين عرفوا بأننا قادمون من برشلونة. وفي عدة مناسبات تورطت في مثل هذه المحادثة: "هل أنت قادم من إسبانيا؟ ومع أي جانب كنت تحارب؟ مع الحكومة؟ أوه! " - ثم يسود جو من البرود. يبدو أن تلك البلدة الصغيرة كانت مع فرانكو على طول الخط. ولاشك أن هذا يعود إلى اللاجئين الفاشيين الذين يصلون إليها بين الحين والحين. وكان الخادم في المقهى الذي ترددت إليه إسبانيًا من جماعة فرانكو وقد اعتاد أن يرمقني شذراً وهو يقدم لي خدماته، كمقبلات. وكان الوضع بالعكس في بيربينيان، التي كانت بصلابة مع المحازبين الحكوميين، وحيث كان مختلف الأطراف يتبادلون الكيد كلٌ منهم للآخرين، كما هو شأنهم في برشلونة. وقد كان فيها مقهى واحد تكفي كلمة p.o.u.m. فوراً لضمان الأصدقاء الفرنسيين والابتسامة العريضة من النادل.

أظن أننا قضينا ثلاثة أيام في بانيولس. كانت أياماً قلقة بصورة غريبة. ففي هذه المدينة الهادئة التي تعيش على صيد السمك، بعيداً عن القنابل والرشاشات والوقوف بالدور لشراء الأغذية والدعاية السياسية والمكائد، كان يجب أن نشعر عميقاً بالراحة والخلاص. لم نشعر بشيء من ذاك. فما عانيناه وشهدناه في إسبانيا لم يتراجع ويتضاءل بعد أن ابتعدنا عنه؛ وبدلاً من هذا كان يعود سريعاً ويتلبّسنا بأوضح مما كان. كنا لانفكر أو نتحدث أو نحلم إلا بإسبانيا. لقد ظللنا شهوراً نعِد أنفسنا بأننا "حين نخرج من إسبانيا" سوف نقصد مكاناً على البحر المتوسط ونتمتع بالهدوء لفترة، وقد نقوم ببعض صيد السمك؛ والآن وقد صرنا إلى هنا لم نعانِ إلا الملل وخيبة الأمل. كان الجو قارس البرد، والريح دائبة الهبوب من جهة البحر،

ومياه البحر قاتمة ومائجة، وحول الميناء أكوام الرماد والفلين وأحشاء السمك تتقاذفها الأمواج على الصخور.

قد يبدو لكم الأمر جنونيًا، ولكن الشيء الذي كان كلانا يريده كان العودة إلى إسبانيا! بالرغم من أنه قد لايأتي بفائدة، بل ويعود بأبلغ الضرر، إلا أننا تمنينا، كلانا، لو بقينا وغامرنا بالسجن مع الآخرين. وأخشى أن أكون فشلت في التعبير إلا عن أقل القليل مما كانت هذه الشهور في إسبانيا تعني عندي. لقد سجلت بعض الأحداث الخارجية البرّانية، لكنني لاأستطيع تسجيل المشاعر التي خلّفَتها في نفسي. وكلها ممزوج بالمناظر والروائح والأصوات التي لايمكن نقلها كتابةً: روائح الخنادق، الفجر ينتشر على سفوح الجبال إلى مسافات متمادية، فرقعات الرصاص الجليدية، وهدير القنابل ووميضها؛ النور البارد الصافي للصبح في برشلونة، ووقع الأحذية العسكرية الثقيلة على بلاط الساحة في الثكنة، سابقاً في ديسمبر حين كان الناس لايزالون يؤمنون بالثورة؛ وصفوف الدور للحصول على الطعام، والرايات بالأسود والأحمر، ووجوه رجال الميليشيا الإسبان؛ بل وجوه رجال الميليشيا الإسبان فوق كل شيء - رجال عرفت على خطوط النار، وهم الآن مشتتون فيما لايعلم إلا الله، بعضهم قتل، والبعض أصابه العطب، والبعض في السجن - لكن الغالبية، كما أرجو، سليمة معافاة. أتمنى لهم جميعاً الحظ السعيد؛ وأرجو أن ينتصروا في حربهم وأن يُلقوا بكل الأجانب إلى خارج إسبانيا، الألمان والروس والطليان. هذه الحرب، التي لم ألعب فيها إلا هذا الدور الضئيل غير المؤثر، قد خلّفت فيّ ذكريات معظمها مَقيت، ومع هذا لاأتمنى أن أكون لم أشهدها. وحين تكون قد أخذت ولو لمحة عن مثل هذه الكارثة - والحرب الإسبانية مهما كانت نهايتها التي ستصل إليها هي كارثة، فوق المذابح والمعاناة الجسدية - فإن النتيجة لن تكون بالضرورة مجرد العبث

وخيبة الأمل. العجيب أن التجربة بكليتها قد تركتني لاأقل إيماناً بل بإيمان أقوى بكرامة الإنسان. وأرجو أن تكون الرواية التي قدمتُ لاتنحرف كثيراً عن هذا الهدف. أعتقد تماماً أنه ليس من إنسان كان أو سيكون أو يستطيع أن يكون ملازماً للحق والحقيقة تماماً. فمن الصعب أن تكون متأكداً تماماً إلاّ مما شهدته بعينك، وسواء أكان واعياً أو عن غير وعي لايستطيع أحد أن يكتب إلا محازباً منحازاً. وفي حال كوني لم أقل هذا قبلاً في هذا الكتاب أقوله الآن: احذروا من انحيازي، ومن أخطائي في رواية الوقائع، ومن الاضطراب المتأتي من كوني لم أشهد إلا زاوية ضيقة من الأحداث. وكونوا على الحذر نفسه حين تقرؤون كتاباً آخر عن هذه المرحلة من الحرب الإسبانية.

ولأننا كنا نشعر بأن علينا أن نفعل شيئاً، رغم أننا في الحقيقة لم يكن لدينا شيء نفعله، غادرنا بانيولس بأبكر مما كنا ننتوي. ومع كل ميل قطعناه باتجاه الشمال كانت فرنسا تصبح أكثر رقة وخضرة. بعيداً عن الجبال والكروم، ورجوعاً إلى المروج وأشجار الدردار. حين مررت بباريس في طريقي إلى إسبانيا قبلاً بدت لي منحطة وكئيبة، مختلفة كثيراً عن باريس التي عرفت قبل ثماني سنوات، حين كانت المعيشة رخيصة ولم يسمع أحد بهتلر. نصف المقاهي التي كنت أرتادها أغلقت أبوابها لقلة الزبائن، والجميع كانوا مهووسين بتكاليف المعيشة والخوف من الحرب. أما الآن، وبعد رؤية إسبانيا الفقيرة، بدت لي حتى باريس بهيجة مزدهرة. وكان المعرض في الأوج بالرغم من أننا تمكنا من تجنّب زيارته.

ومن ثم إنجلترا، جنوبها، الذي قد يكون أودع وأسلم منظر طبيعي في العالم. يصعب عليك حين تمر منه، وخصوصاً إذا كنت تتعافى بهدوء من دوار البحر، والحشايا اللينة للقطار تحتك، أن تصدق أن أي شيء خارق يحدث في أي مكان في

العالم. الزلازل في اليابان، المجاعات في الصين، الثورات في المكسيك؟ لاتقلق، فالحليب سوف يكون على أعتاب منزلك في الصباح التالي. وجريدة النيوستيتسمان سوف تصدر يوم الجمعة. المدن الصناعية ماتزال بعيدة جدًا، خليطاً من الدخان والبؤس مخفيًّا عن الأنظار بفضل تكوّر سطح الكرة الأرضية. أما هنا في الأسفل فما أزال في إنجلترا التي عرفت وأنا صبي: قواطع مرور السكة الحديد تعلوها الأزهار البرية، والمروج الواسعة العميقة ترتادها الخيول اللامعة ترعى وتتأمل، والجداول التي تجري على مهل محفوفة بأشجار الصفصاف، ثم الصفوف الخضراء من أشجار الدردار، ونبات العلّيق في حدائق الأكواخ. فالبراري الواسعة المسالمة لضواحي لندن، والسفن الشاحنة على سطح النهر الموحل، فالشوارع المألوفة، والإعلانات عن مباريات الكريكيت، وحفلات الزواج الملكية، والرجال بالقبعات السوداء الإسطوانية، وأسراب الحمام في ساحة الطرف الأغر، والباصات الحمر، ورجال البوليس بالأزرق - كله ينام نوماً عميقاً، نوم لندن السلمي، الذي أخشى أحياناً ألا نفيق منه إلا بعد أن تنبهنا منه أصوات القنابل.

عودة إلى الحرب الإسبانية

(بعد ست سنوات — ١٩٤٣)

looking back
on the spanishwar

١

أولاً الذكريات الحسية، الأصوات والروائح وظاهر الأشياء.

الغريب أن أبرز ماخلفته الحرب الإسبانية وضوحاً في ذاكرتي هو ذلك الأسبوع الذي زعموا أنه التدريب الذي خضعنا له قبل إرسالنا إلى الجبهة - ثكنات الخيالة الواسعة في برشلونة بإسطبلاتها المهوّاة وساحاتها المبلطة، والماء المتجمد من المضخة التي كنا نغتسل منها، الوجبات السيئة الإعداد والنظافة والتي لايمكن تحملها إلا بدعمها بقصعات من النبيذ، والنساء المتطوعات في الميليشيات يلبسن البناطيل النظامية ويعملن في تكسير الحطب، ونداء الأسماء لأخذ التفقد في الصباح الباكر، حيث كان اسمي الإنكليزي الغريب على اللسان الإسباني، يصدر وكأنه فاصل هزلي بين الأسماء الإسبانية الطنانة من مثل مانويل جونزاليز، وبيدرو أجويلار، ورامون فينيلّوسا، روكوي بيّاستير، جايمي دومينيخ، سيباستيان فيلترون، رامون نوفو بوش. أذكر أسماء هؤلاء الرجال بالذات لأنني أعرف وجه كل واحد منهم. ماعدا اثنين منهم كانا من الأوباش ولابد أنهما الآن أصبحا كتائبيين صالحين. ربما يكونون جميعاً قد أصبحوا من القتلى. وأنا أكيد بأن اثنين منهما قتلا. الكبير منهما لو عاش لكان في الخامسة والعشرين، والأصغر كان يصل إلى السادسة عشرة.

إحدى الورطات الأساسية في معاناة الحرب هي عدم القدرة على إخفاء الروائح الصادرة عن البشر. والمراحيض هي من المواضيع التي قتلتها آداب الحرب بحثاً وذكراً، وما كنت لأعيد ذكرها لو لم تكن المراحيض في ثكناتنا قد أدت دوراً كبيراً مهماً في تمزيق أوهامي عن الحرب الأهلية الإسبانية. النوع اللاتيني من المراحيض، وعليك فيه أن تجلس القرفصاء. هو لهذا سيئ حتى في أحسن حالاته،

لكن مراحيضنا صنعت من نوع من الحجارة الصقيلة الزلقة بحيث تكون القرفصاء هي الطريقة الوحيدة للبقاء على قدميك على كل حال. يضاف إلى هذا أنها ظلت أبداً مسطومة. والحق أن في ذاكرتي الكثير من الأشياء المقرفة، لكنني أعتقد أن المراحيض هي أول مادفعني إلى التأمل، مراراً وتكراراً: "هانحن هنا، عساكر الجيش الثوري، ندافع عن الديمقراطية ضد الفاشيّة، أي نخوض حرباً لهدف نبيل، وتفاصيل حياتنا هي من السوء والانحطاط بحيث تقارن بالحياة في السجون، دع عنك مقارنتها بالحياة في الجيوش البورجوازية". وبعدئذ ساهم كثير من الأشياء الأخرى في تعزيز هذا الانطباع؛ مثلاً السأم والجوع الحيواني في حياة الخنادق، المكائد الحقيرة حول فتات الطعام، المشاجرات بين الرجال الذين أفقدهم التعب والسهر القدرة على التحمل.

أن الأهوال الأساسية للحياة العسكرية (وكل من كان جنديًّا يعرف المقصود من قولي بالأهوال الأساسية للحياة العسكرية) لاتختلف باختلاف طبيعة الحرب التي تخوضها. النظام ،مثلاً، هو هو ذاته في النهاية في جميع الجيوش. الأوامر يجب أن تطاع، وتفرض بالقوة والعقوبة عند الضرورة. العلاقة بين الضابط والجندي لابد من أن تكون علاقة الأعلى بالأدنى. صورة الحرب كما عرضت في مثل [رواية] "كل شيء هادئ على الجبهة الغربية" هي في جوهرها صحيحة. طلقات الرصاص مؤذية، والجثث تتعفن، والرجال تحت النار كثيراً ماينتابهم الخوف بحيث يبولون في سراويلهم. صحيح أن الخلفية الاجتماعية للجيش تساهم في تلوين تدريبه، وتكتيكاته، وكفاءته القتالية، ثم إن الإيمان بالوجود مع الجانب الأحق يرفع من المعنويات، لكن هذا ينطبق على الأهالي المدنيين، لاعلى الجنود. (الناس يتناسون أن الجندي إذا كان قريباً من خطوط الجبهة يكون في العادة من الجوع، أو الخوف، أو البرد. وفوق هذا، من التعب بحيث لايهتم بالأسس السياسية للحرب.) إن الطبيعة لاتعلّق قوانينها للجيش "الأحمر" أكثر مما تفعل هذا للجيش "الأبيض".

القملة قملة. والقنبلة قنبلة. بالرغم من أن القضية التي تحارب من أجلها عادلة تماماً.

ما الداعي إلى النص على ماهو بهذا الوضوح؟ لأن الغالبية العظمى من المثقفين الإنتلجنسيا، البريطانيين والأمريكان لم يكونوا واعين لها، وكذلك هم الآن. إن ذكرياتنا قصيرة المدى هذه الأيام، لكن عد إلى الماضي قليلاً، نقّب في ملفات صحيفتي النيوماسس، والديلي ووركر [يساريتين]، وألقِ بنظرة على التهييج الرومانسي للحرب الذي كان يصبّه جماعة الجناح اليساري عندنا صبًّا. كل تلك العبارات المجوجة القديمة! والجلافة وقصور الخيال المرافقة لها! والبرود الذي قابلت به لندن قصف مدريد! هنا لايهمني أصحاب الدعاية المضادة اليمينيون، أمثال لانز وجارفنز ومَن "مِن جنسهم" et hoc genus ؛ فهذا ينطبق عليهم من بابٍ أوْلى. لكن خذوا أولئك الآخرين الذين ظلوا عشرين عاماً يتهكمون على "أمجاد" الحرب، وعلى قصص الفظائع المرتكبة، وعلى الوطنية، بل حتى على الشجاعة الجسدية، وخرجوا بمواد، إذا تغيرت بعض الأسماء فيها تصبح ملائمة للنشر في "الديلي ميل" [اليمينية] سنة ١٩١٨. وإذا كان من شيء يمكن اعتبار الإنتلجنسيا المتنورة البريطانية ملتزمة به فهو رواية الفضائح عن الحرب، نظرية أن الحرب كلها جثث ومراحيض، بدون نتائج خيرة. هذا طيب. لكن نفس الأشخاص الذين كانوا سنة ١٩٣٣ يسخرون منك إذا أبديت استعدادك للحرب في سبيل وطنك إذا مست الحاجة، هم الذين صاروا سنة ١٩٣٧ يصمونك بالتروتسكية والفاشيّة إذا شككت بقصص جريدة "الجماهير الجديدة" (نيو ماسز) عن الجرحى الذين يطلبون العودة إلى القتال، واعتبرتَها مبالغة. وهذا الانقلاب لليساريين من "الحرب جحيم" إلى "الحرب المجيدة" لم يكن فقط بدون الإحساس بالتناقض، بل كان أيضاً فجائيًّا بدون مراحل وسطى. وقد شهدنا لهم بعدئذ انقلابات لاتقل عن هذه عنفاً. فلاشك أن عدداً كبيراً من الناس، قد يؤلفون الكتلة المركزية من الإنتلجنسيا، وافقوا على

شعار "الملك والوطن" سنة ١٩٣٥، ثم هتفوا منادين بالوقوف "صفًا واحداً ضد ألمانيا" سنة ١٩٣٧، ثم أيدوا المؤتمر الشعبي سنة ١٩٤٠، وهم يطالبون الآن [١٩٤٣] بفتح جبهة ثانية.

أما عن الجماهير الشعبية، فإن التحولات غير المعتادة التي تجري هذه الأيام، والعواطف التي تستثأر وتُخمد مثل فتح وإغلاق صنبور المياه، ليست إلا نتيجة التنويم في الجرائد والراديو. أما عند الإنتلجنسيا فيمكنني القول إنها نتيجة الأموال وإيثار السلامة الشخصية. وفي كلتا اللحظتين اللتين يكونون فيهما "ضد الحرب" أو "مع الحرب" لايكون في أذهانهم صورة واقعية عن الحرب. حين كانوا متحمسين للحرب الإسبانية كانوا يعرفون، طبعاً، أن البشر كانوا يقتلون، وأن هذا غير مستطاب. لكنهم كانوا يشعرون أن تكون جنديًا في الجيش الجمهوري الإسباني ليس أمراً مشيناً، أصبحت رائحة المراحيض، بطريقة ما، أقل سوءاً، والنظام أقل عبئاً. وماعليك إلا أن تلقي نظرة واحدة على جريدة النيو ستيتسمان لترى أنهم يعتقدون بهذا؛ ونفس الشيء بالضبط يقال الآن عن الجيش "الأحمر". لقد أصبحنا مبالغين بالحضارة بحيث لم يعد باستطاعتنا التقاط الواضح البديهي. الحقيقة بسيطة جدًا. لكي تنجو وتعيش عليك أن تقاتل، والقتال يفرض عليك توسيخ نفسك. الحرب شر، لكن كثيراً ماتكون الشر الأقل، الذي لابد منه. والذين يشهرون السيف يؤخذون بالسيف، والذين لايُشهرون السيف تقتلهم الأمراض ذات الروائح الكريهة. وواقعة أن هذه الأمور التافهة لابد من الكتابة فيها تدلّ على الدرك الذي أوصلتنا إليه الرأسمالية الربحية.

٢

إليكم تذييلاً يتعلق بما قلت آنفاً، وموضوعه الفظائع.

ليس لديّ إلا القليل من الدلائل المباشرة على الفظائع المرتكبة في الحرب الأهلية الإسبانية. أعرف أن البعض منها ارتكبه الجمهوريون، والأكثر منه بكثير، (ومازال يحدث) ما ارتكبه الفاشيّون. لكن ما تأثرت منه حينئذ، ومازال يؤثر فيّ حتى الآن، هو أن الفظائع تصدّق أو تكذّب على أساس واحد وحيد، هو التعاطف السياسي. الكل يصدق بقصص فظائع العدو، ويكذب قصص فظائع الجانب الذي هو معه، بدون أن يكلف نفسه عناء التفحص أو البرهان. وقبل قليل سجّلتُ لائحة بالفظائع المرتكبة في المرحلة منذ ١٩١٨ حتى الآن؛ لم تخل سنة من فظائع كانت تحدث هنا أو هناك، ولم أجد أية حادثة بالذات اتفق اليمين واليسار على روايتها معاً. والأشد غرابة أنه في أية لحظة قد ينقلب الوضع فجأة بحيث تصبح القصة التي كانت البارحة ثابتةً بلا شك، كذباً مفضوحاً يدعو للسخرية، والسبب فقط أن المشهد السياسي قد تغير.

في الحرب الحالية نجد أنفسنا في وضع عجيب هو أن "حملة الفظائع" كانت على أشدها حتى قبل اندلاع الحرب ، وقد قام بالقسم الأعظم منها اليسار الذين يتباهون في العادة بصدق كلامهم. في الوقت الذي كان فيه اليمينيون، تجار الفظائع في حرب ١٩١٤-١٨، يتطلعون إلى ألمانيا النازية، ويرفضون إطلاقاً رؤية أي جانب شرير لها. وما أن اندلعت الحرب حتى اندفع مؤيدو النازية البارحة في الحديث عن فظائعها وأهوالها اليوم. بينما وجد أعداء النازية البارحة أنفسهم يشككون حتى بوجود الجستابو. ولم يكن هذا نتيجة الحلف الألماني- الروسي. كان بسبب أنه قبل الحرب ظن اليسار، مخطئاً، بأن بريطانيا وألمانيا يستحيل أن يتحاربا، فكانوا بالتالي يمكنهم *أن يكونوا معارضين لألمانيا، ومعارضين لبريطانيا في نفس الوقت. كما* يعود هذا جزئيًا إلى أن الدعاية الحربية، لنفاقها الظاهر وتبجحها المكشوف، تجعل

الناس الذين يفكرون بعقولهم، يعطفون على العدو. وقد كان جزء من الثمن الذي دفعناه لكذبنا المنظم عن العدو بين سنتي ١٩١٤-١٧ أننا بالغنا في رد فعلنا بالانحياز إلى ألمانيا في المرحلة التي تلت. وبين سنتي ١٩١٨-٣٣ كنت تتعرض لسخرية في المحافل اليسارية إذا ألمحت إلى أن ألمانيا تتحمل ولو قليلاً من المسؤولية عن الحرب. وبين كل الإدانات [لاتفاق] فرساي التي سمعتها طوال تلك الفترة لم أسمع ولو مجرد ذكرٍ للسؤال التالي: "ماذا كان ليحدث لو ربحت ألمانيا الحرب؟". والشيء نفسه ينطبق على الفظائع. الحقيقة، بحسب الشعور السائد، تصبح باطلاً إذا صدرت عن عدوك. وقد لاحظت أخيراً أن نفس الأشخاص الذين ابتلعوا كل قصة إرهاب عن اليابانيين في نانكين سنة ١٩٣٧ رفضوا أن يصدقوا نفس القصص عن هونغ كونغ سنة ١٩٤٢. بل كان ثمة ميل عام للإحساس بأن فظائع نانكين الماضية أصبحت، قياساً، غير صحيحة لأن الحكومة البريطانية لفتت الأنظار إليها.

لكن لسوء الحظ، إن الحقيقة عن الفظائع هي أسوأ بكثير من أنها نوع من الكذب يستعمل في الدعاية السياسية. الحقيقة هي أن الفظائع تحدث بالفعل. وهذه الوقائع أصبحت تتخذ ذريعة للتشكيك فيها - وهي أن نفس قصص الفظائع تستعاد عند اندلاع كل حرب - الأمر الذي يزيد من احتمال كونها كذباً. الواضح أنها خيالات واسعة الانتشار، تأتي الحروب فتكون فرصة لوضعها موضع التطبيق. ومع الأسف، بالرغم من أن القول التالي لم يعد شائعاً كما كان، فإنه ليس من شك في أن الجيوش "البيضاء" [اليمينية] ترتكب من الفظائع ماهو أكثر وأسوأ من تلك "الحمراء". فليس من أدنى شك مثلاً في تصرف اليابانيين في الصين. كما أنه ليس من شك في الذيل الطويل من الكوارث الذي يجره الفاشيون وراءهم في جميع أنحاء أوروبا خلال السنوات العشر الماضية. حجم الشهادة بهذا كبير، وجزء لايستهان منه مصدره الصحافة والراديو الألمانيان. فهذه الأشياء تحدث فعلاً، وعلى المرء أن يُبقي هذا نصب عينيه. الاغتصاب والمذابح في المدن الصينية، التعذيب في أقبية الجستابو، والأساتذة من شيوخ اليهود يلقى بهم في المجارير، وإطلاق نيران الرشاشات على قوافل النازحين على الطرق الإسبانية - هذه كلها أحداثٌ حدثت، وهي لم تحدث فقط لأن الديلي تلجراف [يمينية] قد اكتشفت حدوثها متأخرة خمس سنوات.

٣

اثنتان من ذكرياتي، الأولى منهما لاتثبت شيئاً مخصّصاً، والثانية أظن أنها تعطي القارئ لمحة عن الجو السائد أثناء الفترة الثورية:

ذات صباح خرجت ورجلاً آخر للقنص على الفاشيين في الخنادق حول هويسكا. كانت خطوطهم وخطوطنا لاتبعد عن بعضها أكثر من ثلاثمئة ياردة، وعلى ذلك المدى لايمكن لبنادقنا القديمة أن تصيب بدقة، لكن عند التسلل إلى نقطة تبعد حوالي المئة ياردة عن الخنادق الفاشيّة، يمكنك بقليل من الحظ أن ترمي طلقة على شخص ما من خلال فجوة في متاريسهم. ولسوئه كانت الأرض الفاصلة حقلاً منبسطاً مزروعا بالشمندر لايوفر تغطية إلا في بضعة خنادق. فكان لابد من الخروج في عتمة السحَر، قبل أن يقوى ضوء الفجر. وفي هذه المرة لم يظهر لنا أحد من الفاشيين، وقد طال غيابنا وقارب ضوء الفجر أن يفضحنا. كنا في الخندق، لكن وراءنا مئتا ياردة من الأرض الفضاء لاتخفي حتى أرنباً. وكنا نهيّيء أعصابنا للاندفاع رجوعاً حين صدرت ضجة والنفخ في الصفارات من الخندق الفاشي. كانت بعض طائراتنا تقترب. وفي تلك اللحظة قفز رجل، يبدو أنه ذاهب برسالة إلى أحد الضباط من خندقه وأخذ يركض على حائط المتراس مكشوفاً تماماً. لم يكن يرتدي ملابسه كلها، وكان يمسك بنطاله بكلتا يديه وهو يركض. أنِفتُ من إطلاق النار عليه. صحيح أنني رامٍ سيئ والاحتمال ضئيل في إصابتي رجلاً يركض على بعد مئة ياردة، يضاف إلى هذا أن ذهني كان مشغولاً بالعودة واستغلال ساعة انشغال الفاشيين بالغارة الجوية القادمة. لكنني لم أطلق النار بسبب ذلك الوضع التافه المتعلق بالبنطال. لقد جئت إلى هذه البلاد لإطلاق النار على "الفاشيين"؛ لكن الرجل الذي يشد بنطاله بيديه ليس

"فاشيًّا"، إنه، كما هو واضح مخلوق، مثل سائر المخلوقات أمثالنا، فلا يسرّك إطلاق النار عليه.

ماذا تعرض هذه الحادثة؟ إنها لاتعرض الكثير، لأنها من الكثير الذي يحدث طول الوقت في الحروب. أما الذكرى الثانية فمختلفة. ولاأفترض بروايتها أن أؤثر فيكم يامن تقرؤونها، لكنني أسألكم التصديق بأنها كانت مؤثرة فيّ كثيراً، لأنها تصور الجو الأخلاقي والمعنوي في تلك اللحظة بالذات من الزمان.

كان أحد المتطوعين الذين انضمّوا إلينا حين كنت في الثكنات صبي بمظهر وحشي من الحواري الخلفية من برشلونة. كان رث الثياب وحافياً. وكان شديد السمرة (للدم العربي في عروقه، كما أظن)، وكان يومئ إيماءات لايؤديها الأوروبيون في العادة؛ إحداها على وجه الخصوص – مد الذراع، وراحة الكف إلى الأعلى – من الإشارات المتعارفة عند الهنود. وفي أحد الأيام أضعت رزمة من السيجار، وكان في تلك الأيام يمكن شراؤها برخص التراب، سرقت من حوائجي في المهجع. وبلحظة غباء مني أبلغت هذا للضابط، فتقدم واحد من الحثالة التي ذكرت سابقاً وأعلن كذباً أنه هو أيضاً سرق منه مبلغ خمس وعشرين بيزيتا. ولسبب ما قرر الضابط فوراً أن الشاب الأسمر لابد أن يكون هو السارق. وكانوا شديدين جداً على السرقة في الميليشيات، ونظريًّا يمكن أن تصل عقوبتها إلى الإعدام. وقد انصاع الصبي المنحوس عندما اقتيد إلى غرفة الحرس وبدأ تفتيشه. وما صدمني أنه لم يحاول حتى الاحتجاج ببراءته. وفي تسليمه المطلق للأقدار كنت ترى الفقر المدقع الذي نشأ فيه. وقد أمره الضابط بخلع ملابسه كلها. وبكل الذل الذي أثار هلعي خلع ملابسه وبقي عارياً تماماً، وجرى تفتيش ثيابه بدقة. وبالطبع لم يعثر على شيء من السيجار ولامن النقود عنده. والحق أنه لم يسرقهم أصلاً. والمؤلم أشد الإيلام كان شعوره بالعار والخجل حتى بعد أن ثبتت براءته. في تلك الليلة دعوته إلى الخروج إلى السينما وأضفته من البراندي والشوكولاته. لكن هذا أيضاً كان رهيباً – أعني محاولة غسل

أذيتي له بالنقود. لقد صدّقت قليلاً، للحظة واحدة، أنه كان لصًّا، وهذا عندي مما لايمكن محوه.

طيّب. وبعد عدة أسابيع صرنا في الجبهة، وكنت أعاني بعض المتاعب مع الرجال في حظيرتي. كنت في ذلك الوقت قد ترفعت إلى رتبة "كابو" أي عريف، وبإمرتي اثنا عشر رجلاً. كانت حرباً خامدة، والبرد مريع شديد، وعملي الرئيسي كان إبقاء الحرس مستيقظين في محارسهم. وفجأة رفض أحد الرجال الذهاب إلى محرس معين، وقال عنه بحق أنه عرضة لنيران الأعداء. كان مخلوقاً ضعيفاً، فأمسكت به أسحبه باتجاه المحرس سحباً. وهذا أثار مشاعر الآخرين، لأن الإسبان على ماأظن ينفرون من الملامسة الجسدية أكثر منا. وفي لحظة رأيتني محاطاً بحلقة من الرجال المتذمرين: "فاشي! فاشي! خلّ سبيل الرجل! نحن لسنا في جيش بورجوازي. يافاشي! " الخ، الخ. وبقدر ما استطعت بإسبانيتي السيئة أخذت أصرخ بالمقابل بأن الأوامر يجب أن تطاع، وانقلب الشجار إلى نوع من المجادلات الطويلة التي بها يمكن فرض النظام تدريجاً في الجيوش الثورية. قال البعض إن الحق معي، وقال غيرهم بأن الحق عليّ. المهم هنا أن أكبر المتحمسين إلى جانبي كان ذلك الفتى الأسمر. فما إن رأى مايحدث حتى هبّ واقفاً في الحلقة، وبدأ يدافع عني بحماس. وبتلويحته الهندية الغريبة تلك كان يشرح رأيه فيّ 'إنه أحسن عريف عندنا!'. وبعد مدّةٍ تقدم بطلب مبادلة لينتقل إلى حظيرتي.

لم كانت هذه الحادثة حساسة عندي؟ لأن الأحاسيس الطيبة المتبادلة بيني وبين ذلك الفتى كان يستحيل توطيدها لو كنت أنا في حياتي المعتادة. وتلك التهمة الظالمة بالسرقة ماكان أثرها لتمحوه، بل ربما عمّقته، محاولتي التعويض والاعتذار. إحدى آثار الحياة المتمدنة الآمنة هي زيادة الحساسية عن الحد بحيث تصبح كل العواطف البدائية مؤلمة ومنفرة. السماحة مؤلمة بقدر السفالة، وعرفان الجميل كريه بقدر إنكاره. لكن في إسبانيا سنة ١٩٣٦ لم نكن نعيش في عهد عادي. كان عهداً

الأحاسيسْ والمبادرات الكريمة فيه أسهل مما هي في العادة. إن عندي عشرات الحوادث المماثلة، قد لايمكن التعبير عنها، لكنها راسخة في ذهني ومرتبطة بالجو الذي كان سائداً هناك، الملابس الرثة والإعلانات الثورية الزاهية الألوان، الاستعمال العالمي لكلمة "رفيق"، الأناشيد المعادية للفاشية مطبوعة على ورق خشن وتباع ببنس واحد، العبارات من مثل "التلاحم البروليتاري الدولي" تصدر على ألسنة رجال أميين اعتقدوا بأنها لاشك ذات معنى. هل تستطيعون الشعور بالود نحو رجل، وتنبرون للوقوف معه في خصام علني، بعد أن يجري تفتيشكم بحضوره بصورة مزرية بحثاً عن أشياء يفترض أنكم سرقتموها منه؟ لا، ليس هذا باستطاعتكم؛ لكن ربما أمكنكم هذا إذا مررتم بتجربة توسع مجال عواطفكم. وهذه إحدى النواتج الثانوية للثورة، بالرغم من أنها لم تكن في حالتنا هذه إلا بداية ثورة، وواضح أنها مكتوب عليها الفشل.

٤

الصراع على السلطة بين فرقاء الجمهورية الإسبانية أمر مؤسف، وهو أصبح بعيداً بحيث لاأنوي إثارته من جديد الآن. لاأذكره هنا إلا لأقول: لاتصدقوا شيئاً، أي شيء تقريباً، مما تقرؤوه عن الأمور الداخلية صادر من جانب الحكومة. إنها جميعاً، ومن أي مصدر جاءت، دعاية حزبية - أي كذب بكذب. أما الحقيقة العريضة عن الحرب فهي بسيطة جدًا. رأت البورجوازية الإسبانية فرصة لتحطيم الحركة العمالية، فانتهزتها، مدعومة بالنازية وبالقوى الرجعية في العالم أجمع. ويصعب تخيل إمكان إثبات مايفوق هذا.

أذكر قولي لآرثر كويستلر: "لقد توقف التاريخ سنة ١٩٣٦". وقد أومأ برأسه إشارة التفاهم. كنا نفكر بالتوتاليتارية المتسلطة عموماً، وبالحرب الأهلية الإسبانية خصوصاً. لقد اقتنعت منذ مرحلة مبكرة من حياتي بأنه مامن حادثة تنشرها الصحف على حقيقتها. لكنني رأيت في إسبانيا للمرة الأولى في حياتي صحافة تنشر مالاعلاقة له بالوقائع إطلاقاً. حتى ولا الحقيقة المتضمنة في الكذب العادي. قرأت عن معارك عظيمة حيث لم يجر في الحقيقة أي قتال، ورأيت الصمت المطبق مع مقتل المئات من الجنود. رأيت الجنود الذين حاربوا ببسالة يدانون ويوصفون بالجبن والخيانة، وغيرهم ممن لم يطلقوا طلقة واحدة يمجدون أبطالاً بانتصارات مختلقة؛ رأيت صحفاً في لندن توزع هذه الأكاذيب بالمفرق ومفكرين متنورين يبنون هياكل عاطفية زائفة على أحداث لم تحدث أصلاً. الواقع أنني رأيت التاريخ يُكتب لابحدود ماوقع، بل بحدود ماكان يجب أن يقع بحسب مختلف "الخطوط" الحزبية. وبالرغم من هذا، ومن كل فظاعته وشناعته، فإنه ليس شديد الأهمية. إنه

لايخص إلا قضايا جانبية - وهي الصراع بين الكومنترن [جماعة الاتحاد السوفييتي] وبين الأحزاب اليسارية الإسبانية، وجهود الحكومة الروسية في إجهاض الثورة في إسبانيا. لكن الصورة العريضة التي أبدتها الحكومة الإسبانية للعالم لم تكن بعيدة عن الحقيقة. والمواضيع الرئيسة هي فعلاً ماقالت إنها إياها. لكن ماذا عن الفاشيين وأنصارهم؟ كيف يمكن أن يقتربوا من الحقيقة حتى إلى هذا الحد الهزيل؟ كيف يمكنهم الإعلان عن نواياهم الحقيقية؟ لقد كانت رواياتهم عن الحرب خيالاً محضاً، وفي تلك الظروف لم يكن بيدهم إلا أن يفعلوا هذا.

خط الدعاية الوحيد الذي ظل مفتوحاً أمام النازيين والفاشيين هو تقديمهم أنفسهم كوطنيين مسيحيين يخلصون إسبانيا من الدكتاتورية الروسية. وهذا يستدعي إظهار الحياة في الجمهورية الإسبانية بأنها مجزرة طويلة متمادية. (انظر جريدتي الكاثوليك هيرالد والديلي ميل - لكنهما لعب أطفال بجانب الصحافة الفاشيّة في أوروبا القارية)، ومنها تضخيم مدى التدخل الروسي. ومن ذلك الهرم المتراكم من الأكاذيب التي طلعت بها الصحافة الكاثوليكية والرجعية في كافة أنحاء العالم، أختار نقطة واحدة - وهي وجود جيش روسي في إسبانيا. والمحازبون المخلصون لفرانكو صدّقوا جميعاً بهذا؛ وقدّروا قوته بما يصل إلى نصف مليون رجل. لكن لم يكن في إسبانيا أي جيش روسي. ربما كان حفنة من الطيارين وغيرهم من الفنيين، بضع مئات على أكثر تقدير، أما جيش كامل، فلا. لقد حارب في إسبانيا آلاف الأجانب، ناهيك عن ملايين الإسبان، وكلهم شاهد على هذا. لكن شهادتهم لاتعدل شيئاً عند دعائيي فرانكو، الذين لم تطأ قدم واحد منهم أرض إسبانيا الجمهورية. وفي الوقت ذاته ينكر هؤلاء الناس واقعة التدخل الألماني والإيطالي في نفس الوقت الذي تتبجح فيه الصحافة الألمانية والإيطالية بمنجزات الفرق التابعة لها. وقد

اخترت ذكر هذه النقطة وحدها، لكن الواقع أن الدعاية الفاشيّة عن الحرب كلها بهذا المستوى.

هذا الشيء يثير الرعب في نفسي، لأنني غالباً ما أشعر منه بأن مفهوم الحقيقة الموضوعية يبهت ويتلاشى من العالم. ثم إن هناك فرصة كبيرة بأن بعض هذه الأكاذيب، على الأقل سيتسرب إلى التاريخ. فكيف سيكتب تاريخ الحرب الإسبانية؟ إذا ظل فرانكو في الحكم فسيتولى من يعينهم هو كتابة التاريخ، وبالنسبة للنقطة التي أثرتها بالذات سيصبح وجود الجيوش الروسية في إسبانيا واقعة تاريخية، وسيتعلمها أبناء المدارس بعد جيل من الآن. لكن حتى لو اندحرت الفاشية في القريب العاجل وأعيد إلى البلاد ضرب من الحكم الديموقراطي؛ حتى حينئذ، كيف سيكتب تاريخ الحرب في إسبانيا؟ ما السجلات والمصادر التي سيخلفها فرانكو وراءه؟ وحتى لو استعيدت السجلات التي كانت لدى الجانب الحكومي [الجمهوري]، فكيف يمكن كتابة تاريخ تلك الحرب؟ لأنه، كما أشرت سابقاً، حتى ذلك الجانب تعامل بالأكاذيب. فمن الجانب المضاد للفاشية قد يتمكن المرء من كتابة تاريخ عريض للحرب صحيح نسبيًّا، لكنه سيكون تاريخاً حزبيًّا منحازاً، لايعتمد عليه في كثير من النقاط. وبالرغم من هذا سوف يكتب تاريخ ما لهذه الحرب، وبعد أن يكون شهود العيان قد أصبحوا أمواتاً جميعاً، فسيقبل هذا التاريخ ويسلّم به. وهكذا فكل الدواعي العملية تبشر بأن الكذب سوف يصبح حقيقة.

أعرف أن المتعارف السائد هو أن كل التاريخ المسجل كذب بكذب. وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن التاريخ المسجل في معظمه غير صحيح ومتحيز، لكن مايتميز به عصرنا هو نبذ فكرة أن التاريخ يمكن كتابة الحقيقة فيه. في الماضي كان الناس إما يكذبون متعمدين، أو يلونون قصصهم بدون قصد، أو يسعون وراء الحقيقة وسع

الطاقة، مدركين بأنهم سوف يرتكبون بعض الأخطاء. لكنهم في جميع الأحوال كانوا يعتقدون بوجود "الحقائق"، وبإمكان الوصول إليها، إلى حدّ ما. وعمليًا كان ثمة دائماً مجموعة من الوقائع يتفق عليها الجميع تقريباً. فإذا نظرت إلى تاريخ الحرب الماضية [العالمية الأولى] في الموسوعة البريطانية مثلاً، وجدت أن جزءاً محترماً منها مستقى من المصادر الألمانية. قد يختلف مؤرخان، بريطاني وألماني، على كثير من الأمور، حتى على بعض الأساسيات، لكن يظل هناك الكثير مما يمكن تسميته بالوقائع المحايدة، التي لايخطر لأحدهما أن يعارض به الآخر. هذا الأساس المشترك المتفق عليه بالذات هو الذي تحطمه النظم التوتاليتارية المتسلطة. والحق أن النظرية النازية تنكر على وجه الخصوص وجود شيء هو "الحقيقة". وليس من شيء مثلاً هو "العلم ". ثمة فقط "العلم الألماني"، و"العلم اليهودي"، الخ. والهدف المقصود من خط التفكير هذا هو عالَم كابوسي يكون فيه القائد أو عصبة ما، يتحكم لابالمستقيل فقط، بل بالماضي أيضاً. فإذا قال القائد أن الحادثة الفلانية لم تقع - إذن، فهي لم تقع. ولو قال إن اثنين واثنين يساويان الخمسة، إذن فاثنان واثنان يساويان الخمسة. والتوقعات تخيفني أكثر من القنابل - وبعد تجارب السنوات الأخيرة ليست عبارتي هذه مجازية.

وهل من الطفولي أو من الأعراض المَرَضية أن يخيف المرء نفسه باستبصارات توتاليتارية عن المستقبل؟ قبل أن تشطبوا على العالم التوتاليتاري المقبل بوصفه كابوساً لايمكن أن يتحقق، تذكروا أنه سنة ١٩٢٥ كان العالم الذي نعيشه اليوم [١٩٤٣] يبدو كابوساً غير قابل للتحقق. وليس ضد هذا العالم العشوائي المتقلب الذي يمكن أن يكون فيه بياض اليوم سواد الغد، ومناخ الأمس يتغير بمرسوم؛ إلا ضمانتين. الأولى هي أنه مهما أنكرت الحقيقة فإنها تظل قائمة، كما كانت، من

وراء ظهرك، فأنت بالنتيجة لايمكن أن تنتهكها بحيث تضعف الكفاءة العسكرية. والثانية أنه طالما ظلت أجزاء من العالم لم تخضع، فإن التراث الليبرالي المتحرر يمكن الحفاظ عليه حيًّا. لكن دع الفاشية، أو خليطاً من عدة نظم فاشية، تغزو العالم كله، فلايبقى لهاتين الضمانتين وجود. ونحن في إنجلترا نقلل من شأن مثل هذا الشيء، لأن تقاليدنا وماضينا الآمن. أعطيانا إيماناً عاطفيًّا بأن الكل يستقيم في النهاية، وأن أخشى ماتخشاه لايتحقق أخيراً. وبما أننا ربينا على مئات السنين من الآداب التي ينتصر فيها الحق لاشك في الفصل الأخير، فإننا نؤمن بما يشبه الغريزة بأن الشر لابد يهلك نفسه على المدى الطويل. والانعزالية السلبية Pacifism تقوم على هذا الاعتقاد. لاتقاوم الشر، وهو لابد محطمٌ نفسه آخر الأمر. لكن ما الداعي لأن يفعل هذا؟ وما الدليل على أنه يتلاشى في النهاية؟ وهل من مثال واحد على دولة صناعية حديثة انهارت إلا إذا ضربت من الخارج بالقوة العسكرية؟

تأمل مثلاً في عودة الرق والعبودية. من كان يتخيل منذ عشرين عاماً أن الرق يعود إلى أوروبا؟ طيّب، ولكن الرق عاد أمام أنظارنا ورغم أنفنا. ومخيمات العمل القسري منتشرة على طول أوروبا وشمال أفريقيا حيث البولونيون والروس واليهود والسجناء السياسيون من كل عرق يعملون قسراً في شق الطرق وتصريف مياه المستنقعات مقابل مايسد رمقهم، وهذه عبودية صريحة مكّوكية. لانستطيع إلا القول بأن بيع وشراء الرقيق من قبل الأفراد مايزال ممنوعاً. وثمة وسائل أخرى – تشتيت شمل الأسر مثلاً – الظروف هنا ربما كانت أسوأ حتى مما كانت عليه في مزارع القطن الأمريكية القائمة على الرق. وليس من سبب للتفكير بأن هذه الأحوال ستتغير مع بقاء أية سيطرة توتاليتارية في أي مكان. ونحن لاندرك نتائجها الكاملة، لأننا نشعر بطريقة صوفية غريبة بأن النظام القائم على الرق منهار حتماً. لكن الأمر

يستحق مقارنة مدى بقاء إمبراطوريات الرق القديمة مع مدى الدولة الحديثة. لقد دامت الحضارات المؤسسة على الرق سنوات تصل إلى الأربعة آلاف!

وحين أفكر في الزمن الغابر، فإن التفاصيل التي تخيفني هي أن مئات الملايين من الأرقاء أولئكم، وعلى ظهورهم قامت الحضارات جيلاً بعد جيل لم يخلفوا وراءهم أية وثائق أو سجلات. لانعرف حتى أسمائهم. ومن التاريخ الإغريقي والروماني كله، كم من أسماء العبيد تذكرون؟ أستطيع أن أذكر لكم اسمين، وربما ثلاثة. الأول هو سبارتاكوس، والثاني هو إبكتيتوس. كما أن في القاعة الرومانية في المتحف البريطاني قارورة بلورية نقش على أسفلها اسم "فيليكس فيسيت". وفي ذهني صورة خيالية للمسكين فيليكس (غالي بشعر أحمر وطوق معدني حول عنقه)، لكن الواقع أنه ربما لم يكن من الرقيق؛ فلايبقى إلا اثنين من الرقيق لاشك فيهما أذكر اسميهما. وربما ليس إلا قليل من الناس يستطيع أن يذكر أكثر من ذلك. والبقية زالوا من الوجود صامتين.

٥

كانت الطبقة العاملة الإسبانية عماد المقاومة ضد فرانكو، خصوصاً أعضاء النقابات العمالية في المدن. فالطبقة العاملة تظل على المدى الطويل - والمهم تذكّر أن هذا لاينطبق إلا على المدى الطويل فقط - هي العدو اللدود المعتمد عليه لمقاومة الفاشية، والسبب ببساطة أن الطبقة العاملة هي الرابح الأكبر من إعادة بناء المجتمع بناء منصفاً. وهي على عكس غيرها من الطبقات الاجتماعية أو الفئات، لايمكن رشوتها مطوّلاً.

والقول بهذا لايعني تمجيد الطبقة العاملة، أو اعتبارها مثالية. ففي النضال الطويل الذي تلا الثورة الروسية، العمال اليدويون هم الذين خسروا، ويستحيل الشعور بأنها لم تكن غلطتهم هم. مرة بعد مرة، وفي بلاد بعد بلاد، جرى تحطيم حركات الطبقات العاملة المنظمة بالقوة المكشوفة غير الشرعية بينما رفقاؤهم في الخارج، المرتبطون بهم بتلاحم نظري، وقفوا موقف المتفرج، ولم يفعلوا شيئاً؛ وتحت هذا، وهو السبب السري الخفي لكثير من الخيانات، توضحت واقعة أنه بين العمال البيض وبين الملونين ليس ثمة حتى ذلك التلاحم اللفظي. من يظل مؤمناً بالبروليتاريا العالمية الواعية لطبقتها بعد أحداث السنوات العشر الماضية؟ يبدو أن عند الطبقة العاملة البريطانية مذابح رفاقهم في فيينا وبرلين ومدريد أو في أي مكان شئتم لاترقى بالأهمية إلى مستوى نتيجة مباريات البارحة بكرة القدم. ورغم هذا لاتختلف واقعة أن الطبقة العاملة ستتابع النضال ضد الفاشية بعد أن يتخلى عنه الجميع. أحد مظاهر الاحتلال النازي لفرنسا كان الارتداد والتقاعس المزريان لطبقة الإنتلجنسيا المثقفة، بما فيها بعض المحسوبين على الجناح اليساري من

الإنتليجنسيا السياسية. والإنتلجنسيا هي الفئة التي كانت الأكثر نقيقاً ضد الفاشيّة، وبالرغم من هذا ينهار القسم الأكبر منهم إلى الانهزامية حين تقع الواقعة. إنهم بعيدو النظر فيما يتعلق بالعوامل التي هي ضدهم، يضاف إلى هذا أنه يمكن رشوتهم - والواضح أن النازيين يعتقدون أن من المربح العمل على رشوة المثقفين. أما مع الطبقة العاملة فالأمر بالعكس تماماً. فهم أكثر جهلاً من أن يكشفوا الألاعيب التي تجري عليهم، فقد يبتلعون الوعود الفاشية بسهولة، لكنهم، إن عاجلاً أم آجلاً، يعودون إلى النضال ثانية. وهم لابد فاعلون هذا لأنهم، بمعاناتهم بأجسادهم يكتشفون دائماً بأن الوعود الفاشية لا يمكن الوفاء بها. ولكي تربح الفاشية الطبقة العاملة نهائيًا، عليها أن ترفع مستوى المعيشة، الأمر الذي تعجز عنه، وربما كانت غير راغبة به بالأساس. إن نضال الطبقة العاملة هو مثل نمو النبات. النبات أعمى ومغفل، لكنه يعرف ما يجعله مثابراً على الصعود إلى فوق، نحو النور، ويظل يفعل هذا مهما واجه من المعيقات التي لانهاية لها. فما الذي يناضل من أجله العمال؟ إنهم يناضلون ببساطة من أجل الحياة الكريمة التي يتزايد إدراكهم شيئاً فشيئاً بأنها أصبحت اليوم، تكنيكيًا، من الممكنات. إدراكهم هذا له مد وجزر. ففي إسبانيا، وخلال مدة محدودة كان الناس يتصرفون بوعي، ويتقدمون لتحقيق هدف يريدونه ويعتقدون بإمكان الوصول إليه. وهذا يفسر الشعور بالتفاؤل بالحياة في ظل حكومة إسبانيا الجمهورية في الشهور الأولى من الحرب. كان العوام يعرفون في عظامهم بأن الجمهورية كانت صديقاً لهم وأن فرنسا هي العدو. وكانوا يعلمون بأنهم الجانب المحِق، لأنهم كانوا يقاتلون من أجل شيء كان العالم مديناً لهم به، ويستطيع الوفاء بدينه.

على المرء أن يذكر هذا لتظل الحرب الإسبانية في منظورها الحقيقي. لأنه حين يفكر في قسوة وفساد وعبثية الحرب - خصوصاً إذا رافقتها المكائد، والاضطهاد والأكاذيب وسوء التفاهم - فإنه دائماً يجد نفسه أمام إغراء القول: "إن كل جانب

من الجانبين أسوأ من الآخر. فأنا محايد". لكن عمليًّا لايمكن أن يظل المرء محايداً، وليس ثمة حرب لافرق فيمن ينتصر فيها. فدائماً تقريباً يقف أحد الجانبين إلى صف التقدم، قليلاً أو كثيراً، ويقف الجانب الآخر إلى جانب الرجعية. لقد أثارت الجمهورية الإسبانية من الكراهية في نفوس الأثرياء والطبقات النبيلة والكاردينالات والخليعين والبلطجية وماإليهم، بما يكفي لتبيان الأرضية. لقد كانت في جوهرها حرباً طبقية. ولو جرى الانتصار فيها لتقوّت قضية سواد الناس في كل مكان. لكنها كانت خاسرة، وأصحاب الحصص فيها في العالم كله أخذوا باقتسام الغنيمة. هذه هي القضية الأساسية، وماعدا هذا فزبَد على السطح يذهب جفاء.

٦

جرى حسم الحرب الإسبانية وتصفيتها في لندن وباريس وروما وبرلين – وعلى أية حال لافي إسبانيا. بعد صيف ١٩٣٧ تبين كل من له عينان أن الحكومة لن تستطيع الانتصار في الحرب إلا إذا حصلت تغيرات عميقة في الوضع الدولي، وحكومة نيجرين وجماعته ماقرروا القتال إلا لأنهم تأثروا جزئيًّا بتوقع حصول الحرب العالمية سنة ١٩٣٨ فاندلعت فعلاً سنة ١٩٣٩. أما الخلافات التي كثر الحديث فيها بين صفوف الجانب الحكومي لم تكن هي السبب الرئيس في الهزيمة. تألفت الميليشيات الحكومية بسرعة على سوء تسليحها وقصور النظر العسكري عندها، لكن الوضع لم يكن ليختلف لو ساد الاتفاق بين الفرقاء من البداية. في بداية الحرب الأهلية لم يكن العامل الإسباني المتوسط يعرف كيفية إطلاق البندقية (لم يكن في إسبانيا تجنيد إجباري في أي عهد)، وكانت مسالمة اليسار وسلبيته عائقاً كبيراً. الآلاف من الأجانب الذين خدموا في إسبانيا كانوا جنود مشاة جيدين، لكن لم يكن بينهم من الخبراء إلا القليل. والنظرية التروتسكية القائلة بإمكان الانتصار في الحرب إذا لم يجر تخريبها من الداخل قد كانت مغلوطة. وتأميم المعامل، ونسف الكنائس، وإصدار البيانات الثورية لم تكن لتجعل الجيش أكثر كفاءة. الفاشيّون انتصروا لأنهم كانوا الجانب الأقوى؛ وكانت لديهم أسلحة حديثة لم تكن عند أعدائهم. ولاتستطيع أية استراتيجية سياسية التغلب على هذا.

أكبر شيء محير في الحرب الإسبانية هو سلوك القوى العظمى. لقد ربح الحرب لفرانكو في الواقع العملي الألمان والطليان، ولدوافع واضحة بما فيه الكفاية. لكن دوافع فرنسا وبريطانيا ليس من السهل تفهمها. سنة ١٩٣٦ كان واضحاً

للجميع أنه لو ساعدت بريطانيا الحكومة الإسبانية بأسلحة لاتزيد عن بضعة ملايين من الجنيهات لانهار فرانكو ونالت الستراتيجية الألمانية ضعضعة خطيرة. حينئذ لم يكن يتطلب الأمر إلا تبصراً تنبؤيًا بالمستقبل لكي يُرى أن الحرب بين بريطانيا وألمانيا لابد قادمة، بل كان يمكن أن يخمن المرء موعدها بحدود سنة أو اثنتين. وبالرغم من هذا، وبمنتهى السفالة والجبن والنفاق قامت الطبقة الحاكمة البريطانية بكل ما باستطاعتها لتسليم إسبانيا إلى فرانكو والنازيين. لماذا؟ لأنهم كانوا مع الفاشيّة، هذا هو الجواب البديهي. لاشك أنهم كانوا كذلك، لكن حين حانت ساعة النزال آثروا الوقوف بوجه ألمانيا. ماتزال الخطة التي على أساسها أيّدوا فرانكو غامضة، غير مؤكدة، وربما لم يكن لديهم خطة واضحة بالأساس. فمسألة هل الطبقة الحاكمة البريطانية خبيثة، أم هي فقط غبية، هي إحدى أصعب المسائل في وقتنا الحاضر، وهي في بعض الأحيان من أهم المسائل.

أما الروس فدوافعهم في الحرب الإسبانية لايمكن التوفيق بينها. فهل تدخلوا في إسبانيا، كما يعتقد "الورديون، خفيفو الحمرة" للدفاع عن الديمقراطية واعتراض النازيين؟ إذن فلماذا كان تدخلهم على هذا القدر من الضآلة والتفاهة، ثم غادروها تسللاً؟ أم هل كانوا، كما يعتقد الكاثوليك، يريدون رعاية الثورة في إسبانيا؟ فلماذا بذلوا أكبر الجهود لتحطيم الحركة الثورية الإسبانية وحماية الملكية الشخصية وتسليم السلطة للطبقة الوسطى بما يعارض مصلحة الطبقة العاملة؟ أم هل تدخلوا، كما يعتقد التروتسكيون، ببساطة لمنع الثورة من الحصول أصلاً؟ إذن فلماذا لم يؤيدوا فرانكو بصراحة؟ والحق أن أفعالهم يمكن تفسيرها بسهولة إذا افترض المرء أنهم كانوا يتصرفون مدفوعين بعدة دوافع متعارضة. وأعتقد أننا سنتبين في المستقبل أن سياسة ستالين الخارجية ليست تلك السياسة الذكية، ولو ذكاء الشيطان، كما يُظن، بل هي مجرد سياسة انتهازية على أقصى درجة من الغباء.

على كل حال أثبتت الحرب الإسبانية أن النازيين كانوا يعرفون ماذا يفعلون

وماذا لايفعله خصومهم. كان القتال يجري على أدنى مستوى فني تكنيكي، والاستراتيجيات بسيطة جداً. فالجانب الذي يتفوق بالسلاح يربح الحرب. وقد زود النازيون والطليان أصدقاءهم الفاشيين بالسلاح، أما الديمقراطيات الغربية والروس فلم يعطوا السلاح لمن يفترض أنهم أصدقاؤهم. وهكذا تهاوت الجمهورية الإسبانية وقد "ربحت مالم تخسره أية جمهورية".

هل كان من الصواب فعل مافعله أصحاب الجناح اليساري في الدول الأخرى، من تشجيعهم الإسبانيين على الصمود في القتال حتى حين تبين أنهم خاسرون لامحالة؟ هذا السؤال لابد من الإجابة عليه. أنا شخصيًّا أظن أنه الأمر الصواب، لأنني أؤمن أن الأصلح، حتى من ناحية النجاة والبقاء، أن يحارب المرء ويخسر من أن يستسلم بلا مقاومة. ونتائج استراتيجية المقاومة العظمى للفاشيّة بأي ثمن لم يتمّ تقويمها بعدُ. وقد صمدت جيوش الجمهورية الرثة الثياب الضعيفة التسليح سنتين ونصفاً، وهي مدة لاشك أطول مما كان يتوقع أعداؤهم. أما القول بأن هذا العمل خرّب البرنامج الفاشي، أو أنه بالعكس أتاح للنازية الفرصة الأطول لبناء ماكينتها الحربية، فهو موضوع مازال غير مؤكد.

٧

لاأفكر في الحرب الإسبانية إلا وترد إلى ذهني خاطرتان. إحداهما عن المهجع في مستشفى ليريدا والأصوات الحزينة لجرحى رجال الميليشيا تغني أغنية تنتهي بلازمة تقول:

Una resolucion,
Luchar hast' al fin!

وهذا صحيح، فقد حاربوا إلى النهاية فعلاً. قضت الجيوش الجمهورية الشهور الثماني عشر الأخيرة من الحرب بدون سجائر تقريباً، وبالقليل من الطعام. وحتى حين غادرتُ إسبانيا في منتصف ١٩٣٧، كان اللحم والخبز عزيزان، والسجائر نادرة، وأما القهوة والسكر فشبه مفقودين.

الذكرى الأخرى هي ذكرى رجل الميليشيات الإيطالي ذاك الذي صافحني في غرفة الحرس يومَ التحقتُ بالميليشيات. وقد كتبت عن هذا الرجل في بداية كتابي عن الحرب الإسبانية،* ولاأريد إعادة ماذكرته هناك. وحين أتذكر - بكل الوضوح والصفاء - لباسه الرث وتقاطيع وجهه القوي الجهم البريء، فإن الموضوعات الجانبية الشائكة عن الحرب تتلاشى أهميتها وأعود للإيمان القوي الواضح بأنه لم يكن ثمة شك في أي الجانبين كان على حق. وبالرغم من سياسة القوى العظمى والكذب في الصحافة، فإن جوهر قضية الحرب كان محاولة أناس من مثل ذلك الشاب تحقيق الحياة الكريمة التي كانوا موقنين بأنها حقهم الطبيعي. ومن الصعب

* الحنين إلى كاتالونيا. وهو القسم الأول من كتابنا هذا (كتب سنة ١٩٣٨)

التفكير بالمصير المؤكد الذي لاقاه هذا الشاب بالذات وأمثاله بدون الإحساس ببضعة أنواع من المرارة. وبما أنني قابلته في ثكنات لينين فالأوكد أنه كان تروتسكيًا أو أناركيًا. وفي هذه الظروف العجيبة في أيامنا فإن الناس من هذا النوع إن لم تقتلهم الجستابو قتلتهم الـ .g.p.u [اتحاد النقابات الشيوعية] . هذا لايغير من المبادئ البعيدة المدى. هذا الوجه الطيب الذي لم أره إلا لدقيقة أو دقيقتين يظل معي نوعاً من التذكار البصري لما كانت الحرب تعنيه حقاً. إنه يرمز عندي إلى الطبقة العاملة الأوروبية، يلاحقها بوليس البلدان كلها، والجماهير التي ملأت القبور الجماعية في أراضي المعارك الإسبانية، وهي الآن، وعلى مستوى بضعة ملايين، تتفسخ في معسكرات العمل القسري.

وحين يفكر المرء في الناس الذي أيّدوا الفاشية، أو كانوا يدعمونها، تأخذه الدهشة لتنوعهم واختلافهم. ياله من طاقم! فكِّر في برنامج يمكن أن يجمع بين هتلر وبيتان ومونتاج نورمان وبافيليتش ووليام راندولف هيرست وسترايشر وبوخمان وعزرا باوند وجوان مارش وكوكتو وثيسّن والأب كوجلين ومفتي القدس وأرنولد لن وأنتونيسكو وشبنجلر وبيفرلي نيكولس والليدي هيوستن ومارينيتّي جميعاً في قارب واحد! لكن المفتاح بسيط جداً. إنهم جميعاً لديهم شيء يخسرونه، أو أناس مشتاقون إلى مجتمع هرمي ويخشون قدوم العالم المؤلف من أناس أحرار متساوين. ووراء كل الهذر الذي يقال عن روسيا التي "دون إله" وعن "مادية" الطبقة العاملة يختبئ تصميم أصحاب الأموال و الامتيازات على التشبث بها. أضف إلى هذا، القضية التالية بالرغم من أن فيها بعض الحق، أعني الحديث المتكرر عن عبثية إعادة بناء المجتمع قبل "بناء القلوب" وتغيير مافي النفوس. فالأتقياء، بدءاً بالبابا وانتهاءً بممارسي اليوجا في كاليفورنيا، ماهرون في تغيير مافي القلوب، ويعدّون هذا أهم من أي تغيير في النظام الاقتصادي. لقد عزا بيتان سقوط فرنسا إلى انغماس الجماهير بالملذات. ويمكن للمرء أن يعرف قلة قيمة هذه العبارة إذا توقف ليتأمل كم من

الملذات متاح للفلاح الفرنسي العادي أو للعامل مقارناً بماهو متاح لبيتان بالذات. يالتلك الوقاحة عند أولئك السياسيين والكهنة والأدباء وغيرهم، الذين يلقون المواعظ على اشتراكي الطبقة العاملة لأنه "مادي"! وكل مايطلبه العامل هو مايعتبره هؤلاء الآخرون الحد الأدنى الذي لاغنى عنه ليتمكن من البقاء على قيد الحياة؛ الكفاية من الطعام والخلاص من رعب البطالة من العمل، ومعرفة أن أبناءه ستكون لهم فرصة منصفة، حمام يومي وبياضات نظيفة، وسقف لايدلف، وساعات عمل قصيرة تترك فيك الكفاية من القدرة على تمضية اليوم. ليس من واحد من الواعظين ضد 'المادية' هؤلاء يعتبر أنه يمكن الحياة بأقل من هذه الأشياء. ومن السهولة بمكان تحقيق هذه الأمور إذا صممنا عليها خلال عشرين سنة! إن رفع مستوى المعيشة في العالم كله ليصبح بمستوى بريطانيا ليس عملاً أشق من الحرب التي خضناها مؤخراً [العالمية الثانية]. أنا لاأزعم، ولا أعرف من يزعم بأن هذا وحده قد يحل أي شيء بذاته. كل مافي الأمر أن الفاقة والعمل الشاق يجب القضاء عليهما قبل أن تبدأ محاولة حل المشاكل الإنسانية الحقيقية. المشكلة الكبرى في أيامنا هذه هي انهيار الإيمان بالخلود الفردي، وهذه لايمكن التصدي لها بينما الإنسان المتوسط إما يكدح كالثور أو يرتجف هلعاً من البوليس السري. كم هم على صواب أفراد الطبقة العاملة في "ماديتهم"! وكم هم على صواب في اعتقادهم بأن المعدة تأتي قبل الروح، لامن حيث القيمة بل بالترتيب الزمني! افهموا هذا تجدوا أن الرعب الطويل الذي نعانيه يصبح على الأقل معقولاً. كل الاعتبارات تجعل المرء يتلعثم – الصوت المنذر سواء من أمثال بيتان أو من أمثال غاندي، الواقعة المحتمة التي تفرض على من يحارب فعلاً أن ينحط ويعاني، الوضع الأخلاقي اللامبالي لبريطانيا برغائها عن الديمقراطية واحتفاظها بإمبراطورية محتلة، التطورات الخبيثة في روسيا السوفياتية، والمهازل السخيفة الصادرة عن سياسة الجناح اليساري – كل هذا يخمد ويتلاشى، ولايعود المرء يشاهد إلا نضال العوام الذين يستيقظون بالتدريج ويقفون ضد أسياد الملكية

الخاصة، وكذابيهم المأجورين. المسألة بسيطة جدًّا. هل سيسمح للبشر من أمثال ذلك الجندي الإيطالي بالعيش الكريم، الحياة الإنسانية المليئة التي هي الآن ممكنة من الناحية التكنيكية، أم لا؟ هل سيلقى بجماهير البسطاء في الأوحال أم لا؟ أنا شخصيًّا أؤمن، وربما لا على أسس راسخة، بأن الإنسان المتوسط سوف ينتصر في نضاله إن عاجلاً أو آجلاً، وأود أن يحدث هذا عاجلاً لاآجلاً - في وقتٍ ما خلال المئة سنة القادمة، لاخلال الألف القادمة. وقد كان هذا هو المسألة الحقيقية التي قامت عليها الحرب الإسبانية، والحروب التي تلتها، وربما كل الحروب القادمة أيضاً.

لم أشاهد رجل الميليشيا الإيطالي ذاك ثانيةً، ولم أعرف حتى اسمه. ويمكن اعتباره بما يشبه اليقين ميتاً الآن.

وبعد سنتين من تلك المقابلة، حين تبين أن الهزيمة في تلك الحرب قد أصبحت شبه محققة، كتبت هذا الشعر على ذكراه:

الجندي الإيطالي شدّ على يدي
بجانب طاولة غرفة الحرس؛
اليد القوية واليد الرقيقة
اللتان لاتلتقي راحتاهما

إلاّ عل أصوات القذائف،
أواه! ياللاطمئنان الذي عرفت حينئذ
عند التحديق في وجهه الخشن
الأنقى من وجه امرأة!

الكلمات المتحذلقة التي تشعرني بالغثيان

ظلت في أذنيه مقدسة،
وقد ولد وهو يعرف ماتعلمته أنا
من الكتب، متفرقاً.

انتهت المدافع الخائنة من روايتها
وانطلت القصة على كلٍّ منا.
لكن بلاطتي الذهبية كانت من الذهب –
من كان يظن هذا؟

رافقك الحظ السعيد أيها الجندي الإيطالي!
لكن الحظ ليس للشجعان؛
ماذا يعطيك العالم بالمقابل؟
مهما كان فهو أقل مما أعطيته أنت.

بين الظلال والأشباح،
بين الأبيض والأحمر،
بين الرصاصة والكذبة،
أين تستطيع تخبئة رأسك؟

فأين مانويل جونزاليز،
وأين بيدرو أجوييّار،
وأين رامون فينيّيوزا؟
يعرف دود الأرض أين هم.

اسمك وأعمالك أصبحا طيَّ النسيان
قبل أن تجف عظامك،
والكذبة التي أودت بك أصبحت مدفونة
تحت كذب عميق آخر؛

لكن الشيء الذي رأيت في وجهك
لاتستطيع قوة استلابه:
ولاتستطيع أية قنبلة متفجرة
أن تمزق تلك الروح البلّورية.

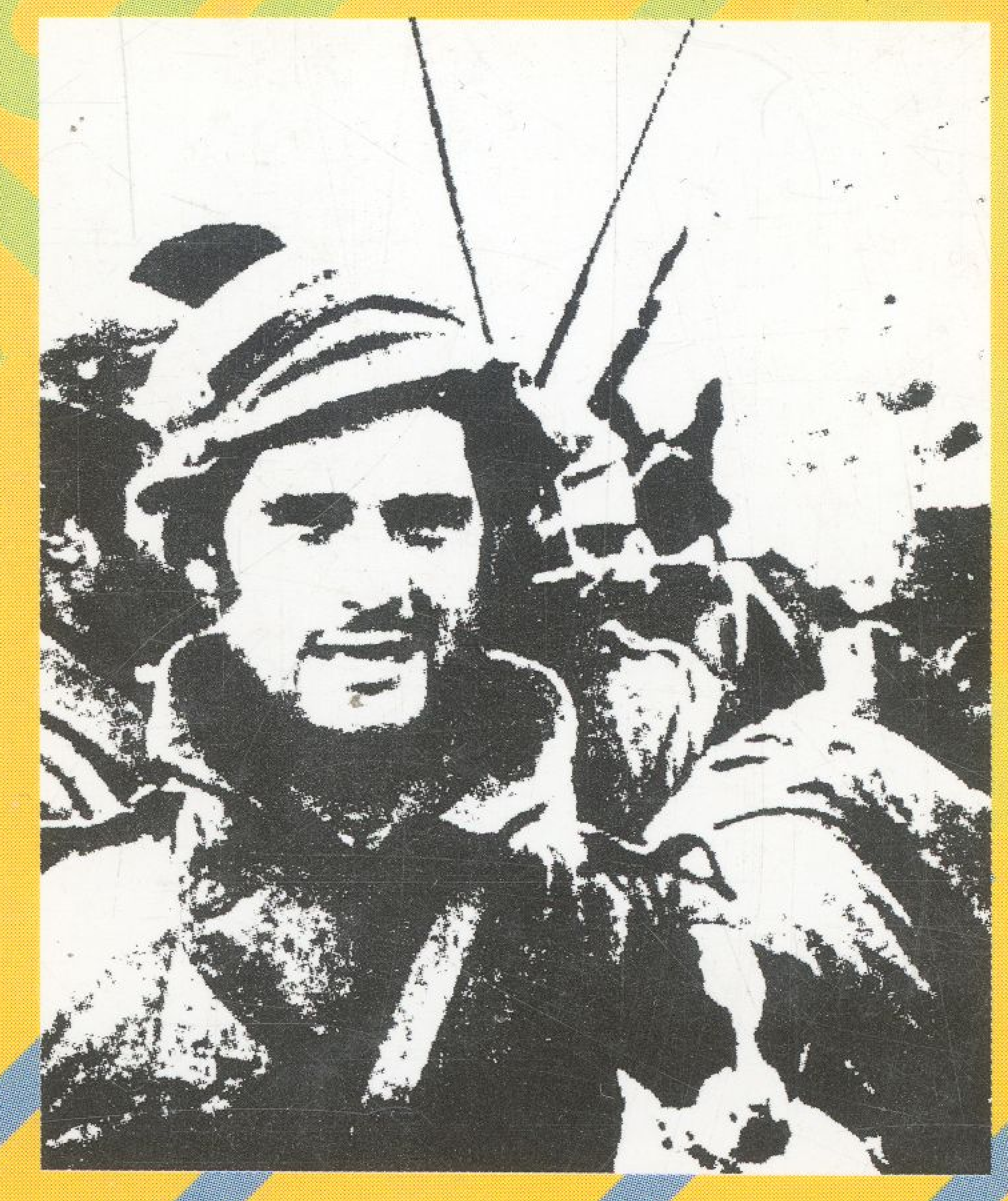
١٩٤٣

فهرس

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠٠٢

عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة



الحنين إلى كاتالونيا

مطابع وزارة الثقافة

سعر النسخة داخل القطر ١٤٠ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل ٢٨٠ ل.س